

# الحجاج بين النظرية والتطبيق



عالم الكتب الحديث  
Modern Book's world

للنشر والتوزيع

2020

# الحجاج

## بين النظرية والتطبيق

إعداد وتقديم

الأستاذ الدكتور أبو بكر العزاوي

عالم الكتب الحديث

*Modern Books' World*

إربد - الأردن

2020

الكتاب

الحجاج بين النظرية والتطبيق

تأليف

أبو بكر المزاري

الطبعة

الأولى، 2020

عدد الصفحات: 272

القياس: 24×17

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية

(2019/6/3041)

جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-9923-14-099-4

الآراء الواردة بالكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

الناشر

عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع

إربد - شارع الجامعة

تلفون: (27272272 - 00962)

خلوي: 0785459343


فاكس: 27269909 - 00962

صندوق البريد: (3469) الرمزي البريدي: (21110)

E-mail: [almalktob@yahoo.com](mailto:almalktob@yahoo.com)

[almalktob@hotmail.com](mailto:almalktob@hotmail.com)

[almalktob@gmail.com](mailto:almalktob@gmail.com)

 [facebook.com/modernworldbook](https://facebook.com/modernworldbook)

الفرع الثاني

جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع

الأردن - العبدلي - تلفون: 5264363 / 079

مكتب بيروت

روضة الفدير - بناية بزي - هاتف: 471357 1 00961

فاكس: 475905 1 00961

## المحتويات

الصفحة	اسم المؤلف	اسم المداخلة
5		تقديم الدكتور ابو بكر العزاوي
13	أبو بكر العزاوي	الترجمة والحجاج
27	محمد الولي	مهدات الخطابة البرلمانية
65	ترجمة عبد الرحمن رحموني وعزيز العماري	دور المستمع في البلاغة الجديدة لشايم بيرلمان تأليف: ريتشارد لونغ
83	ربيعة العربي	الحجاج: البنية والتنميط: مقارنة جدلية تداولية
103	ترجمة عبد الرحمن رحموني وعزيز العماري	تطور المقاربة التداولية - الجدلية في الحجاج تأليف: فرانس فان إمرن وبيتر جامعة امستردام- هولندا
133	عيد بلبع	البلاغة الخاصة: قراءة في حجاجية الشعري قصيدة (لا تصالح) لأمل دنقل أمموذجا
165	ابراهيمى بوداود	إستراتيجية توظيف الإجراء الحجاجي في كتابة النص المسرحي - دراسة في ضوء مقترح أبو بكر العزاوي -
181	لطيف حاتم الزامللي	حجاجية الروابط والعوامل في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم قاربة في ضوء التداولية المدجة
195	ترجمة: إبراهيم أمغار	مفهوم «الحجاج» وتعريفاته: عناصر من أجل تدريسية النظريات الحجاجية المعاصرة على المستوى الجامعي رفايل ميشلي - جامعة لوزان

الصفحة	اسم المؤلف	اسم المداخلة
217	مروة مختار	سلطة المفكر بين الخطاب الحجاجي والخطاب الثقافي التعريف بشكسبير نموذجاً
237	ترجمة: وثام المدي	البلاغة والحجاج: حول السخرية إيكهارد إيفس - جامعة هانوفر
271	<b>Boubker AZZAOU</b>	<b>(ad hominem) Logique, langage et argumentation (Entretien avec J.B. Grize)</b>

## تقديم

يسعدني أن أقوم بالإشراف والإعداد الكامل لهذا الكتاب الجماعي المحكم ، وقد وقع الاختيار على موضوع الحجاج بأنماطه ونظرياته العديدة والمتنوعة ، ووضعنا للكتاب عنوانا دقيقا ومحددا هو: 'الحجاج بين النظرية والتطبيق'. وقد شارك في هذا الكتاب لسانيون وبلاغيون وأدباء ونقاد ومهتمون بالترجمة من المغرب ومصر والجزائر والعراق.

وبعض البحوث نحى منحى نظريا، وبعضها الآخر ركّز على التطبيق، بعضها هو دراسة، وبعضها الآخر هو ترجمة لبحث من البحوث الأصلية الجادة. وقد تم التعريف، في هذا الكتاب الجماعي، بنظريات الحجاج الكبرى: نظرية الحجاج البلاغي نمودج البلاغة الجديدة لرائدها لشايم بيرلمان، نظرية الحجاج في اللغة لمؤسسها أرفالد ديكر، نظرية الحجاج المنطقي لصاحبها جان بليز غريز، نظرية الحجاج التداولي لصاحبها فان إميرين وروب غروتندورست.

وتناولت البحوث التي اشتمل عليها هذا الكتاب: علاقة الحجاج بالترجمة والسخرية والتعليم والمنطق الطبيعي، وحلل بعضها الخطاب القرآني والخطاب الشعري والخطاب المسرحي وغير ذلك. ونعتقد أن المادة العلمية التي اشتملت عليها هذه البحوث والدراسات والترجمات دسمة، وغنية بالمعلومات والآراء القيمة، ووجهات النظر الجديدة.

ونحاول الآن أن نعرف بهذه البحوث، ولو بشكل موجز:

المقال الأول هو للأستاذ أبو بكر العزاوي، وهو بعنوان: (الترجمة والحجاج)، وهو يتناول موضوعا طريفا وجديدا ومبتكرا. فإذا كان الدارسون والباحثون في مجال اللسانيات والأسلوبية والبلاغة ونظرية الترجمة وغيرها من المجالات العلمية والمعرفية، قد أشاروا إلى علاقة الترجمة بالمستويات اللغوية: التركيب، الصرف، المعجم، الدلالة، التداوليات...، وأشاروا أيضا إلى علاقتها (أي الترجمة) بالجزء والبلاغة والأسلوبية وغيرها، فإنهم لم يلتفتوا إلى هذا الجانب الأساسي والمهم، وهو المتمثل في البنية المنطقية الحجاجية للنص. ولذلك حاولنا أن نجيب في هذا المقال عن السؤال التالي: ما علاقة الترجمة بالحجاج ؟ وبعبارة

أخرى: ما علاقة الترجمة بالبنية الحجاجية المنطقية الاستدلالية للنص المراد ترجمته ؟ ومعلوم، أن الحجاج الذي نقصده وتنكلم عنه هنا، هو الحجاج اللغوي. ولقد كان النموذج التطبيقي الذي اعتمدناه هو الترجمة التي أنجزتها الدكتورة فاطمة الجامعي الحبابي لكتاب زوجها الفيلسوف المغربي محمد عزيز الحبابي حول أبين خلدون.

أما المقال الثاني فهو للبلاغي المغربي الأستاذ محمد الولي، وهو بعنوان: (مهدات الخطابة البرلمانية). ويقصد الأستاذ الولي بالخطابة ما نسميه نحن بالبلاغة، وهو يدرس هنا البلاغة الجديدة التي وضع أسسها الفيلسوف والمنطقي البلجيكي شايم بيرلمان. ولقد كانت الخطابة/ البلاغة، وما تزال موضوع نزاع بين الفلاسفة والخطباء. فقد طردها أفلاطون من جمهوريته المثالية لكونها مجبولة على الكذب وإلهاب الانفعال والإضرار بالناشئة. ولهذا انفردت الفلسفة، وأداتها الجدل بشؤون التربية والسياسة والعلم. أما أرسطو، فقد اتخذ موقفا مخالفا لموقف أفلاطون، فهو قد اعتبر الخطابة/ البلاغة الأداة الداعمة للسياسة في تدبير الحاضرة، الذي لا تتحمله الفلسفة. ولقد كان تصور أرسطو منسجما مع تمييزه بين فلسفة نظرية وفلسفة عملية. ولقد تعرضت الفلسفة العملية للإهمال على امتداد قرون، وتعرضت لتشنيع الفلاسفة والعقلانيين والتجريبيين، ولكنها استعادت قوتها وصولتها وحضورها البارز مع بول ريكور وأتريكو بيرتي ومارتا نوسبوم وشايم بيرلمان وغيرهم. وفي هذا السياق استعادت الخطابة/ البلاغة مكانتها القديمة، بل إن البلاغة الجديدة، أو البلاغة الحجاجية مع بيرلمان غزت فضاءات جديدة، وبسطت نفوذها على كل أشكال الخطاب السياسي والقانوني والقضائي والتربوي والأخلاقي والديني والإيديولوجي والأدبي وغيرها. ولقد انتزعت من الجدل أغلب مباحثه وهذا هو جوهر المشروع البلاغي البرلماني.

أما المقال الثالث، في هذا الملف، فهو الترجمة التي أنجزها الأستاذان عبد الرحمن رحموني وعزيز العماري لمقال الأستاذ ريتشارد لونغ (Richard Long)، وهو بعنوان: (دور المستمع في البلاغة الجديدة لشايم بيرلمان)، ويمحص كاتب المقال هنا أنموذج البلاغة الجديدة: تصوراتها ومفاهيمها المتعاقبة المؤطرة للأنموذج برمته، ولا سيما طبيعة الحجاج ومستلزماته وسبل تحقيقه، ممعنا نظره في مفهوم المستمع داخل النظرية الحجاجية لشايم

بيرلمان: خصائصه وأدواره التي يضطلع بها بمعية المتكلم أو الخطيب في السيرة الحجاجية. وقد استنتج المؤلف، بموجب ذلك، أن بيرلمان يفترض خطيباً يصنع الحضور لسانياً عن طريق تحليل كيف يفكر المستمع ويفعل، مشيراً إلى ما يجعل المستمع صادقاً، ومن ثمة دخول الخطيب بمعية المستمع في المجموعة، معبراً عن أفكار المستمع. أضف إلى ذلك أن الحجاج لا يحقق المعنى إلا حين يتمثل المستمع في وعي المتكلم، ويتمثل المتكلم في وعي المستمع، وبدلاً من تحليل المستمع فحسب، يصبح الخطيب مستمعاً، واندماج بعضهما في بعض يصيرهما ذاتاً، فتنتج الوحدة في الفعل، وبذلك فإن البلاغة الجديدة لبيرلمان تجاوزت تحليل المستمع.

وإذا كان البحثان الثاني والثالث هما نظرية البلاغة الجديدة، أو الحجاج البلاغي، لشايم بيرلمان، فإن المقالان التاليان (الرابع والخامس)، يرتبطان بنظرية الحجاج التداولي الجدلي (أي المدرسة الهولندية) لمؤسسها فان إمرن وزميله غروتندورست.

المقال الرابع هو للأستاذة ربيعة العربي، وهو بعنوان: (الحجاج: البنية والتنميط، مقارنة جدلية تداولية). وهذا البحث يندرج في إطار التداوليات المعيارية، ويندرج بالضبط في نظرية الحجاج التداولي الجدلي التي يتزعمها كل من فان إمرن وغروتندورست. وقد انطلقت هذه النظرية، في مقاربتها للحجاج من منظور، أو من برنامج بحث عام يجمع بين البعد التواصلية والبعد المعيارية النقدي. ويكمن جوهر نظرية الحجاج التداولي الجدلي، في ربط الحجاج بمحل الخلاف في الرأي انطلاقاً من أسس معقولة. ولذلك، فإن الاستراتيجية المؤسسة للحجاج تتمثل في إجراء نقاش عقلاني وفق أسس معيارية مضبوطة، وذلك بغاية إقناع الطرف المعارض. ولتحقيق هذه الاستراتيجية العامة، فإن هذه النظرية انبنت على مجموعة من الأسس: منطلقها تعيين الخلاف في الرأي، وتحديد المسلمات الضمنية، وعرض الخطاطات الحجاجية، وتحليل البنية الحجاجية، ومتهاها الكشف عن المغالطات، وتقويم الحجاج.

أما المقال الخامس، فهو الترجمة التي أنجزها الأستاذان عبد الرحمن رحموني وعزيز العماري لمقال فان إمرن وبيتر هوتلوسر، وهو بعنوان: (تطور النظرية التداولية الجدلية في الحجاج)، ويقدم هذا البحث صيغة مستجدة للقواعد التداولية الجدلية التي تستعمل في



النقاش النقدي، وتستجيب له، قصد تفادي حدوث المغالطات، مقترحا سبل تطويرها عن طريق إدماج نسقي للاعتبارات البلاغية في إطار نظري جدلي، وتوظيف مفهوم المناورة الإستراتيجية الرامي إلى تحليل عميق للخطاب الحجاجي، وفي هذا السياق، وضع المؤلفان ثلاثة برامج للبحث: (1) برنامج خاص بالبحث التجريبي المنطلق من النظرية التداولية — الجدلية تحديدا إلى التطبيق الفعلي للحجاج ضمن علاقات موسعة، و(2) برنامج يتعلق بتحديد وتصنيف المؤشرات في الخطاب الحجاجي للنقلات المقامة من قبل المشاركين، و(3) برنامج يعنى بدراسة الحجاج، كما هو محقق في السياق القانوني والسياسي.

نصل بعد هذا إلى أول بحث تطبيقي، في هذا الملف، المقال السادس، وهو للناقد والبلاغي الأستاذ عيد بلع من مصر، وهو بعنوان: (البلاغة الخاصة: قراءة في حجاجية الشعري قصيدة لا تصالح لأمل دنقل أنموذجا). وينطلق هذا البحث من قناعة منهجية خلاصتها أن كل خطاب له بلاغته الخاصة المرتبطة ببواعثه وغاياته، والمرتبطة بخصوصياته الأسلوبية التي تؤدي أغراضه التواصلية. ومنهجية الدراسة تتحدد في تتبع مظاهر الخصوصية الأسلوبية، وتحليلها، والوقوف على الآليات التي يؤدي بها الاستعمال الخاص للغة، الغاية المطلوبة من خطاب الحجاج البلاغي.

وقد ارتكز تحليل الخطاب على مدخل تكاملي له منهجيته الخاصة الموزعة في مبحثين: جاء الأول مهادا نظريا، ومداخل منهجية تمثلت فيما يلي: أولا: حجاجية الشعري، ثانيا: الخطاب الحجاجي الذي تمثل في أوامر ونواه جاء في حوار تحييلي قوامه استعمال الحيل الأسلوبية وتوظيف الأحداث لبناء الحجج. ثالثا: أساليب الأفعال اللغوية وبناء الحجة.

المبحث الثاني من المقال هو قراءة تحليلية تُعنى برصد الظواهر الأسلوبية السائدة في النص وتصنيفها وتحديد وظائفها التي تنبثق عن وظيفتها العامة المتمثلة في الحجاج.

المقال السابع، هو للأستاذ إبراهيمي بوداود عميد إحدى الجامعات الجزائرية، وهو بعنوان: (إستراتيجية توظيف الإجراء الحجاجي في كتابة النص المسرحي: دراسة في ضوء مقترح أبو بكر العزاوي). وقد انطلق المؤلف من عدة كتب وأعمال للعزاوي، وبخاصة الكتب التالية: (اللغة والحجاج)، و(الخطاب والحجاج)، و(اللغة والمنطق)، ليستخرج جملة

من الإجراءات التي وقف عندها مؤلف الكتب السابقة، ووضح اشتغالها، وبين وظائفها. وقد عنيت هذه الإجراءات بتتبع أثر الأبعاد الحجاجية في الخطاب. وقد عالج الأستاذ إبراهيمي عدة قضايا، في بحثه، منها: الخطاب المسرحي وفعل التواصل، منطلقاً من القولة العزائية لا تواصل من غير حجاج، ولا حجاج من غير تواصل، الحوار المسرحي بين المفهوم والوظيفة، حجاجية الحوار المسرحي، حجاجية الحوار عند العزائي، وفق إجراءاته النسقي والسياقي، وقضايا أخرى مثل: الروابط الحجاجية، وحجاجية الأمثال، وغيرها.

المقال الثامن هو للساني العراقي الأستاذ لطيف حاتم الزامللي، وهو بعنوان: (حجاجية الروابط والعوامل في القرآن الكريم: الجزء الثلاثون). مما هو ثابت في الدرس النحوي العربي، أن الحرف لا معنى له في نفسه، بل يتضمن معناه مع غيره، إلا في استثناءات نادرة، وبخاصة عند الأصوليين في قولهم بالمعنى الإيجادي للحروف. وبسبب من متابعة جهود الباحثين في التداوليات والحجاج، وما أفادوا منه من طرح في هذا المجال أمثال: د. أبو بكر العزائي، وما صدر عنهم من جهود ترى وجود معنى متأصل في ألفاظ اللغة، وأن للحروف قوة حجاجية في صلب بنيتها، تتضح في سياقها التركيبي، وتتفاوت بحسب الرابط، أو العامل الحجاجي المستعمل بحسب القصد والغرض، فإن المؤلف حاول أن يدرس الروابط والعوامل الحجاجية في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم، مبيناً سياقاتها المختلفة، ومبيناً جوانبها الحجاجية في علاقتها بغايات الخطاب.

أما المقال التاسع، فهو الترجمة التي أنجزها الأستاذ إبراهيم أمغار لمقال رفائيل ميشلي (R. Micheli)، وهو بعنوان: (مفهوم الحجاج وتعريفاته: عناصر من أجل تدريسية النظريات الحجاجية المعاصرة على المستوى الجامعي). يقترح الكاتب، في هذا المقال، تعزيز اكتشاف النظريات المعاصرة للحجاج، وتملك زمامها من قبل طلاب الماجستير. ولما كان مفهوم الحجاج متعدد المعاني، فقد حاول الكاتب تحديد الطرائق والرهانات التي تقدم بها النظريات المختلفة تعريفها للمفهوم. ويسعى إلى أن تكون المناقشات التي تدور بين المتخصصين، وهم بصدد تعريف موضوعهم مفهومة وواضحة بما يسمح للطلاب باختيار تعريف للحجاج من

بين عدة تعريفات بشكل واسع بالحقائق. ويسهم المقال كذلك في توضيح الأبعاد التدريسية لنظريات الحجاج على المستوى الجامعي.

المقال العاشر، هو للناقدة المصرية الأستاذة مروة مختار، وهو بعنوان: (سلطة المفكر بين الخطاب الحجاجي والخطاب الثقافي: التعريف بشكسبير نموذجاً).

تحاول هذه المقالة أن تبحث عن السلطة التي يمارسها المؤلف على القارئ أثناء عملية الكتابة، وذلك من خلال نسج نص يعتمد تقنيات الحجاج بوصفها إستراتيجية خطاب، ومنطلقاً من النسق الثقافي الذي بزغت فيه الشخصية التي قام الكاتب بدراساتها في نسج لا تستطيع تمييز سداته من لحمته إلا بقراءة متأنية ومحاوره لعملية الإبداع بأركانها الثلاثة: مرسل ومستقبل وموضوع. وتحاول هذه المقاربة أيضاً أن تبحث عن أثر الشخصية المختارة من قبل الكاتب، على وسائل الحجاج التي اصطفاها بعناية لاستمالة القارئ للتسليم بوجهة نظره. والنموذج المختار هنا هو عباس محمود العقاد من خلال دراسته لشكسبير، مع مقارنة هذه الدراسة بدراساته الأخرى للشخصيات الإسلامية. وحاولت الكاتبة أن تجيب عن عدة أسئلة منها: هل هناك علاقة بين الشخصية ومساحة الخطاب الحجاجي في النص المدروس؟ وما مدى قدرته على النفاذ إلى أعماق النسق الثقافي ليستخرج لنا دعائم حججه التي أثارها في نصوصه؟ وهل كان للشخصية، بوصفها شخصية إسلامية، أو شخصية عامة، أثر على تنوع وسائل الحجاج؟ وغيرها من الأسئلة المركزية والأساسية.

المقال الحادي عشر، هو الترجمة التي أنجزتها الأستاذة وئام المددي لمقال إيكهارد إينغس (Ekkehard Eggs)، من جامعة هانوفر، وهو بعنوان: (البلاغة والحجاج: عن السخرية). يروم هذا المقال إبراز الكيفية التي يعد بها الفعل الساخر شكلاً من أشكال الحجاج النقدي، والضدي. فهو شكل خاص تكون من النظام البلاغي الخاص للتكتم الشفيف، الذي يركز على أشكال التضاد المختلفة، ومن بينها الأشكال المثيرة للسخرية. وقد قام صاحب المقال ببسط مفهوم الفعل الساخر، بالمقابلة بين نظريات البلاغة التقليدية المتمثلة في نظريات كيتيليان، ودومارسية وفونتايني، والنظريات الحجاجية والبلاغية الجديدة الفرنسية ومنها نظرية بيرلمان ونظرية أرفالد ديكر، وأعمال براندونبي وبيران (Perrin)

وآخرين، وأيضا النظريات الحديثة في اللغة الإنجليزية، مثل نظرية إشارة الصدى، ونظرية الحجة التلميحية، ونظرية الربط التلمحي.

أما المقال الأخير، في هذا الكتاب، فهو الحوار الذي أجراه الأستاذ أبو بكر العزاوي، باللغة الفرنسية، مع العالم السويسري جان بليز غريز (J.B.Grize)، وهو بعنوان: (المنطق واللغة والحجاج). وغريز هو رفيق جان بياجى، واشتغل معه مدة طويلة، وهو أحد كبار المناطق والرياضيين في سويسرا، بل وفي أوروبا، وهو صاحب نظرية المنطق الطبيعي، وهو صاحب الحجاج المنطقي.

ويتناول الحوار عدة مواضيع مثل: الفرق بين الحجاج والبرهنة، المنطق واللغة، تعريف المنطق الطبيعي ونماذجه، الفلسفة البنائية وبناء المعنى، النظريات الحجاجية، المنطق الطبيعي ومنطق اللغة، نظرية الحجاج في اللغة، وغيرها من المواضيع المهمة.

أشكر الأستاذين عبد الرحمن رحوني وعزيز العماري على جهودهما في توضيب ومراجعة مقالات وأبحاث هذا الكتاب الخاص بالحجاج نظرا وتطبيقا.

ونرجو أن يقدم هذا الكتاب ما يثير فضول القارئ العربي الباحث عن الجديد والمستجد في حقل الحجاج تنظيرا وتحليلا وتطبيقا.



# الترجمة والحجاج

أبو بكر العزاوي<sup>(\*)</sup>

## مقدمة

يهدف هذا البحث إلى دراسة الترجمة وعلاقتها بالحجاج<sup>(1)</sup>، أو الاستدلال بشكل عام - ونعتقد حسب علمنا واعتقادنا والله أعلم - أن هذه المسألة لم تدرس بعد، ولم يلتفت إليها الدارسون، وهي: هل هناك علاقة بين البنية الاستدلالية والحجاجية للخطاب وعملية الترجمة؟ هل ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار، عندما نشعر في ترجمة نص من النصوص، بنيتة المنطقية الحجاجية، أو منطقها الداخلي؟ وبالنسبة إلينا، فإن الجواب سيكون طبعاً بالإيجاب. وهذا البحث سيسعى إلى البرهنة على هذه الفرضية، والدفاع عنها، والتمثيل لها بما يلزم من الأمثلة. والذين درسوا الترجمة، وأجزوا حولها دراسات ومؤلفات عديدة، واقتروا نظريات عديدة لمسألة الترجمة، وقفوا عند قضايا عديدة لها صلة بالمعنى والدلالة والتركيب والمجاز والاستعارة وغيرها. ونسعى، نحن، في هذا البحث الموجز، إلى الوقوف عند علاقة الترجمة بالحجاج اللغوي بشكل خاص، والمنطق والاستدلال بشكل عام.

## الترجمة والمستويات اللغوية

من المعلوم، لدى الدارسين والمترجمين واللسانيين، أن الترجمة لها علاقة بكل المستويات اللغوية، أي الصوارة والصرف والمعجم والتركيب والدلالة والتداوليات والبلاغة، وعندما نريد أن نترجم نصاً من النصوص، فلا بد أن نأخذ هذه المسألة بعين الاعتبار. فاللغات البشرية تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً، صوتياً وصرفياً ومعجمياً ودلالياً وتداولياً.

(\*) أبو بكر العزاوي: أستاذ التعليم العالي، جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، المغرب - تخصص: اللسانيات والحجاج والمنطق.

(1) أصل هذا البحث محاضرة ألقيتها في الندوة التكرمية التي نظمها مركز الترجمة وتكامل المعارف التابع لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، لكتاب البحث، وذلك يوم 25 أبريل 2013، وكانت بعنوان: الترجمة والحجاج.

فإذا أخذنا مسألة التركيب بشكل عام، والرتبة (رتبة الكلمات داخل الجملة) بشكل خاص، فإننا نجد أن لكل لغة رتبتها الأصلية، ورتبتها الفرعية المشتقة من الرتبة الأصلية، وقد حصر اللسانيون الرتب الموجودة في اللغات الطبيعية<sup>(1)</sup> في 6 رتب: 3 رتب سائدة ومنتشرة، وهي: (فا - ف - مف)، (ف - فا - مف)، (فا - مف - ف)، و 3 رتب غير منتشرة.

ومن الرتب السائدة والمنتشرة، رتبة (ف - فا - مف) الموجودة في اللغة العربية، وبعض اللهجات الأوربية مثل الولش، وربما أيضا العبرية التوراتية القديمة.

وهناك أيضا رتبة (فا - ف - مف)، وهي الموجودة في جل اللغات الأوربية (فرنسية - الإنجليزية - إسبانية - ألمانية....)، وموجودة أيضا في لغات أخرى مثل الأمازيغية والدارجة المغربية والعبرية الحديثة.

والرتبة الثالثة هي: (فا - مف - ف)، وهي موجودة في أغلب اللغات الآسيوية (الصين - اليابان - كوريا - الفيتنام...)، وموجودة أيضا في اللغة التركية. وهذه هي الرتب السائدة والمنتشرة في لغات العالم. والرتب الأخرى هي (ف - مف - ف) و (مف - ف - فا) و (مف - فا - ف)، وهي قليلة، وغير منتشرة. ونحن نتحدث هنا، عن هذه الرتب، باعتبارها رتباً أصلية، وليست رتباً فرعية مشتقة، وإلا فإن بعضها موجود في اللغة العربية، بصفته رتبة فرعية، مثل الحالات التي يتقدم فيها المفعول به على الفاعل (ضرب حمرا زيدا)، أو يتقدم فيها المفعول به على الفعل والفاعل مثل (حمرا ضرب زيد)<sup>(2)</sup>.

ومعلوم، أنه عندما نريد أن نترجم جملة (أو نصا) من لغة إلى أخرى، فينبغي أن ننتبه إلى اختلاف هاتين اللغتين، أي اللغة المصدر واللغة الهدف تركيبيا، واختلافهما من حيث رتبة الكلمات داخل الجملة. فلو أخذنا جملة من قبيل: (Ahmed mange une pomme)، في اللغة الفرنسية، وترجمناها إلى اللغة العربية، فستصبح على الشكل التالي: (ياكل أحمد تفاحة). ونلاحظ هنا، أنه لما ترجمنا هذه الجملة الفرنسية إلى العربية، تغير

(1) انظر محاضرات في التركيب، لصاحب هذا البحث: طلبة الإجازة، شعبة اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال.

(2) المرجع السابق.

التركيب، وتغيرت رتبة الكلمات في الجملة، فانتقلنا من الرتبة (فاعل - فعل - مفعول) إلى الرتبة (ف - فا - مف).

والشيء نفسه يحصل عندما نترجم الجملة العربية: (أريد قماشا من القطن) إلى اللغة التركية، فستصبح بهذا الشكل: (القطن - قماش - أريد): ( pamuklu kumas istiorum ) مراعاة للبنية التركيبية للجملة في اللغة التركية، ومراعاة للرتبة الأصلية الموجودة في هذه اللغة، وهي: (فا - مف - ف). فالفعل يأتي في بداية الجملة في العربية، ولكنه يأتي في الأخير في الجملة التركية<sup>(1)</sup>. فالرتبة في التركية هي عكس الرتبة الموجودة في اللغة العربية. وعند ترجمة جملة، أو نص، لابد من مراعاة هذا الاختلاف في التركيب، وفي الرتبة (l'ordre de mots)، بين اللغة المنقول منها واللغة المنقول إليها.

وما قلناه عن التركيب، نقوله عن الدلالة والصرف والمعجم والتداوليات، وباقي المستويات اللغوية.

وفيما يتعلق بالمستوى الدلالي، فهناك أنماط من المعنى الظاهر والصريح، وأنماط من المعنى المضمّر أو الضمني، هناك المعنى الحرفي والمعنى التركيبي والمعنى المعجمي والمعنى الاصطلاحي العرفي والمعنى المجازي والمعنى القضوي والمعنى التداولي السياقي والمعنى الحجاجي والاقتضاء والتضمين والاستلزام بأنواعه<sup>(2)</sup>، وغيرها من أنواع المعنى وأنماطه. والكلمات، أو الوحدات المعجمية، يختلف معناها من لغة إلى أخرى، وهذا راجع إلى اختلاف البيئات والثقافات وغير ذلك، إن جزئيا أو كليا.

والسؤال الذي يثار هنا، بخصوص المستوى الدلالي هو كالاتي: عند ترجمتنا للجملة ما، أو لنص من النصوص، من لغة إلى أخرى، فهل نترجم المعنى الحرفي أو المعنى التداولي السياقي الذي يقصده المتكلم من وراء خطابه، ويسعى إلى نقله إلى المخاطب؟ وكيف سنترجم العبارات المجازية؟ وكيف سنترجم العبارات المسكوكة أو المتحجرة؟ هل نترجمها

(1) نفسه.

(2) انظر محاضرات في التداوليات لصاحب هذا البحث، طلبة الإجازة، شعبة اللغة العربية، كلية الآداب بني ملال، وانظر كذلك كتاب: اللغة والحجاج، ص: 43.



حرفيا؟ أم نبحث عن العبارات التي تؤدي المعنى نفسه ولو كانت مختلفة عنها؟ وكيف نترجم الأمثال؟ هناك إشكالات عديدة لها صلة بالمعنى والدلالة. وهذا هو الذي أدى إلى التمييز بين أنماط عديدة من الترجمة: الترجمة الحرفية، الترجمة السياقية، الترجمة التفسيرية، الترجمة الأمانة،.... إلخ.

والخلاصة أن هناك علاقة وثيقة بين الترجمة والمستويات اللغوية.

## الترجمة والحجاج

لقد أشرنا إلى علاقة الترجمة بالتركيب والدلالة، وغيرهما من المستويات اللغوية، باعتبار هذا يمهد للموضوع الأساسي الذي يتناوله هذا البحث. وطبعا هذه أمور وقضايا درسها الباحثون والدارسون، وخاصة اللسانيون، والمختصون في الترجمة بشكل كبير، وخاصة في البلدان الأوربية والأمريكية.

أما موضوع هذا المقال، فهو علاقة الترجمة بالحجاج (traduction et argumentation)، وهو موضوع بكر وجديد، حسب اعتقادنا وعلمنا المتواضع. والحجاج الذي أتكلم عنه هنا، هو الحجاج اللغوي، أو الحجاج في اللغة، أي الذي تدرسه النظرية التي وضعها أستاذي العالم الفرنسي الكبير أرفالد ديكر (O. Ducrot) منذ سنة 1973، أي منذ ما يقرب من 50 سنة، ولجدها في كتابه (الدليل والمقول)<sup>(1)</sup>.

هناك أنماط عديدة من الحجاج: اللغوي، البلاغي، المنطقي، التداولي الجدلي وغيرها، وهناك نظريات حجاجية عديدة وضعها لسانيون ومناطقة وبلاغيون، أمثال شايم بيرلمان، أرفالد ديكر، جان بليز غزيز، فان إمرين، تولين... إلخ<sup>(2)</sup>.

فما هو الحجاج اللغوي؟ وما علاقته بالترجمة؟

(1) أرفالد ديكر: (la preuve et le dire) 1973 م

(2) انظر كتاب الحجاج والتلفظ باللغة الفرنسية للمولف، وانظر أعمال هؤلاء الباحثين.

الحجاج هو تقديم مجموعة من الحجج والأدلة لصالح نتيجة معينة، وهو فعل لغوي، ووظيفة أساسية للغة الطبيعية، لأننا نتكلم، عامة، بقصد التأثير<sup>(1)</sup>. والحجاج اللغوي يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثل الحجاج في إنتاج متواليات من الجمل والأقوال، بعضها بمثابة الحجج، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها<sup>(2)</sup>. والعلائق الدلالية المنطقية التي نجدها بين الأقوال داخل الخطاب مثل الشرط والتعليل والاستنتاج والاستلزام والسببية والتبرير وغيرها، هي علائق حجاجية، والتي تشكل منطق النص، أو منطق الخطاب.

والحجة هي عنصر دلالي يؤدي إلى عنصر دلالي آخر هو النتيجة. والحجاج مؤشر له في بنية اللغة، ومن هنا عبارة الحجاج في اللغة، ونحن نجده في كل الظواهر اللغوية، أي الظواهر المعجمية والصرفية والتركيبية والدلالية. واللغات الطبيعية تشتمل على مجموعة من الأدوات والروابط والعوامل الحجاجية مثل: (بل - لكن - حتى - إذن - لا سيما - لأن - بما أن - ربما - تقريبا - كاد - ...)، التي لا يمكن أن نعرفها إلا بالإحالة على قيمتها الحجاجية، ويتمثل دورها الأساسي في القيام بالعمليات الحجاجية والاستدلالية<sup>(3)</sup>. وتنتمي دراسة الحجاج، والحجاج اللغوي بشكل خاص، إلى البحوث التي تسعى إلى اكتشاف منطق اللغة، أي القواعد الداخلية للخطاب، والمتحركة في تسلسل الأقوال وتتابعها بشكل متنام وتدرجي، يكون بعضها بمثابة الحجج والأدلة، ويكون بعضها الآخر بمثابة النتائج التي تستخلص من هذه الحجج. والخطاب - كما هو معلوم - هو مجموعة من الأقوال والجمل، ومجموعة من العلائق الدلالية المنطقية القائمة بينها (التعليل، الاستنتاج، اللزوم، الشرط...). ومجموع هذه العلائق هو ما يكون البنية المنطقية الاستدلالية للنص، أو البنية الحجاجية - حسب تعبيرنا نحن - وهو ما نسميه عادة بمنطق الخطاب<sup>(4)</sup>.

(1) أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص: 19.

(2) المصدر السابق، ص: 21

(3) نفسه، ص: 32.

(4) أبو بكر العزاوي: حوار حول الحجاج، البيضاء، 2010، ص: 37.

## نموذج تطبيقي

وسأختار في هذا البحث نموذجا واحدا فقط، على سبيل التمثيل لا الحصر، وهذا النموذج هو كتاب (ابن خلدون) للفيلسوف المغربي محمد عزيز الحبابي، وهو باللغة الفرنسية، نشره سنة 1968، ضمن منشورات سيغيرس (Seghers) بباريس<sup>(1)</sup>. ونقلته إلى اللغة العربية زوجته د. فاطمة الجامعي الحبابي، تحت عنوان: (ابن خلدون معاصرا) سنة 1984.

ونشير، في البداية، إلى أن الكتابة الفلسفية عند محمد عزيز الحبابي كتابة استدلالية، وهو يكثر من استعمال الروابط الحجاجية المنطقية. وهذه الروابط تقيم علاقات دلالية منطقية، (وبتعبيرنا نحن علاقات حجاجية) داخل الخطاب. والسؤال الذي يثار هنا هو كالتالي: كيف ترجمت د. فاطمة الجامعي هذا الكتاب؟ وهل حافظت على بنيته الحجاجية والمنطقية؟ وهل كانت واعية بالعلاقة الوثيقة الموجودة بين الترجمة والحجاج؟ وكيف تعاملت مع الروابط الحجاجية؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الواردة والأساسية.

والحقيقة أنني عندما قارنت بين الترجمة والنص الأصلي، وجدت اختلافا كبيرا. فالترجمة لم تكن أمينة في ترجمتها لكتاب الحبابي، فمرة تحذف الرابط الحجاجي الذي وظفه المؤلف، ومرة تضيف رابطا من عندها، وفي كثير من الحالات تغير البنية الحجاجية المنطقية الاستدلالية للنص، وهذا في كل الكتاب. وبعبارة أخرى، فهي لم تحترم المسار الاستدلالي للمؤلف في كل فقرة، وفي كل فصل. وكل فصل من فصول الكتاب، له عنوان، وله موضوع محدد، وله فكرة يدافع عنها المؤلف، وله بالتالي بنية استدلالية تتجلى في مجموعة من العلاقات الحجاجية والمنطقية، ومجموعة من الروابط والعوامل الحجاجية، وهو ما يشكل منطق النص، أو منطق الخطاب. فبين جملة وأخرى، قد تكون علاقة شرط أو استنتاج، أو تعليل، أو استلزام، أو تبرير إلى غير ذلك مما أشرنا إليه آنفا. والترجمة عبثت بكل هذا، وكانت تضيف وتحذف وتغير كما تشاء، فحذفت الروابط المنطقية، وغيرت العلاقات الدلالية المنطقية. وقد ذكرنا، في بداية هذا البحث (وهذا هو الجهد فيه)، أن العلاقة القائمة

(1) M, A, Lahbabi, Ibn Khaldoun, Seghers, Paris, 1968.

بين الترجمة والحجاج والاستدلال، مثلها مثل العلاقة الموجودة بين الترجمة والمستويات اللغوية من تركيب ودلالة وصرف ومعجم وأسلوب وبلاغة. ولتكون الترجمة أمينة ودقيقة، يجب على المترجم أن يحافظ على بنية النص المترجم الحجاجية والمنطقية فهي الهيكل العظمي للنص إن جاز هذا التعبير، أو هذه الاستعارة. ولنأخذ هذا المثال الذي يقول فيه محمد عزيز الحبابي ما يلي:

(Se sentant une forte et ambitieuse vocation pour la politique, et pour la diplomatie, Ibn Khaldoun S'intéresse à la connaissance interprétative du présent pour en comprendre les données réelles et agir sur elles) <sup>(1)</sup>.

ونجد في نص الترجمة ما يلي:

بما أن ابن خلدون يشعر بميل قوي وطموح وثاب نحو السياسة والدبلوماسية، اهتم بالمعرفة التأويلية للماضي [والصحيح: الحاضر] كي يتفهم المعطيات الواقعية للحاضر، ويتحرك على ضوءها مسهما في سيرها نحو التغيير، ولكنه في نفس الآن يستنطق الحاضر ليفهم معطيات الماضي ويحللها ليستخلص نظريات تاريخية عامة <sup>(2)</sup>.

إن القارئ عندما يقارن بين النص الأصلي والنص المترجم سيصاب بالذهول، وسيستغرب أشد الاستغراب. فهما نصان مختلفان كل الاختلاف، أو أن المترجمة تصرف في الأصل بكل حرية، وغيرت، أو كادت تغير كل شيء، وعبثت به أيما عبث. فكلمة الحاضر (présent) أصبحت (الماضي)، أزمنة الأفعال تغيرت: (يهتم) حولت إلى (اهتم): والكتاب يتكلم عن ابن خلدون وعلم التاريخ. فهناك تغييرات وتحريفات همت المعجم والتركيب وزمن الأفعال والتطابق بين النص الأصلي والترجمة، وظواهر أخرى. ولكن الذي يهمنا هنا هو البنية المنطقية والحجاجية للنص الأصلي، كيف تعاملت معها المترجمة؟

(1) المرجع السابق، ص: 18.

(2) محمد عزيز الحبابي: ابن خلدون معاصرا، ترجمة: د.فاطمة الجامعي الحبابي، دار الحداثة، ط1، 1984، ص: 24.

الملحوظة الأولى تتمثل في أن المترجمة أضافت الأداة (بما أن)، وهي التي تقابل في اللغة الفرنسية الأداة (Puisque)، والأداة (بما أن) رابط حجاجي يقيم علاقة تبريرية داخل النص، وهي علاقة دلالية منطقية أو علاقة حجاجية. والنص الأصلي لا وجود فيه لهذا الرابط الحجاجي، ولا وجود فيه لعلاقة التبرير (Justification). الذي نجده في النص هو العلاقة السببية (la cause) ونحن نعلم الفرق الموجود بين التبرير (وأداته: بما أن)، والسببية أو التعليل. فتعويض علاقة السببية بعلاقة التبرير تحريف للنص، وتغيير لبنيته الاستدلالية، وخيانة ترجمية.

وكل مفهوم من المفاهيم، التي أشرنا إليها آنفاً، له دلالة محددة، ومضمون دقيق، وله أدواته المؤشرة له في اللغة<sup>(1)</sup>.

- فالاستنتاج (Inférence)، أداته هي (إذن)، أو ما يقابلها في اللغات الأجنبية (.....donc). وهو يقيم علاقة استنتاجية بين الجمل داخل الخطاب.
- واللزوم أو الاستلزام (Implication)، له أدواته في اللغة العربية (إن - إذا..) وما يقابلها في اللغات الأجنبية (..if - si) وهو يقيم علاقة شرط أو استلزام.
- والتفسير (Explication) له أدوات عديدة في العربية واللغات الأخرى (لأن، car، ...parce que).

والتبرير يختلف عن التفسير، وهما أيضاً يختلفان عن السببية، أو الاستلزام، أو الاستنتاج.

وإذا أخذنا المثالين التاليين:

-سقط الكأس وتكسر.

-بما أنك تريد أن تعرف كل شيء فأنا مسافر غدا.

(1) انظر أعمال أرفالد ديكر و تلامذته حول الأدوات (car ...، parce que، puisque، donc)، وانظر كتاب اللغة والحجاج للمؤلف، وخاصة الفصل الثاني: ففيه دراسة للروابط الحجاجية: بل، لكن، حتى... وأيضاً كتاب: اللغة والمنطق للمؤلف.

فالجمله الأولى فيها علاقة سببية، ويمكن شرحها كما يلي: (تكسر الكأس بسبب السقوط)، والواو الموجودة هنا واو السببية، أما الجملة الثانية، ففيها علاقة تبرير، وأنا هنا لا أفسر ولا أبين الأسباب، وإنما أذكر المبررات التي جعلتني أخبرك بسفري غدا. وشتان ما بين التبرير والتفسير والسببية والتعليل.

- الملحوظة الثانية هو أن المترجمة أضافت رابطا حجاجيا آخر من عند نفسها، لا وجود له في النص الأصلي، وهو الرابط (لكن)، وهذا الرابط الحجاجي، مثله مثل (بل) يقيم علاقة تعارض حجاجي بين علاقتين حجاجيتين<sup>(1)</sup>. وقد ورد هذا الرابط في قولها: (ولكنه في نفس الآن يستنتق الحاضر ليفهم معطيات الماضي ويحللها ليستخلص نظريات تاريخية عامة)<sup>(2)</sup>. وهذا الكلام الذي يبدأ بالأداة (لكن) زائد، ولا وجود له في النص الأصلي. وهذه العملية خطيرة: أن تقحم في الترجمة رابطا حجاجيا لا وجود له في الأصل، وهذا الرابط يقيم علاقة حجاجية استدلالية معينة، وتضيف كلاما زائدا لا محل له. فلم يتحدث المؤلف بتاتا عن استخلاص نظريات تاريخية عامة.

وننتقل الآن إلى مثال آخر. يؤكد ما قلناه آنفا. والأمثلة كثيرة، وكثيرة جدا. يقول

المؤلف:

(c'est précisément parce qu'il était anticonformiste et homme d'action, qu' Ibn khaldoun, historien, du remettre en question toutes les conceptions qu'on se faisait de l'histoire. il en donne une définition qui se distingue de toutes celles données par ces prédécesseurs et parait substituer la sociologie à l'histoire)<sup>(3)</sup>.

ونجد في نص الترجمة ما يلي:

(الترم ابن خلدون بالبحث والحركة والتطبيق، وشنها حملة شعواء على التقليد والمقلدين. وبات يطالب الباحثين بأن يتخذوا تدابير ومبادرات شخصية. وهذا ما دفعه كمؤرخ إلى أن يضع محل سؤال كل تصورات المؤرخين القدامى، ويعطي التاريخ تعريفا يتميز

(1) انظر كتاب اللغة والحجاج، الفصل الثاني.

(2) محمد عزيز الحبابي: ابن خلدون معاصرا، ترجمة: د. فاطمة الجامعي الحبابي، دار الحداثة، ص: 24.

(3) كتاب Ibn Khaldoun، للحبابي، ص: 19.

عن كل التعاريف المعتمدة قبله، فبدأ عمله وكأنه يريد أن يجعل مضمون ما سيسمى فيما بعد السوسولوجياً مكان مضمون التاريخ<sup>(1)</sup>.

هنا نجد أيضاً اختلافاً كبيراً بين النص الأصلي والترجمة.

فهل نحن أمام ترجمة لكتاب محمد عزيز الحبابي، أم نحن أمام شرح وتفسير له؟ هي تصرح في الغلاف أن الأمر يتعلق بترجمة، وإذا كان الأمر كذلك، فليست هذه الترجمة أمينة. هناك زيادات وإضافات كثيرة في نص الترجمة، لا نجدتها في النص الأصلي، مثل: (التزم ابن خلدون بالبحث والحركة والتطبيق) وأيضاً: (بات يطالب الباحثين بأن يتخذوا تدابير ومبادرات شخصية).

ولكن المشكل الكبير، والخطأ الجسيم الذي ارتكبته هو أنها حذفت الرابط الحجاجي (parce que)، الذي يقابل الأداة (لأن)، أو ما يماثلها من أدوات التفسير في اللغة العربية. وهذا الرابط يقيم علاقة حجاجية معينة، هي علاقة التفسير. وهناك بحوث عديدة أنجزها أرفالد ديكر و تلامذته على الأدوات: (car, parce que, puisque)، وحاولوا بيان وظائفها في الخطاب، وبيان الفروق القائمة بينها. وإذا كان هؤلاء قد بذلوا جهداً كبيراً لبيان الفروق الدلالية الدقيقة بين أداتي التفسير (car) و (Puisque) من جهة، وبين هاتين الأدوات والرابط الحجاجي (Puisque) من جهة أخرى، حتى نضع كل أداة، وكل رابط حجاجي في مكانه الصحيح، وحتى لا نتعامل معها بشكل عشوائي وغير مضبوط، فإن المترجمة قامت بحذف الرابط الحجاجي (لأن) بكل سهولة، وحذفت معه أيضاً كلمة (Précisément)، أي (على وجه الدقة) ببساطة. وهذه الأدوات هي التي تحدد تفصيلات الخطاب، وتحدد بنيته الاستدلالية الحجاجية، وهي التي يسميها شيخنا وأستاذنا أرفالد ديكر و' بالروابط الحجاجية، أو الروابط التداولية، أو كلمات الخطاب<sup>(2)</sup>. وقد اشتغلنا عليها، نحن

(1) انظر كتاب: ابن خلدون معاصراً، ص: 25.

(2) كتاب الحجاج والتلفظ باللغة الفرنسية للمؤلف، ص: 56.

أيضا، في عدد من الأعمال والبحوث الجامعية وغير الجامعية، ودرسنا مجموعة من الروابط الحجاجية مثل: (لكن - بل - حتى - لاسيما.....)<sup>(1)</sup>.

إذن المترجمة غيرت البنية الحجاجية المنطقية للنص الأصلي، وحذفت الرابط الحجاجي المركزي (parce que) الذي يقيم العلاقة الحجاجية المركزية والأساسية في هذه الفقرة.

فهل هي تجهل أن هناك علاقة وثيقة بين الترجمة والحجاج؟ أو بين الترجمة والبنية الاستدلالية الحجاجية للنص؟ نحن نعتقد أن عددا كبيرا من الذين يمارسون الترجمة، أو من الذين ينظرون لها، يجهلون هذه العلاقة، ولذلك فإن الكتابات حول هذا الموضوع، حسب اعتقادنا والله أعلم، قليلة جدا، أو شبه معدومة.

وقد كان بالإمكان أن تكون ترجمة هذا النص على الشكل التالي (ولو على جهة التقريب): (ولأن ابن خلدون، وعلى وجه الدقة، كان ضد المحافظين، وكان رجلا عمليا، فإنه، وهو المؤرخ، اضطر إلى إعادة النظر في كل التصورات التي كانت لدينا عن التاريخ. وقدم تعريفا متميزا يختلف عن كل التعريفات التي قدمها من سبقوه، وحل علم الاجتماع محل علم التاريخ).

إذن هناك اختلاف بين النص الأصلي ونص الترجمة من حيث البنية الحجاجية الاستدلالية، من حيث الروابط الحجاجية التي تحدد طبيعة هذه البنية، والتي تؤثر للعلاقات المنطقية والدلالية القائمة بين الجمل داخل النص، وهناك أيضا اختلاف من حيث الأفكار والمعلومات واللغة.

وننتقل إلى مثال ثالث، لنبين أن مسألة حذف الروابط الحجاجية، ومسألة تغيير البنية الاستدلالية للنص، وتحريف المسار الحجاجي والاستدلالي للمؤلف، قاعدة مطردة عند المترجمة، نجدها في كل فصل، بل نجدها في نص الترجمة بكامله، يقول المؤلف:

Vie étonnante, elle le fut, d'abord par ses activités politiques continues qui s'étendirent sur un demi - siècle, et marquèrent tout

<sup>(1)</sup> انظر أطروحة الدكتوراه الفرنسية في لائحة المراجع، وكتاب اللغة والحجاج، وأطروحة دكتوراه الدولة.



le 14<sup>eme</sup> siècle nord- africain, ensuite, parce qu'elle constitua une révolution, ou plutôt une constellation de révolutions, dans divers domaines de la connaissance<sup>(1)</sup>.

ونحمد في نص الترجمة ما يلي:

(لقد حقق حياة مدهشة بنشاطه السياسي المستمر، الذي امتد طيلة نصف قرن، فآثر في مجريات تاريخ شمال إفريقيا في القرن الرابع عشر، كما شكلت حياته ثورة، أو على الأصح، مجموعة ثورات في مختلف ميادين المعرفة)<sup>(2)</sup>.

هنا أيضا نلاحظ اختلافات كبيرة بين النص الأصلي، وبين الترجمة، فقد قامت المترجمة -كعادتها- بحذف عدد من الأدوات والروابط الحجاجية، فلم تعد الترجمة أمينة، ولم تعد مطابقة للأصل بشكل كامل، وخاصة فيما يتعلق بموضوع هذا البحث، وهو علاقة الترجمة بالحجاج والاستدلال. لقد تصرفنا في عملية الترجمة بشكل كبير، ونتج عن هذا اختلاف بين البنية الحجاجية المنطقية للنص الأصلي، والبنية الحجاجية لنص الترجمة. ونحن نعلم أن كل أداة أو كلمة من كلمات الخطاب (les mots du discours) لها دلالتها، وكل رابط حجاجي له وظيفته المحددة داخل الخطاب وحذف رابط أو إضافته يغير كل شيء، ويغير شكل الاستدلال وطبيعته، ولقد قامت المترجمة، هنا أيضا، بحذف الرابط الحجاجي (لأن = parce que)، وحذفت أدوات وعبارات أخرى لها أهميتها الخاصة، ولها علاقة بموضوعنا، وهي (plutôt - par - ensuite - d'abord....). وكل أداة تؤثر لعلاقة حجاجية أو علاقة زمنية، أو غيرها من العلاقات المختلفة.

لقد حاولنا في هذا البحث، أن نقدم فرضية جديدة، وأن ندافع عنها، وهي المتمثلة في وجود علاقة قوية ووثيقة بين الترجمة والحجاج والاستدلال بشكل عام، وبين الترجمة والحجاج اللغوي بشكل خاص، ونتمنى أن تتاح لنا الفرصة، في بحوث قادمة، إلى المزيد من التفصيل في هذا الموضوع، والله الموفق إلى الصواب<sup>(3)</sup>.

(1) كتاب Ibn Khaldoun، ص: 19.

(2) كتاب: ابن خلدون معاصراً، ص: 11.

(3) O Ducrot et al: Les mots du discours, (1980)

## فهرس المراجع

### المراجع العربية:

- الحبابي محمد عزيز: ابن خلدون معاصرا، ترجمة: د. فاطمة الجامعي الحبابي، دار الحداثة، ط 1، 1984.
- الجرجاني الشريف: "التعريفات" د. ت.
- الزجاجي أبو القاسم: "حروف المعاني" مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986.
- العزاوي أبو بكر: "اللغة والحجاج"، الأحمدي للنشر، ط 1، الدار البيضاء، 2006.
- العزاوي أبو بكر: "أخطاب والحجاج"، الأحمدي للنشر، ط 1، الدار البيضاء، 2007.
- العزاوي أبو بكر: "حوار حول الحجاج"، الأحمدي للنشر، ط 1، البيضاء، 2010.
- العزاوي أبو بكر: "اللغة والمنطق"، ط 1، طوب بريس، الرباط، 2014.
- العزاوي أبو بكر: "الحجاج ومناهج تحليل الخطاب"، مجلة معهد علوم اللغة العربية، العدد: 12، جامعة الوادي، الجزائر، 2017.
- العزاوي أبو بكر: "الحجاج والبرهان"، مجلة روابط، العدد: 1، الجزائر، 2018.
- العزاوي أبو بكر: "محاضرات في التداوليات"، ومحاضرات في التركيب، طلبة الإجازة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب بني ملال.
- الفاسي الفهري عبد القادر، اللسانيات واللغة العربية (2ج)، توبقال، الرباط.

Anscombre, J-C et Ducrot O. (1983): l'argumentation dans la langue , Ed, Mardaga, Bruxelles.

Azzaoui Boubker (1990): Quelques connecteurs pragmatiques en arabe littéraire, Thèse de doctorat, unique (PHD), EHESS, Paris.

Azzaoui Boubker: (2014) Argumentation et énonciation, Top presse, Rabat

Blanché R. (1968): Introduction à la logique contemporaine, Armand Colin, Paris.

Ducrot O. (1973): la preuve et le dire, Mame, Paris.

Ducrot O. (1980): Les échelles argumentatives, Minuit, Paris.

Ducrot O. et al. (1980): Les mots du discours, Minuit, Paris.

Horn. L (1972): On the semantic properties of logical operators in English, University of California.

M, A, Lahbabi (1968), IbnKhaldoun, Edition Seghers, Paris,

# مهدات الخطابة البيرومانية

محمد الولي<sup>(\*)</sup>

## مقدمة

يتوسل الإنسان، منذ وُجد، بالخطابة أو الحجاج، بغرض تدبير حياته في وسطه الاجتماعي. كانت تلك الممارسة في البداية عفوية وتجريبية، إلا أن الإنسان أراد أن يتحكم في هذه الأداة وفهمها وفك غوامضها، فوضع قواعد لما كانت ممارسة عفوية وتجريبية؛ وبهذا أصبحت خطابة أو صناعة أو علماً، تسمح لمن يتمكن منها بأن يدعم ملكاته الخطابية.

عرفت الحضارة الأثينية في القرن الخامس قبل الميلاد ثورة فكرية كان لها أثر عميق في حياة الناس، فقد تم تحجيم الأسطورة التي تم تعطيل تأثيراتها في مجالات الفكر والفلسفة والسياسة. كما ازدهرت في هذا السياق الجديد الذي شهد ميلاد اللوغوس<sup>1</sup> على أنقاض الميثوس<sup>2</sup>، أجناس الخطاب الفلسفي والجدلي الذي يقوم على مبارزة خطابية بين متحاورين اثنين متجردين من كل المؤثرات السياقية، اثنين يحاول كل واحد منهما تفنيد دعاوى المحاور وتصحيحها، إلى أن يصلا إلى خلاصة قد تكون موضع اتفاق بينهما. أما في الخطابة فإن الخطيب لا يتسلح فقط بالقدرات الحجاجية العقلية، بل يتسلح بكل الحمولة العاطفية والانفعالية والقدرات الفنية.

لقد لقيت هذه الأجناس الخطابية، أي الفلسفة والمنطق والجدل والخطابة بالإضافة إلى التراجيديا، ازدهاراً منقطع النظير في أثينا، وما كان لهذا أن يحدث لولا تلك الثورة السياسية الديمقراطية حيث تمسك الإنسان بكلتي يديه، ليس بمصيره السياسي وحسب حيث وضع حداً لسيادة الأرستقراطية والطغيان السياسي، بل وباستقلاله الفكري من خلال تمسكه باللوغوس في جميع مناحي حياته. في هذا السياق الديمقراطي بسطت القدرات الخطابية سيطرتها على كل مناحي الحياة في أثينا، بل ربما جاز القول إن إنجازات الحضارة

<sup>(\*)</sup> محمد الولي، أستاذ التعليم العالي، جامعة محمد الخامس، الرباط. المغرب - تخصص: البلاغة والحجاج.

الأثينية في مجال التحكم في كل الملكات الخطابية، لا تقارن بمنجزاتها في مجالات التحكم في الطبيعة، حيث كان فعلها أقل تأثيراً.

## أفلاطون

اشتهرت اليونان بكونها مهد تدوين مصنفات فن الخطابة. كما ذاع خوض أغلب فلاسفتها في مجال التأليف في هذا الفن. نلاحظ ذلك في أعمال أفلاطون وإيزوقراط وأرسطو. إلا أن هناك أمراً ثابتاً أيضاً وهو أن الحاضرة الأثينية قد جسدت حالة فريدة في تاريخ الإنسانية، متمثلة في نظامها الديمقراطي الذي اعتبر الممارسة الخطابية الحرة المخولة لكل المواطنين، أو من اعتبروا كذلك، أساس هذه الديمقراطية الفذة. وهي الحرية الخطابية - السياسية التي عبر أفلاطون عن انزعاجه منها.

على أن أهم عوامل ازدهار الكفاءة الخطابة عند اليونان، ذلك الانقلاب على الأسطورة ورؤيتها للعالم ولسلوك الإنسان في الحياة. في هذا السياق تمت إحالة الأسطورة على الشعراء الذين اتخذوها مادة حركاتهم التراجيدية، وعلى الخطباء والفلاسفة الذين وجدوا فيها أدوات لسد حاجاتهم الحجاجية الشاهدية أو التشبيهية، وعلى مربيات الأطفال اللاتي تزودن من خزائنها بالقصص العجائبة أو الخرافية ويتخذن منها مادة غنية لإمتاع الأطفال وتثقيفهم الخ. لقد تم إيداع الأسطورة في مستودع الأشياء البالية والمتلاشيات، إلا أن الإنسان كان يلجأ إليها من حين إلى آخر لتناول هذه القطعة أو تلك لإعادة استصلاحها وتجهيزها لأداء وظائف جزئية جديدة ضمن هذا النسق الجبار المدعو اللوغوس الذي أصبح الحكم، ليس في تصورات العالم ونشأة الكون والإنسان وحسب، بل وفي مختلف مناحي الحياة، وخاصة الحياة السياسية.

وعلى الرغم من كون الفلسفة والخطابة من بنات الديمقراطية الأثينية فإن هذا لم يمنعهما من المواجهة الحادة. الفلسفة في هذا السياق هي التأمل العقلي الحر والمستقل في معازل بعيدة عن صخب العوام في الساحات العمومية، وعن معتقداته وأساطيره. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت الفلسفة والخطابة تتسابقان في حلبة كسب الزعامة واعتلاء عرش

قيادة الشعب وتربيته. لهذا كانت المواجهة بينهما محدمة. كان أفلاطون يمثل العدو النمطي للخطابة. الفلسفة في نظره، هي الجديرة بالحكم، لأنها تستمد المعرفة من العالم العلوي لا من أصوات العامة.

على الرغم من أن أفلاطون هو أشد الفلاسفة مناصرة للفلسفة التأملية، فهو أميلهم إلى التأليف في مجال الحياة السياسية، بل تكاد تكون أغلب محاوراته، التي تتجاوز الثلاثين، مساهمات في هذا المجال السياسي. وهذا يعني أنه كان يغترف من ينابيع الخطابة. من الأمثلة الدالة على ذلك محاورات الجمهورية والسياسي والقوانين وجورجياس وفيدرو مينون ومينيكسون إلخ.

إن اعتناق أفلاطون للفلسفة التأملية ومناهضته لكل ما تُشَمُّ فيه رائحة العامة والحشود هو الذي حدا به إلى تجريم كل الفنون. وسواء أتعلق الأمر بالخطابة، وهي عدوه اللدود، أم بالشعر أم بالتراجيديا، أم بالقصص الشعبي، أم بالأساطير، أو جنس منها على الأقل، أم بالغناء أم بالموسيقى والعزف على الناي أم بالتصوير وكل الفنون المحاكاتية إلخ. فإنه يتحدث عنها بتجريمها وتحريمها. إنه يجمع كل هذا الممارسات الخطابية وغير الخطابية في صلة واحدة.

هذا أمر في غاية الأهمية. إن أفلاطون باعتباره فيلسوفاً ينفر نفوراً قوياً من أي احتشاد، ومن كل فنٍّ محاكاتي أو تصويري، إذ إن ذلك هو مرتع الخطابة المؤذية للحقيقة والعدل والمعرفة والفضيلة الإنسانية. الفكر الحق، أو الجدل، هو الذي يديره شخصان يتناوبان على تصحيح وتقويم أفكار بعضهما البعض ويسيران معاً نحو الاستنتاج الذي يكون موضع اتفاقهما. فهما لا يضعان في السلسلة الجدلية إلا تلك التي تحظى بموافقتهما وتعال تركيتهما، وبذلك يؤمنان الاتفاق على الخلاصات أو الاستنتاجات، في حين أن الخطابة لا تيسر هذا التعاون، لأن الحشد، ومع الخطابة، غير مناسب لهذا التعاون.

ورغم كل ما تقدم فإننا نجد لأفلاطون إشارات قوية في محاوره فيدرو يقلل فيها من هذه الاتهامات، وينصح فيها باستخدام نوع خاص من الخطابة التي يعمل على تخليصها من الصفات المؤذية ويبعدها عن الحشود بقدر ما يقربها من الجدل ومن الفلسفة.

اعتقد أن عرض رأي أرسطو قد يلقي الكثير من الضوء لأجل فهم الإنجاز الأثيني في مجال الخطابة، وهو الإنجاز الذي ما يزال إلى اليوم موضع تفسير وتأويل ونقد ومراجعة.

## أرسطو

لقد أعاد أرسطو فتح ملف الخطابة، وارتقى بالخطابة إلى مكانة مرموقة جاعلا منها المساعد الأساسي للسياسة التي اعتبرها العلم الأسمى، لأنها مكرسة لخدمة أسمى الفضائل التي هي السعادة لكل المواطنين. بل لقد بوأها مكانة مناظرة للإستراتيجية العسكرية. من الضروري أن نلاحظ أن العلوم التي تحظى بأعظم تشريف تابعة للسياسة؛ إنني أقصد بهذا إلى الاستراتيجية العسكرية، وعلم الإدارة، والخطابة<sup>(1)</sup>.

إلا أن هذا التنزيه للخطابة قد ضيق المساحة التي تحتلها السفسطة، ومس بالتعديل أيضاً الجدل الذي أصبح يحتل فضاء أعرض وأوضح. ورغم هذا التمييز لهذه المجالات الثلاث فقد ظلت الخطابة تحتفظ بعلاقات وشيجة مع الجدل، بل بعلاقات قرابة حميمة. لهذا اعتبر أرسطو الخطابة تناظر الجدل<sup>(2)</sup>. الجدل مناسب للمستمع الكوني البريء من تأثيرات المقام الملموس. هذا المقام الملموس، وضمته طرفا الإيتوس والبأتوس، يتمتع بالهيمنة القوية في الخطابة. ومع هذا فقد لقح أرسطو الخطابة بلقاحين يؤمنان انضباطها ويحولان دون زيغها. الأول هو لقاح الجدل المتمثل في القياس المضمر والاستقراء الخطابي أو الشاهد، والثاني هو لقاح المواضع المشتركة.

ففي الوقت الذي لا نجد للإيتوس وللبأتوس تأثيراً ملحوظاً في الجدل، فإننا نلاحظ أن هذين الطرفين ينزلان بكل ثقلهما في الخطابة. تقول لوث: جَلُورِيَا كَارْذِيَنَاسُ: بالنسبة إلى أرسطو، يحصل الإقناع إجمالاً، اعتماداً على نمطين من البراهين: القياس والاستقراء. هذان النمطان من البراهين يُستخدمان في العلوم وفي الجدل وفي الخطابة. وخلافاً لما يحصل في العلوم وفي الجدل، فإن الخطابة تتطلب أنماطاً إضافية من البراهين، نجد

(1) Aristóteles, Moral, a Nicomaco, éd. Espasa Calpe, Madrid, p. 63.

(2) Aristote, Rhétorique, ed Livre de Poche, p. 75.

من بينها الأهواء، إذ إن غايتها مختلفة عن غاية العلم والجدل، الغاية هنا هي الإقناع لإصدار حكم على ما يعتبر عادلاً أو مناسباً أو جديراً بالتمجيد<sup>(1)</sup>.

إن المواضيع المشتركة هي إذن أفكار عامة ومجردة تتمتع بقدر كبير من المقبولية. وهذا هو الذي يقربها أكثر من المنطق والمقبولية الكلية أو العامة. وهي المواضيع التي تضفي على هذا المجال المائع المتلون ثباتاً ما. والواقع أن هذا الثبات المستند على المواضيع العامة يقرب الشقة التي لاحظها أفلاطون بين الخطاب اليومي والخطاب المنطقي أو الفلسفي.

بهذا أنقذ أرسطو الخطابة من تهديدات أفلاطون الذي يلحقها بالسفسطة. بل لقد اعتبرها الاحتكام إلى القوانين في الخطابة القضائية بمثابة المقدمات اليقينية الكلية المعتمدة في المنطق والعلم. إن القوانين تتمتع بصفة الكلية أي l'universel. وبعبارة أرسطو فإن 'حكم المشرع هو [...] حكم كلي'<sup>(2)</sup>. وكذلك برأ أرسطو الشعر الذي اعتبره أوفر حظاً من الفلسفة وأسمى مقاماً من التاريخ، لأن الشعر بالأحرى، يروي الكلّي بينما التاريخ يروي الجزئي. وأعني بالكلّي أن هذا الرجل أو ذاك سيفعل هذه الأشياء أو تلك على وجه الاحتمال أو على وجه الضرورة؛ هذا هو المرمى الذي يقصد إليه الشعر، وإن كان يعزو أسماء إلى الأشخاص؛ والجزئي هو ما فعله القبيادس أو ما جرى له<sup>(3)</sup>.

الشعر يروي الكلّي شأنه شأن الفلسفة؛ بمعنى أن هناك قوالب كلية يلتزم فيها المبدع بالتقيد بها ولا يجيد عنها. ولذلك فالشعر، أي التراجيديا، أوفر فلسفة من التاريخ الذي يروي، خلافاً للشعر، الجزئي والعرضي والمفكك. كما برأ أرسطو كل الفنون المحاكاتية ونسب إليها وظائف معرفية واجتماعية ونفسية نبيلة. كما برأ الخطابة بسبب اقترانها بالجدل عبر المواضيع العامة ووسائل الحجاج وكل المقومات اللوغوسية. وخلافاً لما عهدناه عند

(1) Luz Gloria Cárdenas Mejía, Aristóteles, Retórica, pasiones y persuasión, ediciones San Pablo, Bogota Colombia, 2011, p. 49.

أرسطو، الخطابة، ترجمة ع. الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1986، ص. 25

أرسطوطاليس، فن الشعر، ترجمة. عبد الرحمن بدوي، منشورات دار الثقافة، بيروت، 1973، ص. 26- 27

Aristóteles, La poética de Aristóteles, tr. Valentin Garcia Yebra, ed. Gredos, Madrid, 1999, p.159



أفلاطون فيها هي الخطابة والشعر والجدل والفلسفة وكل أشكال المحاكاة تنقسم صفة الكلية التي تجعلها الصق بالفلسفة والعلم.

وإذا كنا نلاحظ في خطابة أرسطو نوعاً من المزج بين الاعتبارات المنطقية أي الحجج اللوغوسية بمعناها الحصري، وبين الاعتبارات الذاتية كما نلاحظها في الإيثوس والبائوس، فذلك يفسر بما يلي. فإذا كان موضوع السعادة مرتبطاً ارتباطاً حميماً بحياة الإنسان في مجتمع، وباختياراته لما ينبغي فعله. وإذا كانت الحاضرة تتطلع إلى إنجاز مخططات لإسعاد المواطنين، فأين مكان الحكمة؟ أي إدارة الظهر لهذا المطلب والتماس الخلاص الفردي؟ أم أن الحكمة تتطلب الارتقاء بآدميتنا ومباشرة الانخراط في الفعل الذي يسعدنا ويسعد كل الناس؟ الحكمة تكمن في هذا الاختيار الأخير. إنه مظهر ممارسة حريتنا وتحطي الحيرة والحرج. نعم، المطلوب هنا هو الفعل لا التأمل. إننا قد ننسحب، إلا أن ذلك الانسحاب سيترك الساحة فارغة للقوى الهدامة.

في مثل هذه الأمور نخوض الخطابة. ولأن الخطابة ضرورة اجتماعية وسياسية وإنسانية فلا مفر من الاستفادة من وسائلها الهشة، لأن هذه الوسائل الهشة أفضل من ترك الحبل على الغارب الذي يمكن أن يؤدي إلى كوارث. التدخل إذن بالسداد الخطابي إطلاقاً لحرية الإنسان لكي يختار المصائر التي قد تكون أقل ضرراً من تجاهلها. السداد هو تحرر الإنسان من سطوة الجبرية الاجتماعية. السداد ييؤ الإنسان المكانة التي يصبح فيها فاعلاً وموجهاً ومتحكماً في الأحداث وحرراً لا مستسلاً. في هذا الاختيار تكمن أهمية الخطابة كما تصورها أرسطو. إنها جزء من الفلسفة العملية أي السياسة التي تدير الحاضرة. إلا أن الانتقال بالإنسان من حال الاقتناع بضرورة التدخل والفعل لتغيير أحوال الإنسان الاجتماعية والسياسية خاصة إلى حال الفعل والمساهمة في التغيير والتدخل في الواقع، يتطلب الضرب على الأوتار العاطفية. إن الاقتناع وحده لا يؤهل للفعل. قد أقنع بأن الوضع يستدعي التغيير، إلا أن الاقتناع وحده لا يدفع إلى الفعل. لأجل الانتقال إلى الفعل من الضروري إشعال الفتائل العاطفية. هو هذا سبب التدخلات الإيتوسية والبائوسية في

الخطابة. وبهذا نفهم غياب هذين العنصرين في الأجناس الخطابية التي لا تضع نصب عينها مسألة تغيير الواقع.

يمثل الحجاج الذي يستقطب المضمّر والشاهد والمواضع قلب الخطابة. إنه النواة العقلية التي تربط الخطابة بالجدل والمنطق والفلسفة. هذه النواة هي التي تؤمن وحدة وتماسك الحجرة الخطابية. بطبيعة الحال المكونات العاطفية مكون أساسي في الخطابة، إلا أن هذه المكونات تتمرس في مقدمة الخطبة وفي خاتمها. في الاستهلال يقوم الإيتوس الكفيل بتأمين تبادل الثقة بين الخطيب والمخاطب. وفي الخاتمة تقوم الأهواء لأجل دفع المخاطب إلى الفعل. ولهذا فحينما ألحقت النواة الحجاجية بالجدل انحلت العرى الرابطة لعناصر هذا النظام. ولأهمية الحجاج، فإن أرسطو شدد في الكتاب الثالث من الخطابة على اعتبار الخطابة تتألف من قطعتين؛ الأولى هي العرض والثانية هي الحجاج. يقول كيتتين<sup>(1)</sup> راسيونيرو:

"يعتبر أرسطو الخطابة متألفة من جزأين أساسيين، وهما العرض أو موضوع الخطابة والحجاج. هاتان هما الحلقتان الأساسيتان اللتان لا تقوم الخطابة بدونهما. إلا أن أرسطو ينقاد للأخذ بالتقسيم الرباعي الذي راج في عصره. والذي قيل إن واضعه هو إيزوقراط<sup>(1)</sup>. وهذه الأجزاء هي: الاستهلال والعرض والحجاج والخاتمة. ربما كان أرسطو يرى أن العرض والحجاج لا غنى عنهما في الخطابة، ويعتبر الاستهلال والخاتمة مكملين يمكن للخطابة أو لأجناس منها أن تستغني عنهما.

وإذا كان أرسطو يلتزم في الخطابة بهذا التقسيم الرباعي الذي يفصل فيه القول، فإنه يعتبر طرفي تقسيمه الأول، هو ما يمثل الحد الأدنى الذي لا يقوم أي جنس من الخطابة بدونهما. ولعل أرسطو يسلك الطريق المقابلة والموازاة للجدل الذي خصه بمبحث الطوبيقا حيث ميز بين طرفي الاستدلال الجدلي وهما المشكلة والبرهنة اللذان يقابلان أو يناظران العرض والحجاج في الخطابة.

ومع ذلك، وعلى سبيل الاختصار، فإن الأجزاء الضرورية هي فقط العرض والإقناع. هذان هما الجزءان المميزان للخطاب ولو أن الخطابات تتكون في غالبيتها من

(1) Quintin Racionero, in. Aristóteles, Retórica, p.557

الاستهلال والعرض والحجاج والخاتمة<sup>(1)</sup>. هناك من يرفع هذا العدد من الأجزاء إلى خمسة وستة وسبعة. أي هناك من يعتبر من قبيل الأجزاء الاستطراد والتفنيد والتقسيم<sup>(2)</sup>.

يقول أرسطو في مستهل الكتاب الثالث من الخطابة: «علينا أن نهتم بمسألة الأسلوب، لا باعتبارها سليمة، بل لأنها ضرورية، لأنه من حيث الصواب ينبغي على المرء أن يهدف في خطبته إلى تجنب إثارة الألم أو الإبهاج، إذ العدالة تقتضي ألا تعالج القضية إلا بالوقائع وحدها، حتى إن أي شيء آخر إلى جانب البرهان يعد فضولاً وناقلة، ومع ذلك [...] فبسبب فساد السامع من المهم جداً الاهتمام به [...] إن هذه الأمور كلها هي مجرد مظهر خارجي لاجتذاب السامع وإبهاجه، ولهذا فإن أحداً لا يعلم الهندسة بهذه الطريقة»<sup>(3)</sup>.

تكمن أهمية هذا النص في إثارة أمر أساسي، ألا وهو الأسلوب، باعتباره اختياراً تستدعيه الضرورة أي ضرورة مخاطبة حشود العامة. وبهذا فإننا نلاحظ عنده توجساً من الآثار السلبية للأسلوب، إذ يبعث الألم أو الابتهاج، والحال أن مهمة الخطيب تقتضي معالجة الأمور بالوقائع وحدها والبرهان، وما عدا هذا فمجرد أمور تافهة. ثم يستدرك أرسطو قائلاً: «بسبب فساد السامع من المهم جداً الاهتمام به». فلنلاحظ كيف يكشف أرسطو عن الدواعي إلى استخدام الأسلوب والمتمثلة في «فساد السامع».

إلا أن الأسلوب يَرِدُ عند أرسطو مُرتبطاً بعنصر مناظر له. يتعلق الأمر بالأداء، أي إلقاء الخطبة على الجمهور. فلنستمع إلى أرسطو:

«وكما أن الخطباء يفوزون بالجوائز في المباريات، فإن الممثلين يتمتعون بمحظوة أكبر مما يتمتع به الشعراء، وكذلك يحدث في النقاشات السياسية، وذلك يعود إلى الفساد الأخلاقي لأنظمة الحكم»<sup>(4)</sup>.

نقف هنا على توضيح هام بالنسبة إلى الأداء. إن هذا ملكة فطرية يتميز بها بعض الناس وليس صنعة تنطلق من الفطرة فتتمدها بالدربة والمران فاستخلاص القواعد ثم

(1) أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ص. 234.

(2) Heinrich Lausberg, Manual de Retórica literaria, t. 2, ed. Gredos, Madrid, 1968, p. 297, pp. 238-239.

(3) Aristóteles, Retórica, p. 482.

(4) Aristóteles, Retórica, p. 482.

تدريسها وتلقيها للمتعلمين. ولهذا لا يجوز اعتبار الأداء عنصراً يعلي من شأن الخطيب أو الممثل. لا علاقة للأداء بالصنعة؛ إنه لا يرتقي السلم الذي يوصله إلى مرتبة الصنعة. ولهذا وجب إهماله في الشعر وفي الخطابة.

أما الأسلوب فإنه يُكتسب بالصنعة. ويمكن للحذاق في هذا الميدان أن يفوزوا بالجوائز شأنهم شأن الخطباء والممثلين. بل إن هناك خطباً مكتوبةً تُكتسب قوة أكبر بسبب أسلوبها أكثر مما تكتسبها بسبب فكرها. والواقع أن هذا الربط بين الأسلوب والأداء المسرحي والخطابي، وهذا التمييز بين الأسلوب والمحتوى الفكري، وفوز خطب مكتوبة بسبب الأسلوب، حتى ولو كان المحتوى الفكري هزياً، لِمَا يَنبُذُ عن توجس أرسطو من الأسلوب رغم أنه مقومٌ صناعي.

هي هذه أهم المحاور في خطابة أرسطو. فمن جهة هناك المراحل التي يقطعها الخطاب، من كونه مادة خاماً إلى إلقائه على المستمع. أي الإيجاد والترتيب والأسلوب والتذكر والأداء. لقد نال الإيجاد باعتباره حجاجاً حصّة الأسد. ويليه الترتيب ثم الأسلوب. أما الأداء فقد اعتبره عنصراً خارجياً، غيرَ صناعي ولا يمثل عامل افتخار الخطيب، لأن هذا يندرج ضمن الكفاءة الفطرية. أما التذكر فلم يتحدث عنه بتاتاً.

هو هذا الإنجاز العظيم لأرسطو الذي أقام الحدود الواضحة بين العلم والجدل والخطابة والشعرية، كما أقام الحدود الواضحة بين الفلسفة التأملية والفلسفة العملية. بل لقد كان هو المبتكر المنظر للفلسفة العملية.

لا يكاد اللاتين يضيفون شيئاً جديداً إلى الإرث الأرسطي. إن شيشرون وكيكيليان وغيرهما من اللاتين كانوا شراح أرسطو ومدققين ومفصلين لكثير من أفكاره، كما أهملوا عناصر غاية في الأهمية عنده. هناك تنوعات فقط في مباحث المواضيع المشتركة وفي رسم حدود جديدة للمحسنات التي ستستقل في فن متميز موسع، كما أن هناك تفصيلات لمباحث الترتيب والأهواء والمظهر الأخلاقي للخطيب وتمييز أساليب الشعر والخطابة والفلسفة. وهذه كلها مباحث أرسطية في الأصل.

## كاسيوس لونجينيوس

لعل أهم إضافة في العصر اللاتيني هي كتاب كاسيوس لونجينيوس مصنف الرائع، أو حول الرائع. ومع هذا لم يترك هذا الكتاب أثراً في من جاء بعده على غرار عمل أرسطو. يكاد يكون هذا الكتاب جزيرة لا يتردد عليها أحد. يقول بولونا تيميرمان:

أحتفظت الخطابة اليونانية، خلال عصر ازدهارها بين القرن الأول ق. م. والقرن الأول ب. م. بوضعها دون أن تتعرض لتجديدات ملحوظة للإطار الذي حدده أرسطو وهيرماجوراس. إننا نستطيع الإشارة إلى بعض الوجوه (كاسيليوس من كالكثا ودونيس داليكارناس وأبولودور من بيكام، وثيودورم كاداراً) إلا أن النصوص النادرة التي ورثناها عنهم لا تسوّغ لنا أن ننسب لهم أفكاراً جديدة. فمن هذا العهد، ودون أن نتمكن من التحديد الذي لا يسلم من الأخذ والرد، نجد الأثر الذي يستحق التنويه هو كتاب حول الرائع<sup>(1)</sup>.

يقول لونجينيوس: إننا نستطيع أن نقول بصدد الإقناع، إنه في العادة لا سلطة له علينا إلا ما نريده. ليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الرائع. إنه يكسب الخطاب ضرباً من القوة النبيلة، قوة لا تُقهر، تهز نفس من يستمع إليه. لا يكفي مكان واحد أو اثنان في أثر ما، لأجل أن نصف بدقة الإيجاد وجمال البناء والترتيب؛ فبصعوبة يلاحظ هذا الإتقان بكل متوالية الخطاب نفسها. إلا أن الرائع حينما يندلع حيث ينبغي، يقلب كل شيء مثل الرعد، ويطلق بدءاً كل قوى الخطيب المترابطة جميعاً<sup>(2)</sup>.

التغير المثير الذي طرأ على فن الخطابة في هذا المصنف هو الانتقال من سيادة الحجة الإقناعية المندرجة في خطاب متماسك تتوالى على طوله العناصر الإقناعية، إلى خطاب يتخذ ذريعة لاغتنام الفرص في لحظة معينة لتفجير الطاقات الخطابية الكامنة دفعة واحدة ومباغثة المتلقي لإطلاق انفعاله وتعطيل كل ملكاته العقلية، وجعله يستسلم للهدير الانفعالي

(1) Benoit Timmermans, «Au-delà du langage, la seconde sophistique et rhétorique chrétienne», in. Michel Meyer (dir.), Histoire de la rhétorique, des grecs à nos jours, ed. Livre de Poche, Paris, 1999, p. 73.

(2) Longin, Traité du sublime, éd. Librairie genérale de France, Livre de Poche, 1995, p. 74.

الباثوسي. هذا الإحساس هو المعنى الجديد الذي اكتسبه الباثوس. مصنف الرائع هو إعلان القطيعة مع الخطابة الأهوائية الأرسطية.

## شيشرون

يضرِب شيشرون على نفس أوتار لُونجِينوس. في هذا المقام نفهم جيداً عبارته: إن الناس يتخذون قراراتهم استجابةً للكراهية أو الهوى، وللمتني أو الغضب، وللألم أو السرور، وللأمل أو الخوف، وللخطأ، وباختصار إنهم يستجيبون لاهتزاز أعصابهم، أكثر ما يستجيبون في ذلك للحقيقة أو للشرع أو لضوابط القانون أو للمواضعات القائمة أو لمدونة القوانين<sup>(1)</sup>.

لقد أضاف التقليد اللاتيني إلى الحجاج التوسع في الباثوس؛ فلا يكفي أن ننشئ ذاكرة القاضي؛ ينبغي أيضاً هزُّ إحساساته وعواطفه. وهذا الاهتزاز للعواطف هو المعنى الجديد للباثوس. وفي هذا السياق يذهب شيشرون إلى أن الخطباء اليونانيين كانوا متفوقين في عملية الإفاضة الخطابية، أي الإخبار، أو عرض ملف الدعوة، والحجاج أمام القاضي، أي اللوغوس، إلا أنهم كانوا عاجزين عن هزِّ انفعالاته. إلا أن هذا هو أهم شيء<sup>(2)</sup>.

هذا التشديد على الباثوس باعتباره يندُّ عن العقلي، نلاحظه في اللفظة نفسها pathos أي المعاناة من أذى ما أو مرض. ومنها اللفظة الفرنسية patient أي من يعاني، لا من يفعل، والإسبانية padece أي يشكو ويعاني، لا من يفعل إلخ. وفي الخطابة تدل الكلمة على تحمُّلٍ ما لفعل. المستمع في هذه الحال يسقط في قبضة الخطيب الذي يجره أئى شاء. ويجره على القبول. هو هذا العنصر الذي يعتمد المحرضون الذين يسيطون هيمنتهم على قلوب الضحايا فيفعلون بهم ما يشاؤون.

(1) Cicéron, De L'Orateur, Livre Deuxième, éd. Les Belles Lettres, Paris, 1966, p. 78.

(2) Longin, Traité du sublime, éd. Librairie générale de France, Livre de Poche, 1995, p. 12.

هذا العنصر الباثوسي اكتسب القوة في الخطابة اللاتينية. فهذا مَانَوِيلُ مَارِيَا كَارِيلُو يقول: «إننا نلاحظ عند شِيثَرُون طرْحاً جديداً [...] فمن وجهة نظر الترابط الحاسم لكل خطابة مبنية على التقسيم الثلاثي: اللُّوغُوس والإيثُوس والباتُوس يسعى شِيثَرُون إلى الاحتفاظ بالعلاقة الأرسطية بين الخطاب والخطيب والمستمع؛ إلا أن شيئاً ما جديداً يظهر في المَوْضعة الشِيثَرُونِيَّة، إن تشديداً ما يقع على الباثُوس، دون أن ينال ذلك من الهيمنة العامة للإيثُوس. وهكذا ففي الخطيب يؤكد شِيثَرُون أن البعدين اللذين يُجعلان الفصاحة مثيرة للإعجاب إثنان. أحدهما يسميه اليونانيون 'éthique' وهو يخص الأمزجة والأخلاق وكل سلوك الحياة [أي الإيثُوس]؛ والآخر الذي يسميه 'pathétique' يستعان به لزعزعة واستفزاز القلوب [أي الباثُوس] وفيه تنتصر الفصاحة éloquence. إن الأول ودود ومسئل، وأهل لبث عطفنا، والآخر عنيف ومتوقِّد ومندفع ويتزعج الفوز؛ وحينما ينطلق مثل السيل فلا مجال لمقاومته.

يكتسب الباثُوس هنا قوة لم يكن يتمتع بها في الإطار الأرسطي؛ ليس لأننا نستسلم للشيطنة الأفلاطونية للخطاب، بل لتقديم تصور جديد للفعل في المحفل الخطابي<sup>(1)</sup>.  
إلا أن هناك أمراً ينبغي توضيحه يتمثل في أن شِيثَرُون يعين للخطيب ثلاثة أغراض في الخطابة وهي الإفادة والإمتاع والتأثير. تُعتمد قواعد الفن الخطابي على ثلاثة أسس للإقناع: إثبات حقيقة [أو صدق] ما نؤكد، كسب عطف المستمعين، وإثارة كل انفعالاتهم المفيدة في الدعوى<sup>(2)</sup>.

والواقع أن هذه الصيغة في شكلها المختصر أي docere, delectare, movere<sup>(3)</sup> تحيل على الصيغة الأرسطية المعروفة أي اللوغُوس والإيثُوس والباتُوس، وقد تناوله شِيثَرُون بتعديل ما لمحتويات تلك المصطلحات ونقل مواطن التشديد. ففي الصيغة

(1) Manuel maria carrilho, «Les racines de la rhétorique: l'antiquité grecque et romaine», in. Michel Meyer (ed.), Histoire de la rhétorique, des grecs à nos jours, pp. 67-68

(2) Cicéron, De L'orateur, p. 53.

(3) هناك صيغ مختلفة لهذه العبارة منها:

Docere delectare movere (L. Pernot, La rhétorique dans l'antiquité, p. 154)

Probare delectare flectere (cicéron, El orador, Alianza editorial, Madrid, 2001, p. 13)

الشيئرونية هناك تقديم الملف أو الإفادة فالتماس العطف أو الإمتاع ثم أخيراً التأثير أو التحريك. والجدير بالملاحظة هنا أيضاً أنه يقابل كل واحدة من الوظائف الثلاثة السابقة أسلوب خاص. ففي الإفادة يسود الأسلوب البسيط، ففيه لا يستعين الخطيب إلا بقليل من المحسنات، إذ إن الهدف هو مجرد الإخبار **docere** والبرهنة **probare**. ويعتمد الأسلوب على الصفاء اللغوي وعلى الاختصار. وفي الإمتاع يُستعان بالأسلوب المتوسط، الذي يعتمد على المحسنات الممتعة، كما أن تعجيبها يكون خفيفاً. والجنس الشعري الذي يستعمل هذا الأسلوب هو الشعر الغنائي. وهنا تعتمد العبارات الدورية والتوازي.

والجنس الرائع، يعتمد المحسنات الباثوسية، إذ الغاية هي التحريك. وفيه تكون درجات التعجيب شديدة. والشعر المناسب لهذا الأسلوب هو التراجيديا. وهو يستعين بالعبارات الدورية المدوية والتوازي المنعكس والاستعارات المفارقة<sup>(1)</sup>.

في هذا السياق يمكن أن نفهم النص السابق المتعلق بالأسلوب الرائع الذي تعتبر وظيفته الأساسية بعث هذا الشعور الباثوسي. لقد مضى عهد الباثوس الأرسطي الدال على الأهواء القارة والمستديمة وتلك المستفزة بمحاورة عقلية بالغة العمق لقلب المخاطب لأجل شحذ إرادته نحو الفعل وليس لسلب قواه وإرادته كما في الباثوس اللاتيني.

لقد نُقِلَ مفهوم الباثوس الأرسطي من الدلالة على ما يهواه الإنسان بشكل طبيعي ودائم مع ما يرافقه من تلذذ أو ألم. وهذه الأهواء هي، حسب أرسطو، الغضب/السكون والصدقة/الكراهية والخوف/الأمان والخجل/الوقاحة والإحسان والشفقة/النقمة والحسد/الغبطة<sup>(2)</sup>.

إن الباثوس هنا في العصر اللاتيني يدل على الرجة الانفعالية التي يحدثها الخطيب في الملتقي بشكل مباغت وبعيد عن شروط اللوغوس أو الخطاب. وبطبيعة الحال فقد وضع الباثوس العنيف، عند اللاتين، مقابل الإيتوس الهادئ والودود.

(1) Heinrich Lausberg, Elementos de Retórica literaria, ed. Gredos, Madrid, 1975, p. 237.

أرسطو، الخطابة، ترجمة. عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص.ص. 103-104



لم يكن الباتوس هو وحده الذي حظي بالناية في الخطابة اللاتينية، بل لقد نالت المحسنات حظاً كبيراً من العناية. ولعل أفضل من يمثل هذا الاتجاه كتاب شيشرون الخطيب الذي نقتطف منه هذا الاستشهاد: "إن جمال أسلوب الخطيب يكمن في الإضافات المزينة سواءً أكانت محسنات أفكار أم محسنات كلمات. إن محسنات الكلمات نمطان: يحيل أحدهما على الكلمات المفردة، ويحيل ثانيهما على التأليف بينها. وفيما يعود إلى الكلمات المفردة، تستحسن تلك التي تحيل على معاني حقيقية ومتداولة، إذ إنها هي التي يُستعذبُ سماعها؛ وفي ما يتعلق بالكلمات الدالة على معاني غير حرفية، تقبل الاستعارات المجلوبة من مفهوم آخر على سبيل الاقتراض، أو التي ابتكرها المؤلف نفسه، وتكون بذلك جديدة، أو تلك القديمة غير المستعملة؛ وكذلك فإن الكلمات القديمة غير المستعملة يمكن أن تدرج بين تلك التي تحمل معاني حرفية، ولكنها نادرة الاستعمال. وفيما يتعلق بتأليف الكلمات، فإن هذا يساهم في التزيين، متى كان متسماً بتناظر ما، التناظر الذي يختفي إذا غيرنا ترتيب الكلمات، ولو احتفظ بالفكرة. إذ إن محسنات الأفكار تظل قائمة حتى في حال تغيير ترتيب الكلمات. إن محسنات الأفكار كثيرة الورد في الخطاب، إلا أن القليل منها ما يسترعي النظر.

وفي النهاية فإن ذلك الخطيب البسيط والأنيق، لا ينبغي أن يكون جسوراً في خلق الكلمات؛ ينبغي أن يكون خفياً ومقتصداً في استعمال الاستعارات؛ ومعتدلاً في استعمال القديم من الكلمات وباقي محسنات الكلمات والأفكار؛ وربما كان أغزر في استعمال الاستعارات التي تُستعملُ بكثرة في كل أنماط الكلام، ليس فقط عند سكان الحواضر، بل وعند القرويين، إذ إن هؤلاء هم مبتدعو صيغ من قبيل الكروم تعطي المجوهرات والحقول تعاني من العطش" والزرع مبتهج" والفواكه مترفة"<sup>(1)</sup>. إن هذا يعطينا صورة عن الحيز الذي أصبحت تحتله المحسنات عند علماء الخطابة في العصر اللاتيني. ويؤكد في نفس الكتاب على اعتبار العبارة *elocutio* أو الأسلوب الخاصة التي يتألف بها الخطيب أكثر من غيرها. يقول شيشرون: "فلنستعرض نموذج الخطيب الكامل والعبارة الأرفع. إن الاسم نفسه يدل على أن الخطيب الكامل يتفوق بهذا فقط، أي بالعبارة، في حين أن الأشياء الأخرى تظل في الظل؛

(1) Ciceron, El orador, Alianza editorial, Madrid, 2001, p. 63

وفي الحقيقة، فإن هذا الخطيب لا يُدعى لا "مُوجِداً" inventor ولا "مُرتَّباً" compositor ولا "مُلقياً" actor [...] إنما يدعى "رَئِيساً" rétor خطيباً في اليونانية و elocuyente<sup>(1)</sup> في اللاتينية أي فصيحاً. وذلك لأن الوظائف الأخرى التي يتمكن منها الخطيب، كل الناس يدعون التمكن من جزء منها، إلا أن التمكن الأسمى من الكلمة، أي من العبارة، لا يُخَوَّلُ إلا للخطيب<sup>(2)</sup>. هو هذا إذن الجذر العميق الذي يغذي بلاغة المحسنات.

نكتفي الآن بهذا، فلو كان المقام يسمح لاستفضنا في الحديث عن مقومات خطابية مهمة في كتاب شيشرون الخطيب من قبيل: العبارات الدورية والجناس والإيقاع وأساليب الفلاسفة والشعراء والمؤرخين. إن غرضنا هو تقديم لمحات لا غير لكبي نعرف الاتجاه العام الذي يسير فيه تحليل علماء الخطابة.

إننا ندرك جيداً من خلال النص السابق لشيشرون هذا التفريع المحسناتي للخطابة في العصر اللاتيني. ويؤكد هذا التوجه ما يقوله مَانَوِيل مَارِيَا كَارِيلُو:

إن سقوط الجمهورية وخلق إمبراطورية، قد جعلاً وضع الخطابة يتغير، بسبب القيود التي أثقلت بقوة كاهل الحريات العامة. وفي كل الأحوال، ففي إطار التعليم احتفظت الخطابة بدور ما، حتى وإن كانت أهميتها العامة آخذة في التناقص كما يلاحظ ذلك بحسرة ثاميسيت الذي يؤكد في *Dialogus de Oratoribus* بأن الخطابة قد تحولت بشكل متزايد إلى ممارسة تزيينية وجوفاء. إن هذا هو عصر المختصرات الكبيرة. والحالة الوحيدة التي تثير الانتباه، ولكن بسبب حجم الكتاب، هو عمل كِيتِيلْيَان. ففي مؤسسات الخطابة يُقدِّم

(1) تحيل مُوجِد inventor على الإيجاد أي inventio وتحيل compositor على الترتيب compositio وتحيل actor ملقي الخطبة على actio كما تترادف rétor اليونانية الكلمة اللاتينية elocutio والكلمتان اليونانية واللاتينية مشتقتان من الكلام. ولهذا تدعو اللاتينية الخطيب بالفصيح. أي متمكناً من صناعة تقوم على الكلمة لا على إيجاد موضوعات الخطابة أو ترتيبها أو إلقائها.

(2) Cicéron, De L'Orateur, Livre Deuxième, éd. Les Belles Lettres, Paris, 1966, p. 54.

هذا على تنسيق التراث الخطابي. إنه يفعل ذلك بدون تجديد ولا منظور خاص، الشيء الذي يجعل الانتقائية تظهر باعتبارها إحدى الصفات الأساسية لمجموع عمله<sup>(1)</sup>.

إن مبحث العبارة قد استقام علماً مستقلاً هو بلاغة المحسنات. وعلى الرغم من أن تاريخ هذا الاستقلال قديم، فإن بيرلمان يعين تاريخاً حديثاً لهذا الاستقلال. يقول بيرلمان في الإمبراطورية الخطابية: «إن نبيز دُو لارامي [أو راموس 1515-1572] الذي ينطلق من الثالث الخطابي، أي فن القول، يحدد النحو باعتباره فن الكلام السليم، أي الكلام بطريقة صائبة، والجدل باعتباره فن الاستدلال الجيد، والخطابة باعتبارها فن القول الجميل أي الاستعمال الفصيح والمزخرف للغة.

لقد زعم وهو يعتبر الجدل الفن العام للابتكار والحكم على أي شيء، بالأ وجود إلا لمنهج واحد وهو منهج أفلاطون وأرسطو [...] هذا المنهج موجود في فيرجيل وفي شيشرون وفي هوميروس وفي ديموستين، إننا نصادفه عند الرياضيين وفي الفلسفة، وفي الأحكام وفي سلوك الإنسان.

بهذه الروح، وبعد هذا الاختزال المبرر فلسفياً، نشر صديق بيثروس راموس، أومير تالون في كولونيا سنة 1572، أول خطابة منسقة مقصورة على دراسة المحسنات [...] بهذه الطريقة تم تشييد الخطابة [أو بالأحرى البلاغة] الكلاسيكية أي خطابة المحسنات التي سافت بالتدريج إلى تفسخ الخطابة وبالتالي إلى موتها<sup>(2)</sup>. وبعد تالون فإن أحسن من اشتهر بالتأليف في مجال بلاغة المحسنات هو بيير فونطانيي (1765-1844)<sup>(3)</sup> وهوج بلير (1718-1800)<sup>(4)</sup>، ومن المعاصرين نجد جماعة ليج *groupe μ* البلجيكية<sup>(5)</sup>. فعلى الرغم من تسمية كتابها بلاغة عامة فإنها بلاغة محسنات، التي كانت في خطابة أرسطو مجرد إقليص صغير في إمبراطورية مترامية الأطراف. علينا أن نعرف أن بلاغة المحسنات هي بدورها اختزال لمبحث

(1) Manuel Maria Carilho, «Rhétorique héléstique et romain», in. Michel Meyer (dir.), Histoire de la rhétorique, des grecs à nos jours, ed. Livre de Poche, Paris, 1999, p. 69.

(2) Chaim Perelman, L'empire rhétorique, éd. Vrin, Paris, 1977, pp.17-18.

(3) Fontanier, Pierre, Les figures du discours, Flammarion, Paris, 1968.

(4) Hugh Blair, Leçons de rhétorique et de belles lettres, éd. Hachette, 2012.

(5) Groupe *μ*, Rhétorique générale, ed. Larousse, Paris, 1970.

العبارة الذي لم يكن يستقطب المحسنات وحدها، بل هناك إلى جانبها مبحثان مهمان، يتعلق أولهما بسلامة العبارة 'puritas'<sup>(1)</sup>، والثاني هو قابلية العبارة لكي تُفهم 'perspicuitas'<sup>(2)</sup> وفي المرتبة الثالثة نجد العبارة المزخرفة أو المحسنة 'ornatus'<sup>(3)</sup> وإذا كانت بلاغة المحسنات قد رسمت حدود عملها ضمن أربعة مباحث كبرى هي، محسنات الألفاظ أي كل المقومات البديعية اللفظية، الجناسية خاصة، ومحسنات المعنى، أي المجاز المرسل والكناية والاستعارة، ومحسنات التركيب، أي التقديم والتأخير والاعتراض والحذف والتوازي، ومحسنات الأفكار، أي التمثيل وكل صور المجاز العقلي، فإن جماعة لبيج قد حددت هي بدورها حدود عملها ضمن أربعة مباحث كبرى أيضاً هي نفسها بالتمام التي نلقاها في بلاغة المحسنات؛ ولقد استبدلت جماعة لبيج التسميات إيهاماً بأن الأمر يتعلق بموضوع ومنهج جديدين. وهذه التقسيمات هي نفسها السابقة ولقد تقنعت بتسميات جديدة هي ميتاَلِازِم (أي محسنات الألفاظ) وميتاَسِيمِيَم (أي محسنات المعنى) وميتاَأَكْس (أي محسنات التركيب) وميتاَلُوجِيزِم (أي محسنات الفكر). ويجسد هذا، في نظر جماعة لبيج، الوظيفة البلاغية، للغة. المطابقة بين الوظيفة البلاغية المحسناتية والوظيفة اللعبية يعني قطع هذه لعلاقاتها التقليدية بالبلاغة الحجاجية أو الخطابية.

لقد وضع بيرلمان (رائد مدرسة بروكسيل) نصب عينيه نقض البلاغة المحسناتية في صيغتها المعروفة عند فونثالبي، إذ إن بلاغة عامية لجماعة مو لم تظهر إلا سنة 1970، أي بعد المصنف باثنتي عشرة سنة. وبطبيعة الحال فإن جماعة لبيج هي التي سارعت إلى فتح النقاش مع بلاغة الحجاج لبيرلمان. كان نقد بيرلمان لبلاغة المحسنات تمهيداً لطرح تصوره الذي سماه خطابة جديدة أو جدلاً جديداً. في حين أطلقت جماعة لبيج على مشروعها بلاغة عامة.

(1) Heinrich Lausberg, Manual de Retórica literaria, t. 2, ed. Gredos, Madrid, 1968, p. 297, p. 17

(2) Heinrich Lausberg, Manual de Retórica literaria, t. 2, p. 46

(3) Heinrich Lausberg, Manual de Retórica literaria, t. 2, p. 50

لماذا اخترنا الدخول إلى عالم الخطابة الجديدة البرلمانية عبر بوابة بلاغة المحسنات؟ إن هذه تمثل المرحلة الأخيرة لتطور الخطابة حيث اختزلت في فرع واحد من فروعها الكبرى، أقصد إلى العبارة أو elocution التي كانت تؤلف، إلى جانب الإيجاد inventio والترتيب disposition، المباحث الكبرى لفن الخطابة. هذه الصيغة الأخيرة أي العبارة تكاد تتطابق بالكامل مع بلاغة الشعر. تغطي الوظيفة الشعرية، جزئياً على الأقل، ما كان أمبرودان يطلق عليه، من وجهة نظر نفسية، الوظيفة اللعبية. قد يكون من الأفضل تفادياً لأي التباس الحديث عن الوظيفة البلاغية<sup>(1)</sup>. هناك إذن نزاع حاد حول الصفة أو التسمية nouvelle rhétorique. إن بيرلمان، رائد مدرسة برؤكسيل يدعيها لنفسه، كما تدعيها جماعة لبيخ لنفسها، أو بالأحرى كما ادعاها لهم بول ريكور في الاستعارة الحية إذ إنه هو الذي خصهم بتسمية بلاغة جديدة، دون أن يخص بها خطابة بيرلمان. إن الاتجاهين بلجيكيان. أحدهما يربط في العاصمة برؤكسيل والآخر يتحصن في لبيخ. قد تكون المنافسة بين المدينتين وراء هذا النزاع المحموم والخفي. لن نستغرب أن يعتمد بيرلمان إلى نعت البلاغة المحسنات، بأنها تجفف المحسنات، بعد انتزاعها من السياق الحجاجي، وتودعها في الصنافة النباتية المجففة<sup>(2)</sup>، وتنسب إليها صفة الشعرية بعد حرمانها من صفتها الحجاجية الأصلية.

المدرسة الأولى البرلمانية هي خطابة، أي نظرية حجاجية تجدد أصولها خاصة في الكتاب الأول من خطابة أرسطو، والمدرسة الثانية هي امتداد لبلاغة المحسنات كما نجدتها في محسنات الخطاب لفونطانيي، التي تضرب بجذورها في الكتاب الثالث من خطابة أرسطو. ولهذا فقد بادر بيرلمان إلى تصفية البلاغة المحسناتية.

على الرغم من أن دراسة المحسنات من وجهة نظر الإقناع الحجاجي عمل مشروع، فمن غير المقبول استئثار أي علم بمجال من المجالات، والادعاء أنه هو وحده صاحب الحق في تناول هذا الموضوع. من هنا فإن الخطاب يمكن تناوله من زوايا متعددة: لغوية خالصة أو أسلوبية أو حجاجية إلخ. لقد اعتدنا على النظر إلى المحسنات باعتبار آثارها الجمالية. وعلى

(1) Rhétorique générale ed. Larousse, Paris, 1970, p. 18

(2) Traité de l'argumentation, p. 231

الرغم من الاحتياطات الذي أعرب عنها بيرلمان في هذا المضممار، فإنه كثيراً ما انزلق في خطابه وكأنه يشعرنا أن المعالجة الوحيدة المشروعة للمحسنات هي المقاربة الحجاجية. يقول بيرلمان:

فلنتناول تحديد الوصف الحي (hypotypose (demonstratio كما نلقاه في كتاب خطابة إلى إيريثيوس<sup>(1)</sup> باعتباره محسناً يعرض الأشياء بطريقة تبدو وكأنها تحدث أمام أنظارنا. إنها إذن طريقة لوصف الأحداث تجعلها حاضرة في وعينا: هل يمكننا إنكار دورها البارز بوصفه عامل إقناع؟ فإذا أهملنا هذا الدور الحجاجي للمحسنات، فلإن دراستها ستظهر بسرعة بأنها ضياع للوقت، بحثٌ عن كلمات غريبة باعتبارها صيغاً مصنوعة<sup>(1)</sup>.

‘ضياع للوقت’! هذا ممكن بالنسبة لمن يتبنى تحديداً ضيقاً جداً للحجاج. إن الجوانب الجمالية ينزلها بيرلمان في موقع متعارض تماماً مع الملامح الحجاجية. بطبيعة الحال هو يشدد على تسييج مجال عمله، إلا أن العبارة تحونه أحياناً، ويشي خطابه بازدراء عمل الباحث في الأسلوبيات والشعريات، وبلاغة المحسنات، علماً بأن الشعر الخالص، وحتى في حال التعبير العاطفي الانفعالي لا تمكن تبرئته من المرامي الحجاجية، بل حتى حينما يقصد الشاعر إلى مجرد الإمتاع.

وعلى الرغم من هذا فإن بيرلمان ، وهو مأخوذ بالغايات الحجاجية، لا يجد جريرة في أن يمد يده إلى قوائم المحسنات الأسلوبية فينتقي منها ما يراه منسجماً مع أغراضه الحجاجية، فيدخلها في ذلك الإطار فتصبح أدوات حجاجية. وبطبيعة الحال يهمل المحسنات الأخرى لأنها في نظرة لا تتماشى مع أغراضه الحجاجية. يقول بيرلمان:

وبالنسبة إلينا نحن الذين نهتم أقل اهتماماً بشرعية الطريقة الأدبية في التعبير ونهتم بالأساس بتقنيات الخطاب الإقناعي، يبدو لنا مهماً ليس دراسة مسألة المحسنات في مجموعها، وإنما بيان كيف أن استعمال ومكامن بعض المحسنات المحددة تفسرُ بالحاجات الحجاجية<sup>(2)</sup>. إن الباحث في الأسلوبيات وبلاغة المحسنات لنتابه الدهشة وهو يقرأ عبارة بيرلمان:

(1) Traité de l'argumentation, p.226

(2) Traité de l'argumentation, p.227

إن محسناً عديم الأثر الحجاجي، سيسقط إلى مستوى محسن الأسلوب<sup>(1)</sup>. إن عبارة 'سيسقط' صريحة في هذا الازدراء للملامح الأسلوبية للمحسنات. إلا أن الأخطر من كل هذا، هذه العبارة لبرلمان:

فإذا كان المؤلفون الذين اهتموا بالمحسنات نزاعين إلى ألا يجدوا فيها غير جانبها الأسلوبية، فإن ذلك يعود إذن، حسب رأينا، إلى أنه من اللحظة التي يُتنزع فيها المحسن من سياقه، ويُودَع في صناديق نباتية، فإنه يُصبح بذلك مدركاً بالضرورة من جانبه الأقل حجاجية<sup>(2)</sup>.

يبدو برلمان وكأنه يعتبر الصفة المتأصلة في الخطاب هي كونه حجاجياً، أما المقومات التي تهتم بها بلاغة المحسنات فهي أمور عرضية، وليست من الملامح المميزة للخطاب أو لأجناس منه. الظاهر أنه ما كان ليخفى على جماعة لسيج هذا الوصف التقيصي للمقومات الشعرية أو المحسناتية. ولهذا نقراً لهم فقرة مثيرة وعميقة في تقديم بلاغة عامة: إن أثر الوظيفة البلاغية هو تضييع اللغة. إننا نعرف أن التأثير في الآخر (الدعاية والوعظ والإغراء والإشهار، الخ) لم يتوقف أبداً عن التزود من مستودع المقومات الشعرية، ولا نتحدث هنا عن أولئك الذين يستعملونها في الخطاب العلمي اختصاراً لعملية البرهنة. وفي ما يتعلق بالكاتب، فإن اعتباره يستعمل المحسن قليل في حقه: إنه يعيش به. لا يتعلق الأمر بالنسبة إليه بزخرفة قول ما، بل إنه يتعلق بتمتيع اللغة بالوجود بدون ضمانات الأشياء: إن المحسن وحده، بمعناه العام الذي أعطيناه له هنا، هو الكفيل بتمتيعه بهذا. ليست البنيات الإضافية إذن قيود خالصة، أو 'عوائق'، حتى وإن كانت كدليّة، بل هي بالأحرى، الطريقة الوحيدة، لتحويل اللغة عن دورها الانتفاعي، الذي هو الشرط الأول للتحويل إلى شعر<sup>(3)</sup>.

ورغم الحكم القاسي لبرلمان على المحسنات التي اهتمها بالقصور في إحداث أثر حجاجي، فقد عمد إلى عملية تصفية قوائم المحسنات وانتقى منها تلك التي يعتبرها فعالة

(1) Traité de l'argumentation, p.230

(2) Traité de l'argumentation, p.231

(3) Groupe Mu. Rhétorique générale, ed. Larousse, Paris, 1970, p. 27

لأداء الدور الحجاجي. وسعيًا إلى هذا فقد أعدت ثلاث قوائم، واضعاً لكل واحدة منها اسماً خاصاً. يقول بيرلمان:

ولأجل تمثيل طريقة معالجتنا، فإننا سنستعرض بعض محسنات الاختيار والحضور والتشارك<sup>(1)</sup>. إن هذه المصطلحات لا تعين الأجناس التي تعتبر بعض المحسنات التقليدية أنواعاً منها. إنها تدل فقط على أن أثر، أو أحد آثار بعض المحسنات، يكمن خلال تقديم المعطيات، في اقتراح اختيار، أو زيادة حضور أو تحقيق تشارك communion مع المستمع.

1- التحديد الخطابي oratoire هو أحد محسنات الاختيار، لأنه يستعمل بنية التحديد، ليس لأجل تقديم معنى كلمة، بل لأجل الوضع في الواجهة بعض مظاهر واقعة ما معرضة لكي تظل في هامش الوعي<sup>(2)</sup>.

2- محسنات الحضور لها أثر الاستحضار في الوعي موضوع الخطاب. إن أول هذه المحسنات هو المحاكيات الطبيعية onomatopie [...] ومن بين المحسنات التي تبعث الزيادة في إحساس الحضور، فإن أبسطها ترتبط بالتكرار الذي يتمتع بأهمية في الحجاج، في حين أننا في البرهنة وفي الاستدلال العلمي عامة، لا يساهم بشيء [...] وما هو أقرب مع ذلك من محسنات الحضور لمجد التكرار المتصل<sup>(3)</sup>.

3- وأخيراً محسنات التشارك التي يحددها بيرلمان بعبارته: محسنات التشارك هي تلك التي تسعى، باعتماد مقومات أدبية، إلى خلق أو تأكيد التشارك مع المستمع. هذا التشارك هو في الغالب حاصل بفضل الإحالات الثقافية، وتقليد ما وماضي مشترك [...] هذا الشيء يمكن أن يكون حدثاً من الماضي أو عادة أو واقعة ثقافية، تعتبر معرفتها مقصورة على أعضاء المجموعة التي يلمس الخطيب إقامة علاقة تشارك معها<sup>(4)</sup>.

وعلى سبيل الخلاصة يقول بيرلمان: إن هذه التوضيحات حول دور بعض المحسنات في تقديم المعطيات، تكفي، حسب رأينا، لبيان كيف نستطيع أن نربط آثارها بعوامل عامة

(1) التشديد من عندي

(2) Traité de l'argumentation, p. 232-233.

(3) Traité de l'argumentation, p. 235-237

(4) Traité de l'argumentation, p.239



للإقناع. إن تحليلنا للمحسنات هو إذن خاضع لتحليل أول للحجاج. قد نستطيع الاعتراض بأننا بهذا التصور لن نستطيع الإمساك أبداً بما يعتبره البعض جوهرياً في دراسة المحسنات<sup>(1)</sup>.

ترديد نفس الكلام الذي يعتبر معالجة الأسلوبيين من قبيل الاهتمام بأشياء غير تمييزية في المحسنات أو أشياء هامشية وثانوية وعرضية. وهذا يند عن جادة الصواب العلمي الذي يرى أن هذا الجنس من الممارسات اللغوية يبيح لكل تخصص أن ينتقي منها ما يراه مناسباً للنظرية التي اختارها.

قد يكون تشييد بيرلمان لخطابته الجديدة على أنقاض بلاغة المحسنات حدثاً عرضياً ناتجاً عن الحدث الأصلي الثوري المتمثل في إعادة تشييد البلاغة الحجاجية أو الخطابة الجديدة. كان مشروع بيرلمان هو العودة إلى النبع حيث كانت البلاغة أو الخطابة حجاجية. أي العودة إلى أرسطو في خطابته وجدله. العودة إلى الخطابة والطوبى لأرسطو. إلا أن بيرلمان حرص في تصوره الجديد على توسيع الدائرة الحجاجية وعدم الاقتصار على الخطابة الشفوية التي تتوجه إلى العوام، وعدم الاقتصار على الجدل باعتباره حواراً بين اثنين قاصد إلى البناء النقدي للاستنتاجات المتفق حولها، أو باعتباره حواراً - منازلة يحاول كل طرف الانتصار على شريكه، مع ما قد يرافق ذلك كله من التوسل بأدوات حجاجية مغالطة تروم الانتصار المعتمد على اصطناع الخدعة أو التغليط.

لقد سعى بيرلمان بشكل بارع إلى توسيع دائرة الخطابة أو الجدل لكي يشمل بهما مجالات مترامية الأطراف وهي كل المجالات التي تمتنع عن المعالجة العلمية التجريبية أو البرهانية، والتي تضيق عنها كثيرا الخطابة أو البلاغة الموروثة عن أرسطو. يقول بيرلمان: «ولأجل أن أدلي لكم باعتراف بشأن تطور تاريخي، فقد بدأت بحشي، باعتباري متخصصاً في المنطق، بواقعة كانت تحيرني، أي إن الفلاسفة لم يكونوا متفقين. أعتقد أن الكثير من العقلانيين الشباب تمكنت منهم الحيرة بسبب هذا: لماذا يحصل الاختلاف في الفلسفة؟ وبعد ذلك رأيت أن هذا الاختلاف لم يكن حاصلاً في الفلسفة فقط، بل كان هناك اختلاف في القانون، واختلاف في السياسة، واختلاف غالب في العلوم الإنسانية، وفي

(1) Traité de l'argumentation, p.241

مجالات أخرى كثيرة؛ وحيثنذ تم توسيع الموضوع الخاص ببحثي: كيف نفسر الاختلاف في هذه الحقول المعرفية التي نعتبرها مع ذلك تعود إلى العقل؟ هي هذه نقطة انطلاقي<sup>(1)</sup>.

لقد لاحظ بيرلمان أن هناك مجالات تتأبى عن الحسب العلمي الدقيق بين المختلفين. أي إن الجزم واليقين لا يجدان لهما موطناً آمناً في دائرتها. وبطبيعة الحال فإن هذا لا يعني أن الأمور هنا لا تعالج ولا تحكم إلا بالاعتباط. إن هناك بين اليقين العلمي والاعتباط منطقة وسيطة هي التي تعالج بالوسائل الجدلية، وإن شئت فقل: الخطابية. هذه المجالات السابقة، أي في الفلسفة والقانون والسياسة وكل العلوم الإنسانية هي الأرض الرخوة التي لا تسلم مفاتيحها للمفاهيم اليقينية إنها تسلم مفاتيحها لهذا الضرب الثاني من الأدوات والتقنيات التي تمتاز بمرونة قابلة لاحتواء هذه الفضاءات الإنسانية. هذه الأدوات هي التي أطلق عليها بيرلمان الخطابة الجديدة أو الجدل الجديد. إنها الأدوات التي تسلمح بها الفلسفة العملية التي اتبعثت في منتصف القرن الماضي. وكان بيرلمان أحد روادها.

وهكذا فمع غياب وسائل تقنية تستجيب لشروط معالجة المشاكل العملية لحياة الإنسان لا مفر من التماس اتفاقات بين الناس في كل الأمور الخلافية التي تولد النزاع. في هذه الحالة نلجأ إلى الاستدلالات الجدلية والخطابية التي تفرض نفسها، وهي الاستدلالات التي تسعى إلى تحقيق اتفاق بصدد القيم وتطبيقها حينما تكون هذه موضوع خلاف.

إننا نشاهد بهذا ظهور الخاصية المركزية لمفهوم الاتفاق الذي تعرض للإهمال في الفلسفات العقلانية أو الوضعية، حيث ينصب الاهتمام على صدق قضية ما، ويكون زائداً حينما يُثَبِّتُ الصدق باللجوء إلى الحدس أو إلى البرهان. إلا أن مفهوم الاتفاق يصبح مركزياً حينما تكون وسائل البرهنة غائبة أو غير كافية، وعلى الخصوص حينما لا يكون موضوع المجادلة صدق قضية ما، ولكن قيمة قرار ما أو اختيار أو فعل، باعتباره عادلاً أو منصفاً أو معقولاً أو ملائماً أو مناسباً أو مشرفاً أو متفقاً مع الحق. كيف نكسب اتفاق الآخر، والاتفاق

(1) Ch. Perelman, "L'idéal de rationalité et la règle de justice", in, Ethique et droit, ed. ULB, Bruxelles, 1960, pp. 164-165.

الذاتي في تشاور حميمي؟ ذلك ما درسناه في مصنف الحجاج، الذي سميناه هو أيضاً الخطابة الجديدة<sup>(1)</sup>.

هو هذا إذن المهّد الذي نشأت فيه الخطابة الجديدة، التي تستقل طريقاً موازياً للمنطق التقليدي ولأدوات البرهنة التجريبية. إن صياغة خطابة مبنية بهذا الشكل، تتمتع بأهمية فلسفية لا تعوّض لأنها... توفرُ معداتٍ تكميليةً للمنطق التقليدي، الذي هو تقنية للبرهنة أو الاستدلال الضروري بالاتفاق مع قواعد الاستنباط أو الاستقراء [...]. إن هذا لن يسمح للإنسان بالبرهنة والاستدلال على اعتقاداته فقط، وإنما سيسمح أيضاً بتبرير قراراته واختياراته. وبهذا فإن الخطابة الجديدة لا غنى عنها، حينما تصوغ منطقاً لأحكام القيمة، لتحليل الاستدلال العملي<sup>(2)</sup>.

الخطابة الجديدة تهتم إذن بموضوع يستعصي على معالجة المنطق التقليدي والعلم. إنها تهتم بالاستدلال عما يأخذ به الإنسان من اعتقادات وعن اختياراته وقراراته العملية. وهذه أمور لا تعني المنطق الصوري إطلاقاً. إذ الأمر يتعلق بالقيم والاختيارات الإنسانية؛ فلأجل تحليل هذه الأمور من الضروري توسيع المنطق لكي يشملها بالتحليل، وهذا المنطق المؤهل لهذه المهمة هو الخطابة الجديدة، باعتبارها النظرية الحجاجية؛ والواقع أن بيرلمان يصل الحبل المتقطع، لأن هذا المجال سبق لأرسطو أن أفاض في معالجته في كثير من أعماله، خاصة، في الطوبىقا، وتفنيد السفسطة، والخطابة. بل يمكن القول أيضاً إن أخلاق نيكوماخ تعالج نفس الموضوع. إن عمله في الخطابة الجديدة هو تركيب مكثف ومنسق لكل هذه الأعمال. وحرصاً على بلورة نظرية منسجمة فقد عمد إلى بتر أطراف من خطابة أرسطو. وهكذا يمكن القول بشيء من التعميم، إنه إذا كانت الخطابة عند أرسطو تستقل طريقاً موازياً للجدل، فإن الخطابة الجديدة عند بيرلمان، وهي تستوعب الجدل، بل تتطابق معه، تستقل طريقاً موازياً للمنطق الصوري. وبعبارة أخرى فإن الخطابة الجديدة هي العلم الخاص بالمجالات التي تغطيها العلوم الإنسانية. هي المجالات التي قيل عنها أنها لا تستحق الولوج إلى جنة المفاهيم.

(1) Logique juridique, nouvelle rhétorique, pp. 102-103

(2) Chaim Perelman, « La naturaleza de la nueva Retórica », Encyclopedia Britanica CD, 99, Multimedia Edition, traducción, y adaptacion de Analía Reale.

كما يمكن الزعم إن المفاهيم ممنوعة من الولوج إلى هذه الفضاءات التي لا تمنع أسراها إلا للخطابة الجديدة.

أنت تعرف أن في خطابة أرسطو تحضر عناصر ثلاثة هي إيتوس شخصية الخطيب والباتوس أو الأهواء والإحساسات واللوغوس أو الحجج. وباعتباري منطقياً، فإنني أصب اهتمامي على اللوغوس خاصة، أي على بنية الحجج. ففي القديم، لم يكن الخطيب خطيباً وحسب بل كان زعيماً سياسياً أيضاً ورجل قانون ماهر. لا تنس أن الخطابة هي مجرد وسيلة لإحداث أمر ما عقلي إن قليلاً أم كثيراً، وملحوظ إن قليلاً أم كثيراً. وبالنسبة إلي فقد كان مهماً جداً أن أبين أن الفلسفة باعتبارها عمل العقل، تلجأ في نفس الآن إلى مستمع ما، وهو ما أطلقت عليه المستمع الكوني. إنه الحجاج العقلي بالنصيحة المطلقة لكانط: عليك أن تستعمل الحجج التي يستطيع أن يفهمها الجميع. بهذه الطريقة تستطيع أن تتحدث عن حجاج فلسفي. بهذا المعنى لا يتم الحديث عن الخطيب وحسب، بل عن رجل القانون وعن المؤرخ وعن الفيلسوف الذين يستعملون كلهم هذه المناهج الحجاجية الخطابية<sup>(1)</sup>.

وأقصد ثانياً إلى العبارة أو البعد الجمالي الذي تواضع البلاغيون على تسميته المحسنات. إن بيرلمان ينفر نفوراً شديداً من اعتبار الخطاب بريئاً من الأغراض الحجاجية. فمن بين المباحث الخمسة، أي الإيجاد والترتيب والعبارة والإلقاء والتذكر، لم يحتفظ إلا بالأول. وهذا المبحث الأول الذي يتألف في صيغته الأرسطية من عناصر حجاجية متفرعة إلى حجج اللوغوس والإيتوس والبائوس، لم يحتفظ منه إلا بالأول، أي اللوغوس. وهذا بدوره لم يطهره من كل العوامل المحسناتية فقط، وهي تنتمي إلى اللوغوس، بل طهره أيضاً من ترتيب الخطاب وهو أيضاً لوغوس. بل إن الإيتوس والبائوس قد ربطتهما أرسطو في خطابه باللوغوس اللذين استغنى عنهما بيرلمان. بهذا ندرك ذلك العدد الكبير من الأعضاء التي تم يترها من الخطابة الأرسطية. حدث كل ذلك حرصاً على انسجام النظرية. ولقد حصل فلك؛ ولكن بأي ثمن؟ لقد حصل ذلك بتضحيات جسيمة. لقد ضحى بيرلمان على مذبح

(1) Una conversacion con Chaim Perelman, in Anales de derecho. Universidad de Murcia, Numero 10, 1987, 1990, p.261.

الانسجام النظري الخطابي بالإيثوس والبائوس والطبائع بحسب الأعمار والجاه والمواضع الخاصة والأسلوب أو العبارة وبناء الخطبة.

ولهذا فحينما أثار بيرلمان موضوع ترتيب الخطاب وهو جزء هام من الكتاب الثالث في خطابة أرسطو قال: 'ففي حدود ما تكون غاية الخطاب هي إقناع مستمع ما، فإن ترتيب الحجج سيتم تطويعه لهذه الغاية: ينبغي لكل حجة أن تستعمل في اللحظة التي ستحدث فيها تأثيراً أقوى. وبما أن ما يقنع مستمعاً ما لا يقنع مستمعاً آخر، فإن جهد التطويع متغير باستمرار<sup>(1)</sup>.

بطبيعة الحال، مقابل هذا، قام بيرلمان بتطعيم اللوغوس وتوسيعه بمواد مجلوبة من مباحث الطوييقا. كما جلب عناصر من المنطق الصوري الذي اعتمده في الحجج التي وضع لها تسمية الحجج شبه المنطقية. وبهذا جاز لبيرلمان أن يدعو هذه الخطابة الجدل الجديدة أو الخطابة الجديدة *nouvelle rhétorique* وهي تفرع عنوان هذا مصنف الحجاج. وكذلك وصف بول ريكور في الاستعارة الحية<sup>(2)</sup> بلاغة جماعة لبيج بالبلاغة الجديدة في فصل خاص بهذه البلاغة المحسناتية. نحن شهود ههنا على بلاغتين جديدتين، أو بالأحرى خطابة جديدة (مدرسة بيرلمان - بروكسيل) وبلاغة جديدة (مدرسة جماعة مؤ. لبيج). الأولى تعيد صياغة الكتاب الأول ذي الطابع الحجاجي من خطابة أرسطو والثانية تعيد صياغة الكتاب الثالث منه.

### الخطابة الجديدة، تحديد عام

وبعد هذا، فما هو تعريف الخطابة عند بيرلمان؟ إنها دراسة الأدوات الخطابية التي تسمح ببعث أو زيادة استمالة الأذهان إلى الدعاوى التي تقدم للموافقة عليها<sup>(3)</sup>. هذا التحديد ينبغي إكماله بملاحظات أربعة تسمح بتدقيق محتواه.

(1) L'empire rhétorique, ed. Vrin pp. 163-164.

(2) بول ريكور، الاستعارة الحية، ترجمة محمد الولي، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص. 36

(3) Traité de l'argumentation, p. 5

- 1- الخطابة تلتبس الإقناع بواسطة الخطاب. وحينما نعلم إلى التجربة لكسب الاستمالة إلى إثبات ما، لا يتعلق الأمر حيثثذ بالخطابة.
- 2- البرهنة وعلاقات المنطق الصوري والخطابة. الدليل البرهاني يتعدى الإقناع persuasion إلى إحداث الاقتناع conviction، شريطة التسليم بصدق المقدمات التي ينطلق منها<sup>(1)</sup>.
- 3- الاستمالة إلى دعوى ما، يمكن أن تكون متفاوتة الشدة، وهذا أمر أساسي خاصة، حينما يتعلق الأمر بالقيم لا بالحقائق.
- 4- تميز الخطابة عن المنطق الصوري، بل وعن العلوم الوضعية، بكونها لا تلتبس بالصدق بقدر التماسها الاستمالة. إن الحقائق غير مشخصة، وكوننا نعترف بها، أم لا، لا يغير شيئاً في وضعها. إلا أن الاستمالة هي دوماً استمالة ذهن أو عدة أذهان يُتوجّه إليها، أي المستمع<sup>(2)</sup>. هي هذه أربعة عناصر لتدقيق الخطابة: الخطاب والإقناع والتفاوت والاستمالة.

### دور المستمع في النظرية الخطابية

يحتل المستمع في النظرية الخطابية البرلمانية والأرسطية أهم موقع. ففي النهاية الإقناع هو إقناع شخص ما، ولا وجود لإقناع بدون هذا الطرف. كما أن عدم تخصيص هذا الطرف بالعناية اللازمة سيجعل العملية الحجاجية تنهاوى. بل إن الحقائق والأشياء نفسها في الحجاج لا تكتسب الأهمية إلا باعتراف المستمع. وقد لا يلتفت المتلقي إلى الحقائق العلمية ولا يخلصها بأي تقدير، ويتشبث بدل ذلك بمتمخيلات يجعلها فوق الحقائق. في هذه الحالة على الخطيب أن يحسب ألف حساب لما يعتقد المخاطب قبل أن يحاول مواجهته بالحقائق التي لا يعترف بها.

(1) Charles Perelman, Logique juridique, nouvelle rhétorique, Editions Dalloz, Paris, 1999, pp. 105-106

(2) Logique juridique, nouvelle rhétorique, pp. 106-107 (بتصرف).

يقول أرسطو: بما أن الكلام يقوم على علاقة مزدوجة...، إحداهما مع المستمعين الذين يفيدهم معنى ما، والأخرى مع الأشياء، التي يسعى المتحدث بصدددها إلى توصيل إقناع ما، فالنتيجة هي أنه في ما يتعلق بالعلاقات مع المستمعين تنشأ الشعرية والخطابة (...) وفي ما يتعلق بعلاقة الكلام بالأشياء، فإن الفيلسوف على وجه الخصوص يحرص على تنفيذ الباطل والبرهنة على ما هو صادق<sup>(1)</sup>.

هذا النص بالغ الأهمية لأنه يقترح تصنيفاً لأجناس الخطاب بالاعتماد على الأطراف التي يقوم عليها التواصل. هناك إذن، الكلام والمستمعون والأشياء. إن الخطابة والشعر ينشآن عن علاقة الكلام بالمستمعين؛ وفي ما يعود إلى علاقة الكلام بالأشياء، فمن اختصاص الفيلسوف تنفيذ الكلام الباطل والبرهنة على صدقه.

إلا أن المستمعين هم بدورهم أنواع. وعلى أساس أنواع المستمعين أقام أرسطو صنفاته لأجناس الخطابة. أجناس الخطابة ثلاثة، وثلاثة هي أنواع السامعين، لأن الخطابة يتألف من ثلاثة عناصر: المتحدث، وموضوع الحديث، وذلك الذي يوجه إليه الخطاب؛ إلا أن الغاية المقصودة تتعلق بهذا الأخير، أي بالسامع. والسامع هو بالضرورة إما متفرج، أو يصدر حكماً؛ وفي هذه الحالة الأخيرة، فإنه يحكم إما على الأحداث الماضية، أو على الأحداث المستقبلية<sup>(2)</sup>.

المستمع هو الفكرة المركزية التي أقام عليها أرسطو صرحه لفن الخطابة. وعليه اعتمد لإقامة أجناس الخطابة. المستمع إما متفرج، كما في الخطابة الاحتفالية، وإما أنه يصدر حكماً على ما مضى كما في الخطابة القضائية، وإما أنه يصدر حكماً على الأحداث المستقبلية كما هو الأمر في الخطابة الاستشارية. يقول بيرلمان وهو يحذو حذو أرسطو:

بما أن الحجاج الخطابي يهدف إلى الاستمالة، فإنه يخضع بشكل أساسي للمستمع الذي يتوجه إليه، إذ إن ما يكون مقبولاً لمستمع ما، لا يكون كذلك بالنسبة إلى مستمع آخر؛

(1) in. Quintin Racionero, in. Aristóteles, Retórica, p.37

(2) Retórica, p.193

وهذا لا يتعلق فقط بمقدمات الاستدلال، ولكنه يتعلق أيضاً بكل حلقة من حلقات هذا الاستدلال، ويتعلق في النهاية بالحكم نفسه على الحجاج في جملته<sup>(1)</sup>.

بما أن الغاية من الحجاج هي إثارة مستمع ما واستمالته نحو الدعاوى المراد تزكيتها، أو زيادة تلك التزكية، وليس استنباط النتائج من بعض المقدمات، فإنها لا تدور أبداً في فراغ. إنها تقتضي تماساً فكرياً بين الخطيب والمستمع: ينبغي لخطاب ما أن يكون مسموعاً ولكتاب ما أن يكون مقروءاً، إذ بدون هذا يغدو تأثيرهما صفرًا<sup>(2)</sup>.

من هو هذا المستمع الذي تستهدفه الخطابة؟ إن المستمع لا يتكون بالضرورة من أولئك الذين يقصد إليهم بالخطاب. خذ مثلاً من الخطب البرلمانية. من هو المخاطب؟ هل هو المعارضة أم الأنصار أم الحكومة أم الشعب؟ نحن نقرأ اليوم هوميرُوس دون أن تكون في نيته أننا سنكون مخاطبيه. ونقرأ للصعاليك دون أن يكون في نيتهم أننا سنكون مخاطبيهم. إن اللعبة معقدة وليس هناك اتفاق بين نية الخطيب ونية المتلقي. فكم مرة أدركنا ظهورنا لمن يتوجه إلينا بالخطاب. وكم مرة اقتحمنا فضاء لكي نسمع خطاباً لا يكون موجهاً إلينا. وحسب بيرلمان، إذا كنا نريد تحديد المستمع بكيفية مفيدة لتطوير نظرية الحجاج ينبغي أن نتصوره باعتباره مجموع أولئك الذين يريد الخطيب أن يؤثر فيهم بحججه<sup>(3)</sup>. والواقع أن هذا التحديد تبسّطي للغاية، إذ ليس الخطيب وحده من يعين مستمعه المقصود دائماً. بل كثيراً ما كان المخاطب من يضع نفسه في دائرة المستمع، رغم إرادة الخطيب. على هذا الأساس فإن الخطيب نفسه يتحدد بإرادة المستمع، لا العكس. فلتذكر قصة الراعي الذي لم تيسر له حظوظ اعتلاء مقعد في القسم، كيف أنه كان يقف مختفياً عن أنظار المدرس وراء النافذة لاستفادة من الدروس التي كان يلقيها. ولقد تبين في الأخير أن هذا التلميذ الافتراضي كان أنجب من أولئك الذي يتابعون دروسهم داخل القسم. أليس المستمع من قد يعين نفسه كمستمع؛ ونتيجة ذلك، أليس هذا المستمع الافتراضي من قد يحدد هوية الخطيب.

من هو هذا المجموع من المستمعين؟ إنه بالغ التغير، ويمكن أن يمتد من الخطيب نفسه، كما هو

(1) Rhétoriques, p. 80.

(2) L'empire rhétorique, p.23.

(3) L'empire rhétorique, p.27.



الأمر في التشاور الذاتي حينما يتعلق الأمر باتخاذ قرار في موقف حرج، إلى الإنسانية كلها، على الأقل الأكفاء منها والعقلاء، والذين أصفهم بالمستمع الكوني، مروراً بأنواع غير محدودة من المستمعين المخصوصين.

إن التمييز بين الخطابات المتوجهة إلى بعض الناس والخطابات المتوجهة إلى كل الناس يسمح بالفهم الجيد لما يعارض بين الخطاب الإقناعي *persuasif* والخطاب الاقتناعي *convaincant*. أن الحجج المستعملة في هذه الحالة الأخيرة هي التي حللها أرسطو في الطوبيقا حيث لا يصريح بمفهوم المستمع، إذ يتعلق الأمر باستدلالات جدلية يمكن استخدامها في أية مجادلة، ومع أي مخاطب، وحيث لا مجال لتطويع الخطاب لخصوصيات هذا المستمع أو ذاك<sup>(1)</sup>.

### العناصر المشتركة بين الخطيب والمستمع

أ- هذا التواصل بين الأذهان يتطلب لغة مشتركة تكون مفهومة من الطرفين المتخاطبين. إن هذا لا يطرح مشكلاً بالنسبة للمتخاطبين الذين يمتلكون نفس التكوين ونفس العمل، أو حينما نتواصل بصدد محتويات بعيدة عن التخصص. إلا أنه حينما يتوجه الخطيب إلى شخص غير مختص، وحينما نسعى إلى كسب استمالة المخاطب بشأن أمور تقنية تظهر صعوبة تلاؤم الخطيب مع المستمع.

ب- إلا أن هذه العلاقة بين الأذهان تتخطى هذا، إلى معرفة الدعاوى التي يسلم بها المخاطب ودرجة هذا التسليم لأن هذه هي التي توفر نقطة انطلاق الحجاج. إن ربط الحجاج بمقدمات لا تتمتع إلا بقبول ضعيف، تكون نتائجه كارثية، كما هو شأن تعليق لوحة ثقيلة على مسمار غير مثبت جيداً في الجدار<sup>(2)</sup>. ونتيجة هذا هي أنه بدل الاقتناع بالاستنتاجات التي تنسجم مع المقدمات بفضل توافقها، فإن المخاطب يبادر إلى التخلي عن تلك المقدمات البدئية التي تم الانطلاق منها.

(1) Logique juridique, nouvelle rhétorique, p. 107

(2) Logique juridique, nouvelle rhétorique, p. 109

إذا كان الخطيب يريد أن يكون مؤثراً بخطابه عليه أن يتلاءم مع مستمعه. على أي شيء يقوم هذا التلاؤم الذي هو ضرورة مميزة للحجاج؟ إنه يقوم أساساً على كون الخطيب لا يمكنه أن يتخذ له كمنطلق لاستدلالاته إلا الدعاوى التي تحظى بموافقة المخاطب. وغاية الحجاج هي أن تُحصَّص النتائج بنفس الاستمالة (أو القبول) التي تتمتعُ بها المقدمات. يقول بيرلمان:

إننا نعتقد أنه سيكون مفيداً، لوجهة نظرنا هذه، تجميع هذه الأشياء في فئتين، إحداهما متعلقة بالواقع، الذي ينطوي على الوقائع والحقائق والقرائن أو الافتراضات، وتتعلق الثانية بالمفضل، الذي يشتمل على القيم والمراتب ومواضع المفضل<sup>(1)</sup>.

ج. ففي الوقت الذي تسمي فيه اللغة والحكم المشترك «الوقائع faits» و«الحقائق vérités» عناصرَ موضوعيةَ تفرض نفسها على الجميع، فإن التحليل الذي يقام به انطلاقاً من وجهة نظر حجاجية لا يسمح لنا بتجاهل موقف المستمع إزاءها، وذلك تفادياً للمصادرة على المطلوب<sup>(2)</sup>.

إننا نخص بوضع «واقعة» أو «حقيقة» عنصراً موضوعياً «متفقاً عليه عند عديد من الكائنات المفكرة، ويمكن أن يكون مشتركاً عندها جميعاً»، أي إننا لا نكون في حضرة واقعة، من وجهة نظر حجاجية، إلا عندما نستطيع أن نفترض بصدها اتفاقاً كونياً بعيداً عن أي طعن<sup>(3)</sup>. ومع هذا فإن بيرلمان لم تفته الملاحظة بأنه «قد لا يكون ممكناً ولا مناسباً لقصدنا تقديم تحديد للشيء تحديداً يسمح، في كل زمان ومكان بتصنيف هذا المعطى الملموس أو ذاك باعتباره شيئاً [...] إننا لا نعول على أي معيار يسمح لنا، في كل الظروف وبعيداً عن موقف المستمعين التأكيد أن شيئاً ما هو واقعة»<sup>(4)</sup>. إلا أنه بمجرد ما تغدو واقعة أو حقيقة ما موضع طعن من قبل المستمع فإن الخطيب لا يستطيع أن يعتد بهذه الواقعة أو بهذه الحقيقة.

(1) Traité de l'argumentation, 88  
(2) L'empire rhétorique, ed. Vrin, p.37.  
(3) Traité de l'argumentation, pp. 89-90  
(4) Traité de l'argumentation, p. 89.

يتبين لنا بهذا أن وضع واقعة أو حقيقة ما ليس مؤمناً بدون تحديد، إلا إذا تم التسليم بسلطة ما، أو الوهية ما، تكون أقوالها ومقاماتها معصومة من الطعن. وهي بهذا ضامنة الوقائع والحقائق. إلا أنه في غياب مثل هذه الضمانة المطلقة، أو هذا اليقين، أو هذه الضرورة التي تفرض نفسها على كل كائن عاقل فإن الوقائع والحقائق التي تكون مقبولة من لدن الرأي العام أو رأي المختصين قد تكون موضع طعن<sup>(1)</sup>.

إلى جانب الوقائع والحقائق نعتمد في الكثير على القرائن *présomptions* التي توفر، على الرغم من أنها غير أكيدة مثل تلك، أسساً كافية لدعم اعتقاد معقول. إن القرائن ترتبط عموماً بما يحدث عادة، والذي يعتبر أمراً معقولاً الاعتداد به<sup>(2)</sup>. فما يحدث عادة هو نزاهة القاضي. ولكن هناك، مع ذلك، لائحة طويلة للقضاة المرتشين. شخصياً أدرج القرائن ضمن العلاقات الكنائية، أو هي بالأحرى نوع من العلاقات الكنائية. فبما أن هذه السيدة حامل وهي ترتبط بفلان علاقة الزوجية، فهذا الحمل منه، إن هذا لا يحتاج إلى دليل، ما يحتاج إلى دليل هو إنكار أن يكون هذا الحمل من هذا الزوج. هذا يعني أن القرائن، رغم أنها تقدم دعامة يقوم عليها الاقتناع، أي اقتناع المستمع الكوني، لا تقدم صورة حقيقية عن الواقع. لا يمكن الاطمئنان إلى صدقها. بل قد تكون كاذبة. إن حظوتها عند المستمع الكوني لا يعني امتلاكها لصفة العلمية أو الواقعية. ففي النهاية هذا المستمع الكوني أو الكلبي يحمل تسمية خادعة لأنه يتنوع بتنوع الثقافات والحقب التاريخية والعقائد الإيديولوجية والأفراد. إن وظيفة القرائن هي ملء الفراغ الذي تتركها الوقائع والحقائق. إنها بكيفية ما عناصر معرفية أقل إحدائاً للاقتناع، وهي مع ذلك كافية لإقامة اقتناع معقول<sup>(3)</sup>. ولأن القرائن هي أضعف من الوقائع والحقائق لإحداث الاقتناع فإنها هي التي تفنّد بالوقائع والحقائق وليس العكس.

د- إلى جانب الأحكام التي يعتقد أنها تعبر عن الواقع المعروف أو المفترض، هناك الأحكام المقابلة لها التي تعبر عن استحسان ما وهي التي تستند إلى القيم والمراتب ومواضع

(1) L'empire rhétorique, ed. Vrin, p.38. Traité de l'argumentation, p.

(2) L'empire rhétorique, ed. Vrin, p.38.

(3) Stephen Goltzberg, L'argumentation juridique, ed. Michalon, Paris, 2013, p. 72

التفضيل. يمكننا أن نعتبر كلمة قِيمَة تنطبق، على وجه الخصوص حينما نكون بصدد «انفصال عن حال الحيادية أو التسوية بين الأشياء، وحيث يصبح أحد الشئيين أرفع من شيء آخر أو أحط منه، وحيث يحكم على شيء ما بأنه أرفع، ويجب تبعاً لهذا أن يخص بالتفضيل»<sup>(1)</sup>. وبعبارة أخرى فإننا نرى أن هناك بصدد هذه النقطة فرقاً واضحاً بين الخطاب على الواقع والخطاب على القيم. وفي الحقيقة فإن ما يتعارض مع الصدق لا يمكن إلا أن يكون كاذباً، وما هو صادق أو باطل بالنسبة للبعض ينبغي أن يكون كذلك بالنسبة للجميع: ليس هناك خيار آخر بين الصادق والكاذب. إلا أن ما يتعارض مع قيمة لا يكف عن أن يكون قيمة، حتى وإن كانت الأهمية المخولة لها، والتعلق الذي نخضع لها، يحتمل أن يسمح بالتضحية بها لأجل الاحتفاظ بالأولى. فإذا كنت أطالب بتحقيق العدالة بمعاقبة ناهبي المال العام؛ والعدالة قيمة، فإن هذا لا يمنع المطالبة بتطبيق مبدأ العفو، حفاظاً على السلم الاجتماعي. والعفو قيمة هو أيضاً. العفو والعدل قيمتان تتمتعان بنفس الأهلية وليساً من قبيل تعارض الصدق والكذب. لا شيء يضمن من جهة أخرى أن سلم القيم عند أحدهم سيكون معترفاً به عند آخر. الصداقة والوفاء قيمة، إلا أن الحقيقة يمكن أن تجد لها نصيراً يدير ظهره للصداقة. الأكثر من هذا أن لا شيء يضمن أن نفس الشخص يظل على امتداد حياته وفيها لنفس القيم: إن دور التربية والتكوين الروحي واحتمالات التحول، تفرض كون المواقف واتخاذ المواقع ومراتب القيم، غير ثابتة<sup>(2)</sup>.

وعلى الرغم من هذه التفاوت والالتباس في شأن القيم ألا توجد قيم كونية موضع اتفاق بين كل الناس، الاتفاق الذي يمكن أن يدفع إلى القول بأن هذه القيم الكونية هي موضع اتفاق يضاهي الاتفاق بشأن الأحكام المستندة على الأشياء، أي ألا توجد قيم كونية مقبولة من الجميع من قبيل الحقيقي والجيد والجميل والصائب؟ ألا يمكن أن ندعي، دون أن نواجه باعتراض ما، أن هذه القيم تمثل موضوع موافقة المستمع الكلي؟

(1) Louis Lavelle, In. Perelman, L'empire rhétorique, pp.39-40.

(2) Logique juridique, nouvelle rhétorique, p. 109

الواقع أن هذه القيم تشكل موضوع اتفاق كوني في حدود ما تظل مجردة وغير محدّدة، وبمجرد أن نحاول ضبطها وتطبيقها على حالة ما أو على فعل ملموس، فإن اختلافات واعتراضات جماعات خاصة لا تتأخر في الظهور.

ينبغي في التحليل الحجاجي التمييز بين [...] القيم المجردة مثل الجمال والعدل والحق والقيم الملموسة مثل فرنسا والكنيسة<sup>(1)</sup>.

إن القيمة الملموسة هي تلك التي ترتبط بكائن خاص، بشيء، بمجموعة أو بمؤسسة منظوراً إليها في أحاديثها. إن التشديد على أحادية كائن ما هو في حد ذاته تقدير ورفع له. لا يمكن في الحجاج غض الطرف عن القيم المجردة ولا على القيم الملموسة، إلا أننا نخضع الواحدة للأخرى بحسب الحالات. هكذا فبالنسبة لأرسطو «حب الحقيقة (قيمة مجردة)، يعلو على صداقة أفلاطون (قيمة ملموسة). إن الاستدلالات القائمة على القيم الملموسة خاصة المجتمعات المحافظة. وعلى العكس من ذلك فإن القيم المجردة التي تستخدم أكثر في مجال النقد، قد تتخذ ذريعة للتغيير والعقلية الثورية<sup>(2)</sup>.

هـ- وأخيراً نستطيع أن نميز بهذا الصدد ما كان القدماء، وبالأخص أرسطو، يصفونه بالمواضع المشتركة والمواضع الخاصة. مثال موضعي الكيف والكم: لقد كان الهاتف المحمول في الأيام الخوالي من الممتلكات النفيسة لأن أقلية فقط هي من كانت تملكه، هذا إذا كنا نراهن على موضع الكيف. أما إذا كنا نراهن على موضع الكم فإن شيوع الهاتف اليوم من علامات الخير فاستمتع الأغلبية أفضل من حصر المتعة بين يدي الأقلية. إن المطالبة بتعميم التعليم وجعله في متناول كل الشعب هي من قبيل الالتزام بموضع الكم، في حين أن المطالبة بتكوين نخبة من الباحثين والعلماء هي مطلب الملتزمين بموضع الكيف. إن موضعي الكم والكيف هما الأكثر استعمالاً، إلا أننا نجد إلى جانبها في ثقافتنا اعتماد مواضع الرتبة (هناك تفضيل المتقدم على المتأخر والسبب على النتيجة) ومواضع الوجود (الذي يؤكد أفضلية ما هو موجود على ما هو مجرد إمكان)، ومواضع الجوهر التي تؤكد أفضلية

(1) Traité de l'argumentation, p.103.

(2) L'empire rhétorique, p.42.

الأشخاص الذين يمثلون بشكل جيد جوهر الجنس ومواضع الشخص التي تقتضي سمو ما هو مرتبط بكرامة الإنسان واستقلاليته.

نتوقف أخيراً عند المراتب المزدوجة. مثال ذلك الاستدلالات التي تقوم على فكرة أن الإنسان هو أسمى من الحيوان، وأن الآلهة أسمى من الإنسان. وتبعاً لذلك فإن القيم المنسوبة إلى الآلهة أسمى من تلك المنسوبة إلى الإنسان. كما أن تلك المنسوبة إلى الإنسان أسمى من تلك المنسوبة إلى الحيوان، ومن المنسوبة إلى الأشياء.

إلى جانب المراتب الملموسة، هناك مراتب تتعلق بالقيم المجردة من قبيل العادل أفضل من المفيد. إن مبدأ مجرداً من قبيل أفضلية السبب على الأثر، يمكن أن يقيم تراتبية بين عدد كبير من الوقائع الملموسة. إن أفضلية الأحد على المتعدد يضمن كل أونطولوجيا أفلوطين. ففي حين تقيم المراتب المتنافرة علاقة القيم المتباينة (احترام الحقيقة أفضل من صداقة أفلاطون) فإن المراتب المتجانسة هي تلك التي تقوم على الكم: إن كمية أكبر من قيمة موجبة ستحظى بالترتيب، وبالتناظر مع ذلك فإن كمية أصغر من قيمة سالبة ستحظى بالترتيب (إن المأ أضعف، وأذى أقل، ينبغي أن يكون مفضلاً، حينما يقارن مع ألم أو أذى أكبر).

ففي حين أن ما يعارض الواقع والحقيقي أو الصادق، هو بالضرورة مظهر ووهم وخطأ، فإن تضارب القيم لا يؤدي بالضرورة إلى الخط من قيمة القيمة المهدورة: على العكس، فلأننا نشبث بما نضحى به، تكون التضحية أليمة: إن قيمة أقل تظل قيمة، رغم كل شيء.

هذه مقدمة أو مدخل إلى خطابة شايم بيرلمان. كنت أتمنى لو تتاح لنا الفرصة لاستعراض أهم مفاضل البلاغة الحجاجية لشايم بيرلمان. إلا أن سياقنا ليس سياق الوقوف عند التفاصيل، بل هو سياق رسم الخطاطات العامة. لو كان السياق يسمح بالوقوف عند التفاصيل لاستعرضنا موقف بيرلمان من بلاغة المحسنات، ولفصلنا القول في التقنيات الحجاجية: الحجج شبه المنطقية والحجج القائمة على بنية الواقع والحجج المبينة للواقع، ووضع الحجج وتفاعلها في الخطاب مع مثيلاتها ومع الخطيب ومع المستمع، ولفصل المفاهيم، ولبناء النص الخطابي. لو تيسر الوقت لتوقفنا وقفة خاصة عند مواطن القصور في الخطابة البرلمانية، خاصة نظرتة إلى الأدب والشعر وما يعتبر عجينة الأصلي، أي ما يدعى المحسنات أو المقومات الأدبية، بالأحرى. وعند سوابق خطابته في التراثين اليوناني واللاتيني، بل وحتى عند معاصرين من قبيل ثيودور فييهفيك، ومن جاؤوا بعده أمثال كريستيان بلانتان، وعند المحاولات العربية لعرض أفكاره أو تطبيقها. إن المجال رحب جدا. وأعتقد أن الأفراد مهما كانت كفاءتهم لا تعوض العمل الجماعي الذي هو وحده الذي يمكن في أوقات وجيزة أن يحاصر الموضوع ويحقق التراكم الذي يمهد لإنجاز قفزات معرفية تتخطى المرواحة في عين المكان.

## المراجع

- أرسطوطاليس، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، منشورات دار الثقافة، بيروت، 1973.
- أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986.
- بُول رِيكُور، الاستعارة الحية، ترجمة محمد الولي، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2015.
- Aristóteles, **La poética de Aristóteles**, tr. Valentin Garcia Yebra, ed. Gredos, Madrid, 1999.
- Aristóteles , **Moral, a Nicomaco**, éd. Espasa Calpe, Madrid.
- Aristote, **Rhétorique**, ed Livre de Poche, 1991.
- Hugh Blair, **Leçons de rhétorique et de belles lettres**, éd. Hachette, 2012.
- Cicéron, **De L'Orateur**, Livre Deuxième , éd. Les Belles Lettres, Paris, 1966.
- Ciceron, **El orador**, Alianza editorial, Madrid, 2001.
- Fontanier, Pierre, **Les figures du discours**, Flammarion, Paris, 1968.
- Stephen Goltzberg, **L'argumentation juridique**, ed. Michalon, Paris, 2013.
- Groupe μ, **Rhétorique générale**, ed. Larousse, Paris, 1970.
- Heinrich Lausberg, **Elementos de Retórica literaria**, ed. Gredos, Madrid, 1975.
- Heinrich Lausberg, **Manual de Retórica literaria**, ed. Gredos, Madrid, 1968,
- Longin, **Traité du sublime**, éd. Librairie générale de France, Livre de Poche, 1995,
- Luz Gloria Cárdenas Mejía, **Aristóteles, Retórica, pasiones y persuasión**, ediciones San Pablo, Bogota Colombia, 2011, p. 49.



Michel Meyer (dir.), **Histoitr de la rhétorique, des grecs à nos jours**, ed. Livre de Poche, Paris, 1999.

Ch. Perelman, “L’idéal de rationalité et la règle de justice”, in, **Ethique et droit**, ed. ULB, Bruxelles, 1960.

Una conversacion con Chaim Perelman, in **Anales de derecho**. Universidad de Murcia, Numero 10, 1987, 1990.

Perelman, Chaim, et olbrecht\_tyteca, **Traité de l’argumentation , La nouvelle rhétorique**, Editions de l’université de Bruxelles, 1976.

Charles Perelman, **Logique juridique, nouvelle rhétorique**, Editions Dalloz, Paris, 1999.

# دور المستمع في البلاغة الجديدة لشايم بيرلمان

تأليف: ريتشارد لونغ<sup>(1)</sup>

ترجمة

عبد الرحمن رحيموني وعزيز العماري<sup>(2)</sup>

لقد حدد شايم بيرلمان بشراكة مع لوسي أولبرخت نيتيكا الحجاج باعتباره التقنيات الخطابية التي تسعفنا في إثارة انخراط الذهن تجاه الأطروحات المقدمة إليه بغرض الموافقة عليها، أو تزيد من درجة هذا الانخراط<sup>(3)</sup>. وهو تحديد يماثل تحديد كينيث بورك الذي اعتبر أن البلاغة "هي استعمال اللغة بوصفها وسيلة رمزية لتعزيز التعاون بين الكائنات التي تستجيب لهذه الرموز بطبيعتها"<sup>(4)</sup>. ويعتقد بيرلمان أن الخطيب يصنع لسانيا حضورا ينخرط فيه المستمع. والخطيب يصنع، أولا، هذا الحضور بناء على تحليل كيف يفكر المستمع ويتصرف، ثم يعيد المعلومة المترتبة عن ذلك أسلوبيا. والمستمع ينخرط في هذا الحضور لأن الحضور يملأ وعي المستمع بجوهر كينونته. وهكذا، يدخل الخطيب في شراكة مع المستمع، ونتيجة للتقنيات الحجاجية المترتبة على ذلك، يتصرفان بالاشتراك<sup>(5)</sup>.

(1) Richard long. The role of audience in chaim Perelman's new rhetoric. Journal of Advanced Composition. volume n° 4 (1983). Copyright 1987.

(2) باحثان في التداوليات واللسانيات الوظيفية واللسانيات التطبيقية، جامعة المولى اسماعيل مكناس، جامعة ابن زهر أكادير، المملكة المغربية، البريد الإلكتروني:

[rahmouneadnane@gmail.com](mailto:rahmouneadnane@gmail.com)/// [aziz.elamari1@gmail.com](mailto:aziz.elamari1@gmail.com)

(3) LChaim Perelman and L.Olbrechts-Tyteca, The New Rhetoric: ATreatise on Argumentation, trans. John Wilkinson and Purcell Weaver (NotrDame: University of Notre Dame Press, 1969), p. 4. Hereinafter referred to as NR.

(4) Kenneth Burke, A Rhetoric of Motives (NY: Prentice-Hall, 1950), p.43.

(5) يصنف بيرلمان البلاغة الجديدة إلى مصنفين: مصنف عن الآليات الخطابية للحصول على انخراط الأذهان ومصنف عن التقنيات اللغوية المستعملة في الإقناع والحمل على الإقناع (NR. P: 8). وبويرة هذه المقالة البنية البلاغية لانخراط الأذهان.

يمثل أنموذج بيرلمان في البلاغة الجديدة أنموذج الجشطالت، حيث تصف نظريته في الحجاج السيرورات البلاغية كتشكيل للظاهرة النفسية المتضمنة جميعها في النسق اللساني. غير أن تأثير التشكيل يعد ظاهرة معقدة تسبق التحليل المنطقي (بل تتحاشاه). ويحقق الحجاج المعنى فحسب، بالمعنى الفنومولوجي، حين يتمثل المستمع في وعي المتكلم ويتمثل المتكلم في وعي المستمع. وبدلاً من تحليل المستمع فحسب، يصبح الخطيب مستمعا. واندماج بعضهما في بعض يصيرهما ذاتا، فتنتج الوحدة في الفعل. وبهذا الصدد، تتجاوز البلاغة الجديدة لبيرلمان تحليل المستمع.

وبخصوص البلاغة الجديدة، يكتب هنري جونستون أن هذا الكتاب لا يمكن تجاوزه على مدى مائة سنة ضافية. ولكن، عندما يحصل ذلك، قد يُتجاوز عن طريق كتاب آخر يخص التقنيات، وليس عن طريق كتاب يُعنى بالمستمعين، أو كتاب قد لا يمثل قمة في التأليف<sup>(1)</sup>. ولا ينبغي التفكير في ما قيل أنه مبالغة أو غلو. فلقد تبين من النتائج القيمة لبيرلمان بموجب اقتناعه أن تطور الحجاج عموما يعد وظيفة للمستمع حيث يُجبر المتكلم على تكييف ذاته وفقها<sup>(2)</sup>. ويمكن تصنيف هذا المجموع أصنافا ثلاثة: الذات باعتبارها مستمعا، والمستمع الكوني، والمستمع الخاص. فالذات قد تكون مستمعا في الحالة التي تحتاج فيها نفسها بنفسها (هل أسرح شعري إلى الوراء؟ ألا أخشى من أكل السمك؟). انطلاقا من هذا المثال، يتعين على الشخص أن يوزع ذاته إلى مخاطبين يشترك معهما في الحجاج (NR , P:14). ويميز بيرلمان بين المستمع الكوني والمستمع الخاص بناء على مفهومي الإقناع والحمل على الإقناع اللذين أقرهما كانط في كتابه نقد العقل الخالص. فالإقناع، تبعا لكانط، يعد حكما مؤسسا على الموضوعية، وبالتالي يعد صالحا لكل كائن عاقل، أما الحمل على الإقناع فيُعد، من جهة ثانية، حكما مؤسسا على خصيصة الذاتية. وقد عمل بيرلمان على

(1) Henry W. Johnstone, Jr, Validity and Rhetoric in Philosophical Argument: An Outlook in Transition (University Park, P A: The Dialogue Press of Man & World, 1978), p. 102.

(2) Chaim Perelman, "The Social Contexts of Argumentation", trans. John Petrie, in Perelman's The Idea of Justice and the Problem of Argument (NY: Humanities Press, 1963), p. 155. Hereinafter referred to as "SC."

توسيع مفهومه كائناً عن طريق وصل الحمل على الإقناع بالفعل وربط الإقناع بالذكاء. وبالنظر إلى المستمع في نظرية الحجاج لبرلمان، يعد المستمع الخاص موضوعاً للحمل على الإقناع في حين يتمسك المستمع الكوني باقتناعاته (NR, P:28-29). واختصاراً، فإن الموضوعية والإقناع والذكاء هي خصيصات للمستمع الكوني، بينما الطبع والحمل على الإقناع والفعل هي خصيصات للمستمع الخاص<sup>(1)</sup>.

وبالرغم مما قيل، فإن برلمان يتكرر للمستمع الكوني حتى ضمن تعريفه. إذ في موضع يحدده كمجموع كلي لكائن قادر على الإدراك (SC, P; 155). ويحدده في سياق آخر تجسيدا للعقل التقليدي<sup>(2)</sup>. ويكتب في سياق ثالث 'إن الخطاب الفلسفي المنظور إليه من الزاوية التقليدية كدعوة للعقل يمكن أن يخصص بمدى تكيفه مع مستمع مثالي. وهذا المستمع بالنسبة لأفلاطون وبالنسبة للعقل الإعتقادي، يمكن أن يجسد من قبل اللاهوت، الذي يمكن أن أسميه بالمستمع الكوني'<sup>(3)</sup>. وفي سياق آخر، يكتب برلمان عن المستمع الكوني بأنه غير موجود إطلاقاً، بل هو، بالأحرى، بناء ذهني لخطيب يحيل عليه، غير أن البناء الذهني يتغير من فرد إلى فرد، ومن عصر إلى عصر<sup>(4)</sup>. وعليه، فالمستمع الكوني معطى غير واقعي، وبناء ذهني، وإبداع لخطيب يحيل عليه، لذلك سوف ينخرط المستمع الخاص مع الوضع المقدم من جانب الخطيب؛ أي أن الخطيب يبدع بناء للمستمع الكوني قصد إقناع مستمع محدد. وفي

(1) يدعي برلمان أن المتكلم يسعى إلى حل المستمع على الإقناع للانخراط مع الأفكار التي توافق البداية، أي تلك الأطروحات التي تتخلص من البرهان الصوري الثاوي في البرهان الديكارتي، ويحدد مجال الحجاج في الصادق والمعقول والمحتمل (NR, P:1).

(2) Chaim Perelman, "Justice and Reason," trans. Susan Rubin, in Perelman's Justice, Law, and Argument: Essays on Moral and Legal Reasoning (Dordrecht, Holland: D. Reidel Publishing Company, 1980), p. 72.

(3) Chaim Perelman, "Philosophy, Rhetoric, Commonplaces," trans. William Kluback, in Perelman's The New Rhetoric and the Humanities: Essays on Rhetoric and Its Applications (Dordrecht, Holland: D. Reidel Publishing Company, 1979), p. 58.

(4) Chaim Perelman, "Act and Person in Argument," trans. John Petrie, in Perelman's The Idea of Justice and the Problem of Argument (NY: Humanities Press, 1963), p. 169.

حقل الخيال، كما يقول ولتر أونغ، يتجاوز المستمع الكوني حدود المستمع الخاص ضمن امتياز فلسفي ممنوح للعقل (NR, P:30).

يمثل المستمع الخاص الاهتمام الأولي في نظرية الحجاج لبرلمان. ويقدم المستمع الكوني معطيات البداة ذاتها المستخدمة من لدن الخطيب، بينما يحدد المستمع الخاص كل الخصائص الأخرى لوضع محدد من الحجاج والتي تسعف الخطيب في حمل المستمع على الإقناع، إنه كذلك مثلما يقنع المستمع ذاته. ولقد استبعد برلمان تصور واين بووث الذي يقول أن الخطيب يقدر على تحديد المستمع<sup>(1)</sup>. ويؤكد مرارا أن الحجاج وظيفة للمستمع المخاطب. فقد كتب في سياق أول أن التصور يصدق بالنظر إلى مستمع يروم تطوير الحجاج كله<sup>(2)</sup>. وذكر في سياق آخر، أن الحجاج كله يتقيد بمقدماته حيث نظوره الكلي في الواقع تجاه أي حجاج مقبول قد يعترف بكونه حقيقيا، وصادقا، ومتملا. (SC, P: 156). ويثبت في سياق ثالث أن المسألة الجوهرية في الحجاج ليست معرفة ما يراه المتكلم حقيقيا أو هاما بل في إدراك رؤية من يخاطبهم (NR, P: 23-24). والحجة التي تخفق في التنامي (أو التجلي) حسب طبيعة مستمعيها توظف مبدأ المصادرة على المطلوب، أي مغالطة بلاغية يوظف من خلالها الخطاب مقدمات غير مقبولة من لدن المستمع (NR, P: 112-113). وبالتالي، فإن البلاغة الجديدة لبرلمان ليست جديدة كما يوحي المصطلح لأنها تستخدم خصائص البلاغة الأرسطية. كما أن وسائل إقناع المستمع - أي تلك المعطيات المحصلة من إبداعية الخطيب والموجهة للمستمع الكوني - تتضمن الحجة المنطقية (تؤكد العديد من الدراسات المعاصرة أن القياس المضمّر لأرسطو يُعنى بالحجة الموظفة للمقدمات المستنبطة من معتقدات المستمع<sup>(3)</sup>). بهذا المعنى، يظل اللغوس الأرسطي، أيضا، موضوعا للمستمع. إن وسائل إقناع المستمع - أي تلك السمات الخاصة بالمستمع والتي تطور الخطاب - تشكل حجة مثيرة

(1) wayne C. Booth, "The Rhetorical Stance," in The Writing Teacher's Sourcebook, ed. Gary Tate and Edward P. J. Corbett (NY: Oxford University Press, 1981), pp. 108-116.

(2) Chaim Perelman, "The New Rhetoric," trans. John Petrie, in Perelman's The Idea of Justice and the Problem of Argument (NY: Humanities Press, 1963), p. 41.

(3) Consult "Aristotle's Enthymeme Revisted" by Lloyd Bitzer, QJS, 45(1959), 399-408

للسففة. وبالمقابل، يماثل اكتشاف الخطيب معطيات الإقناع والحمل على الإقناع الإبداع الأرسطي، بالنظر إلى تطور الخطاب. غير أن الخطيب الذي يتكيف مع خصائص المستمع يمتلك روح الإعجاب (الإتوس): وأي مستمع يمتلك اعتقادات مماثلة لا يستطيع سوى مساعدة فرد يماثله ضمن مجموعته، معبرا تماما عن أفكار كامنة. وبالتالي يغدو الخطيب جزءا من المستمع.

إن الخطيب الذي يحاول كسب انخراط ذهن المستمع، والذي يخاطب عددا من المستمعين بأسلوب عفوي، ملزم بتجميع الأذهان في الذهن الفردي قصد القيام بذلك، حيث يستطيع الخطيب الإشارة إلى حقائق البدهة ذاتها الكامنة لدى المستمع الكوني<sup>(1)</sup>، ويستطيع أيضا تحقيق الاختزال بآليات المناشدة الانتقائية للقيم والآراء المتضمنة؛ أي إن الخطيب يستطيع دعوة المظهر الكلي للمستمع الخاص<sup>(2)</sup>. ويؤكد بيرلمان مفهوما يتمثل في أن الخطيب الذي يتصور المستمع قصد مخاطبته بطريقة عفوية يكتشف آليات إقناعه: أي إن معرفة المستمع لا يمكن أن تتصور معزولة عن معرفة كيفية التأثير فيه (NR, P:23). غير أنه يكتب تعدد معرفة المستمع أيضا معرفة كيف ينبغي جعلها شرطا يتعذر دونه إنجاز أي لحظة معطاة في الخطاب (NR, P: 23). وعليه، فالخطيب ينوع الحجة تبعا لطبيعة تعدد المستمعين المخاطبين. وتوجه الحجة، بداية، إلى مستمع معين ثم إلى ثان وفي النهاية إلى ثالث. وبعبارة، ينوع الخطيب الحجة من مناسبة إلى أخرى كلما تنوع المستمعون. وبالرغم من ذلك، يجب أن تكيف الحجة باستمرار مع أي مستمع، وبذلك، يمكن أن يحقق انخراطه. ويضحي الانخراط،

(1) بما أن الحقيقة هي البدهة ذاتها، فإن أنواع المستمع مضطرة إلى قبولها كما لو أنها تمتلك صدق المطلق والصدق المستمر (الزماني) في استقلال عما هو محلي أو تاريخي (NR. P:32). يكتب بيرلمان إن المستمعين غير مستقلين بعضهم عن بعض، ذلك أن المستمعين الخاصين قادرين على تصديق تصور المستمع الكوني الذي يخصهم. وبضيق، من جهة أخرى، إن المستمع الكوني غير محدد لأنه يعمل على إثارة تمرير حكم خاص يصور المستمع الكوني الذي يناسب المستمع الخاص ومن ثمة، معالجة الطريقة التي يتألف منها (أنواع المستمع) ... (P:35, NR). لذا، فإن المستمع الكوني لا يصبح كيانا محققا بشكل ملموس، بل مجرد إبداع بلاغي يستعمله الخطيب لاكتشاف ما تتيحه معطيات البدهة ذاتها التي ستجعل المستمع الخاص ينخرط بالضرورة.

(2) Chaim Perelman, "Rhetoric and Philosophy", trans. H. W. Johnstone, Jr., in Perelman's The New Rhetoric and the Humanities: Essays on Rhetoric and Its Applications (Dordrecht, Holland: D. Reidel Publishing Company, 1979), p. 47.

إذن، تأثيرا تصاعديا يختزل استقلالية الأذهان في الذهن الفردي. وانحراف مستمع ما تجاه الأطروحة يزيد من إمكانية الانحراف من لدن مستمع ثان... وهو ما يسمى بالانضمام (الانتماء) إلى المجموعة. وبالمقابل، فإن رفض مستمع واحد الأطروحة قد يتسبب في رفضها من لدن مستمع آخر (NR, P: 103-104). وهو ما يسمى بالانفصال عن المجموعة.

يؤكد بيرلمان أن الخطيب لا ينبغي له أن يغض الطرف عن نوعية الأذهان المخاطبة (NR, P: 7). ولكي تكون حجته فعالة بالطريقة نفسها، يستلزم أن يتهاى المستمع للاستماع إلى الخطيب<sup>(1)</sup>. والتهيؤ للاستماع من جانب المستمع يحدث حينما يصطنع المتكلم الحضور. إن الخطيب حسب بيرلمان يصطنع الحضور باختيار عناصر محددة من آراء المستمع وقناعاته، والتزاماته، والمبالغة، أسلوبيا، في التعبير عنها. في هذا الإطار، يكتب بيرلمان، من بين اهتمامات المتكلم اصطناع الحضور بالجاذبية اللغوية وحدها، لا ما كان ملتبسا في الواقع فحسب، بل ما يعده ذا قيمة في حجته، أو يجعلها ثابتة بغية تطوير قيمة بعض العناصر حيث يمكن للفرد الوعي بها فعليا (NR, P: 117)؛ بعبارة أخرى، يملأ الخطيب المجال الكلي للوعي بهذا الحضور بغية عزله، مثلما هو متجسد في الذهنية الكلية للمستمع (NR, P: 118). هكذا يضحي الحضور عند بيرلمان عنصرا نفسيا يراقب كيف يدرك المستمع ويتصور ويتذكر أهداف الخطيب وأفكاره ومسارات الحجة<sup>(2)</sup>.

يدرج بيرلمان عددا من التقنيات الأسلوبية التي يستعملها الخطيب لجعل الأشياء حاضرة في ذهن المستمع، ويزداد الحضور حينما يمنح الخطيب عرضا موسعا يخص معنى عناصر معلومة، إذ التكرار، وشفاعة التقديرات المتناقضة، والاعتبار المفصل لمراحل متعاقبة تهم ظاهرة ما تعمل على تقوية الحضور. والخطيب الذي يوظف صيغة الأمر يدعو المستمع إلى مشاركة الفعل (NR, P: 144-145). كما أن الزمن الحاضر، وتوظيف ضمير الم-فرد بصيغة الجمع، والاستعمال البرهاني غير المؤلف يؤدي إلى الإحساس بالحضور (NR, P: 144-145).

(1) Chaim Perelman, "The New Rhetoric: A Theory of Practical Reasoning," trans. E. Griffen-Collart and O. Bird, in *The Great Ideas Today*, 1970 (Chicago: Encyclopaedia Britannica, 1970), p. 286. Hereinafter referred to as TPR

(2) Louise A. Karon, "Presence in The New Rhetoric," *Philosophy and Rhetoric*, 9 (1976), 96.

160-162: P). بل إن توسيع صور الخطاب، أبعد من ذلك، يجعل خطاب الخطيب حاضرا في ذهن المستمع. كما أن صور الخطاب المعتمدة على التكرار - التعقيد، والجناس، والإضافة - تزيد في الحضور حيث تقترح تمايزات تساعد على تقسيم الأفعال المركبة إلى أحداث متتالية، كما أن الترادف، والتغير المتكرر يصوغ مفهوما وحيدا وبالتالي يقترح توجيهها متناميا. ويسعف تحليل الخطاب كلاما غير مباشر بمعية فرد وحيد، أو بمعية جماعة ملتزمة في المحاوره بحفظ الحضور. إضافة إلى ذلك، تقوم المحاكاة الصوتية لبعث تشويش فعلي (174-176: NR, P). وعليه، يصبح من البديهي أن الحضور، في نظرية الحجاج لبرلمان، يحقق عن طريق التقنيات اللغوية "حيث يطمح المتكلم انطلاقا من عناصر لغوية معلومة إلى إثارة الانتباه، وتركيزه قصد تنشيط وعي المستمع إلى أبعد حد ممكن (142: NR, P).

ويحيل الحضور لا إلى الإسقاطات اللسانية للخطيب المتعلقة بعناصر هامة في مجال وعي المستمع فحسب، بل إلى الخطاطات الحجاجية التي يستعملها الخطيب لإقناع المستمع. ورغم ذلك، يفترض أن توسع جلها في دراسة مقبلة بفعل شموليتها. ما يمكن رصده استنادا إلى برلمان أن الوصل والفصل يخصصان الخطاطات كلها، إذ عبر الوصل، يدمج الخطيب عناصر معزولة حيث يمكن للمستمع أن يدرك وحدة فيما بينهما. وتقسم الخطاطات المتصلة إلى خطاطات واقعية أو شبه منطقية. وتقدم الخطاطات شبه المنطقية العناصر مجتمعة حتى تظهر لاتباع سيرورة المنطق الصوري، بينما تظهر الخطاطات الواقعية العناصر مجتمعة لأنها تتجلى لتطابق طبيعة الشيء الواقعي الذي تمثله، وقد يجزأ الواقعي إلى خصوصيات وقياسات. وعن طريق الفصل يجزئ الخطيب الكل إلى عناصر ذاتية حيث يعدها فكر المستمع قابلة للتغيير. وعليه، تروم خطاطات الفصل إعادة صياغة المفاهيم المستنبطة من لدن المستمع (190-192: NR, P). ويؤكد برلمان أن الخطيب كلما وضع خطاطات للحضور، فإن المستمع يستجيب إلى الخطاب كما لو كان غاية الفكر. وبذلك، يميل المستمع إلى التحايج وإبراز قدرته نحو الخطاب لتبني موقف خاص، وإذكاء مصداقية يتعين أن ترتبط بالخطاب (189: NR, P).



يقر بيرلمان، في هذا الإطار، بوجود لغة مشتركة ضمن قواعد تفسر أسلوب الدخول في المحاورة، وكيف يرغب المستمع في الاستماع للنظر في وجهة نظر الخطيب (NR, P: 14-18). وعلى هذا النحو، قد توجد تبريرات تفسر كيف يرفض المستمع الانخراط في الحضور المصطنع من لدن الخطيب، وقد يقبل المستمع مقدمات الخطيب الذي يعلل استحسانها، ويحتمل أن يفكر المستمع في أن المقدمات المعبر عنها لامقبولة، أو يعتقد بأن طريقة الخطيب تضع مسبقا مقدمات غير مقبولة. غير أن التطابق والاختيار وتوجيه المقدمات المقبولة للمستمع تسعف الخطيب في إبداع حضور ينخرط فيه المستمع (NR, PP:65-66). وقد يستعمل الخطيب تصنيفا موسعا لأغراض التطابق قصد تأمين وتقوية انخراط المستمع في الحضور، ويمكن للمتكلم توظيف الحقائق والافتراضات وإثباتها باستدعاء المستمع الكوني. وقد يستخدم الخطيب افتراضات المستمع القبلية أو قيمه، وتلك الأغراض الملموسة أو المجردة التي تهيم المستمع ليتبع منحى معيناً دون غيره، وقد يشير، تبعاً لذلك، إلى هرميات تفسر كيف يختار المستمع منحى دون آخر. وقصد إثبات قيم وهرميات معلومة، يستخدم الخطيب الموضع المفضل لتبريرها (TPR, P: 289-290).

وإذا عمل الخطيب على تصوير الخطاب في علاقته بالمستمعين فحسب، فإنه يروم أيضاً تقبل علامات صريحة أو ضمنية عن انخراط المستمع. لكن بما أن الخطيب يعد شخصا يمارس التخاطب (أو الكتابة)، فإنه يحدد الرموز المستقبلية من لدن المستمع، وطالما استهل خطابه بالالتزام أو الوعد أو القسم، فإنه يقتضي مستمعا (NR, P: 106). وللمتكلم قدرة على استثمار وضع مقيد يعتمد الجمود، يكون بناء على موقف متبنى سلفاً، يحتمل أن يستمر في المستقبل، سواء بدافع اتساق منبثق من العادة أو الطبع (NR, P: 106). وبعبارة، يبين الجمود أنّ الأشياء سوف تظل دون تغيير. بينما الخطيب الذي يحتاج من منطلقات قبلية، يقدم تمثيلات غير متناسقة؛ أي أن الوجود القبلي للمنطلقات يحمل معلومات عبر الزمن، في حين يفسر الجمود التدفق المستمر، ومن ثمة يستطيع الخطيب، في النهاية، إلزام المستمع (أو المعارض) بالسيرورة الجدلية. ويسعف التفاعل - بين السؤال والجواب - الخطيب في بناء

مقاصد الخطاب التي ينخرط ضمنها المستمع. ويمكنه التفاعل، أيضا، من تحقيق مقاصد الخطاب التي تقتضي دعما ضافيا قبل تأمين الانخراط (NR, PP: 106-110).

عندما ينخرط الخطيب والمستمع بسبب إبداع الخطيب حضورا يوجه المستمع (الذي يدمج ضمن التقنيات الحجاجية)، فإن هذا الانخراط يدفع المستمع إلى الفعل وفق الطريقة التي يرغب فيها الخطيب. ذلك أن الخطيب الذي يحصل موافقة المستمع المتعلقة بكيفية تأثير القيمة والوجود والمثال على فعل خاص يقود المستمع أيضا إلى الفعل. يعد هذا التصور افتراضا تقليديا للبلاغة: التي تعتقد أن (س) سوف يفعل بطريقة يقينية (إذ من البين أن الاعتقاد وفق المبادئ الاعتقادية، لا يقود دوما إلى الفعل). في هذا الصدد، يكتب بيرلمان إن البلاغة الجديدة، شأنها شأن البلاغة القديمة، تسعى إلى الإقناع أو الحمل على الإقناع لكسب انخراط قد يكون نظريا نقطة بداية لها، وقد يكون، في النهاية، انخراطا متمظهرا عبر التصرف أثناء الفعل، وقد يكون انخراطا تطبيقيا، وتحريضا على فعل آني، أو التزاما بالفعل (TPR, P: 282). وهكذا، فإن البلاغة الجديدة عند بيرلمان تعد نظرية في الحجاج تثير فعلا عقليا أو فيزيائيا من جانب المستمع.

يرى بيرلمان أن الخطيب والمستمع حينما يتصوران إمكانية العمل سوية فهما يشتركان. فالجموعة - تبعا للانخراط والحضور - تعد مجموعة مرتبطة بإحكام بالاستعمال اللغوي المباشر للخطيب. والخطاب الذي يوازي، أسلوبيا، النسق اللساني لمستمع خاص، يحقق التشارك مع المستمع مقارنة بمن يُخفق في القيام بذلك. وعليه، فإن الصورة التي يطمح من خلالها المتكلم إلى بناء الحضور، والصورة التي تثبت ضمان الانخراط، يمكن تنظيمها. وبذلك، فهي توظف خصيصات السياق الثقافي للمستمع، أي أن كل بناء اجتماعي له أدواته الفريدة للتعبير عن ذاته، أو مجموعته الاجتماعية. إن الجانب الفعال في الحجاج يستخدم بنية اجتماعية محددة للنسق اللساني المستعمل حيث تزول كل الحدود بين الحجة وتواري المستمع (NR, PP: 164-165). يدلل هذا المعطى على أن الحضور يمكن أن يصير الماضي أو المستقبل حاضرا، ويمكن للأسلوب أن يجعل حجة الخطيب أكثر تعبيرا عن المستمع المخاطب.

يرى بيرلمان أيضاً أن القيم التي تعد أهدافاً للتعاقد أو الالتزام... قد تخلق تشاركا بالنظر إلى الآليات الخاصة بالفعل (NR, P: 74). لذا يعمل الخطيب على بناء شعور بشراكة مؤسسة على قيم خاصة ومدركة من لدن المستمع. وتحقيقاً لهذه الغاية، فهو يستخدم كل الإمكانيات المتاحة، حسب البلاغيين، لأغراض المبالغة والتزيين (NR, P: 51). وإذا كان المستمع الكوني يرفض الالتزام ببعض القيم لأنها لا تطابق الواقع بالضرورة، فإن الخطيب قد يدعو أو يثير قيم مستمع خاص، ويحتمل أن يتبنى المستمع اختياراً بديلاً، وتبرير اختياره سيوجه مستمعين آخرين لقبوله وتصديقه (NR, P: 74). وقد يدخل الخطيب في شراكة مع المستمع بالإشارة سواء إلى قي-مه الملموسة أو قيمه المجردة. ويحدد بيرلمان القيمة الملموسة كمفهوم يمكن اعتباره كيانا أو ذاتا متفردة حيث يُربط بغرض ملموس أو مادي. وبفعل هذا الارتباط، والفضائل المجردة ظاهريا، والسلوكات - أي مفاهيم من مثيل الإجبار والوفاء والولاء والتضامن والسلطة - تصبح ملموسة لأنها لا تدرك فحسب إلا في علاقتها بالقيم الملموسة (NR, P: 77). ومن ذلك مثلا، أن الصليب والعلم والوطن أشياء مادية تمثل مشاعر مجردة. كما أن أعضاء جماعة ما تقيم علاقة تربط غرضا ملموسا بقيمته المجردة. والخطيب الذي يعلم أو يدرك بنيات المشاركة لدى مستمع معين والذي يستعملها في خطاب ما، يجعلها مظهرا تشاركيا مع المستمع (NR, P: 332). فعلى سبيل المثال، قد يحيل المتكلم في أمريكا الجنوبية إلى العلم الإتحادي، وقد يحيل متكلم آخر في كنيسة كاثوليكية إلى تمثال مادونا. وعلى هذا الأساس، يحدد بيرلمان القيمة المجردة كمؤسسة معنوية لقيمة ملموسة، كما أن الخطيب ينتقل كرا و فرا بين المجرد والمحسوس قصد إبراز قيم المستمع، مما يدل أنهما يستطيعان الدخول في علاقة تشاركية. وبغية تفسير هذا المفهوم يقول بيرلمان حينما يقول المرء بأن الأفراد متساوون لأنهم خلقوا لله، فهو يبدي اعتماده على قيمة ملموسة لإيجاد قيمة مجردة تتمثل في المساواة... (NR, PP: 77-78).

إنه من الوهم، تبعا لبيرلمان، أن تتصور تلك الشروط.... لأن التشارك يحدث بصورة طبيعية (NR, P: 56). وبالتالي، فهو يدرج قائمة موسعة من التقنيات البلاغية التي قد يستعملها الخطيب في تأسيس الشراكة مع المستمع أولاها تقنية السؤال. يقول بيرلمان إن

الخطيب الذي يوظف السؤال يجب أن يدرك أن المستمع سوف يرد عليه بالإيجاب (البائع المتجول يضحى أمام البيت، والزبون يقول نعم للتو) وإنجازا للفعل، بمنح المستمع موافقته بخصوص أسلوب محدد من الفعل (NR, P: 159). وتوحي بعض الصور البلاغية الأخرى إلى الإرث الثقافي لمستمع معين. كما أن تلميح الخطيب إلى واقعة تاريخية هامة تولد انفعالات مليئة بالذكريات والكبرياء. ويحسن الاقتباس التشارك ما دام غرضه ليس منح سلطة لبيان خاص. كما أن الحكم والأمثال، مثلا، تعكس الثقافة التي هي جزء منها. ويطور الخطيب التشارك أيضا باستعمال صور بلاغية تشغل المستمع بالخطاب. وليس القصد من الفاصلة والسؤال الخطابي تحصيل المعلومات فحسب، بل في تشغيل السامع. وقد يلجأ الخطيب، بالمثل، إلى التواصل الخطابي حيث يتفاعل المستمع مع الخطاب. وقد يستخدم ضمير المفرد، وصورة ينتقل من خلالها الخطيب مثلا من (أنا) أو (هو) إلى (أنت). وقد ينتقل بالطريقة نفسها من (أنا) إلى (هو) ثم إلى (نحن). وبذلك يميز المستمع عن الخطيب (-NR, PP: 177). وبالرجوع إلى الطرق المؤسسة للشراكة (أو تقويتها) يقول بيرلمان إن أي تقنية تشجع شراكة المتكلم مع مستمعه ستقلص فجوة التعارض بينهما؛ أي تعارضا يكون مؤذيا حينما يكون هدف المتكلم هو الإقناع" (NR, P: 321).

إن الحجاج عند بيرلمان يتطلب لأدقة الأصناف المنطقية المحددة التي تطابق أطروحة الخطيب، بل يتطلب، بالأحرى، "متغيرات الخطيب عن طريق التعبير عن الفكر" الذي يحصل انخراط ذهن المستمع (NR, P: 163). ولما كانت البلاغة الجديدة لبيرلمان تهدف إلى اتصال الأذهان، فإن الجزء المستخدم من قبل المستمع يصبح بالأساس جزءا هاما. وطالما أن هدف الحجاج هو الحمل على الإقناع عن طريق الانخراط، فإن بيرلمان يقول إن أي خطاب يحمل على الإقناع يجب أن يكون مؤسسا على اعتقادات مقبولة من قبل المستمع ضمن هذا الإقناع حيث يمكن لبقية الخطاب أن تؤسس عليه بصورة مؤمنة (TPR, P: 286). وعليه، يمكن القول، إنه من الواجب على الخطيب، بداية، إبداء حضور ينخرط فيه المستمع، ثم يقدم، بعد ذلك، النقط المثيرة للجدل. والخطيب الذي يتجاهل اعتقادات المستمع، ويرتكب، بناء على ذلك، وفي الوقت ذاته، مبدأ المصادرة على المطلوب يطلب السؤال خاصة حيث

يفترض وجود انخراط لم يحصل أصلاً (TPR, P: 286). إن بيرلمان لم يربط اعتقادات المستمع مع حقائق البداهة ذاتها. وإذا بدا الأمر، في الواقع، غير منطقي، فإن اعتقادات مستمع خاص قد تتعارض مع حقيقة البداهة ذاتها. في هذه الحالة، يتعين على الخطيب أن يحيل على اعتقادات المستمع أكثر من إحالته على حقيقة البداهة ذاتها بغية تأمين انخراط المستمع. يكتب بيرلمان وأولبريخت تيتيكا "لا شيء يقيدنا من حصر دراستنا في درجة خاصة من الانخراط المخصص بالبداهة ذاتها، كما أنه لا شيء يسمح لنا بالنظر في بداهة درجة الانخراط التي تناسب الأطروحة مع احتمالياتها، وتمييز البداهة ذاتها عن الحقيقة. (NR, P: 4). وبعبارة، إن الخطيب يحيل إلى ما يحمل المستمع نحو ما هو حقيقي "لا إلى الواقعي بالضرورة، وبالنتيجة، ينخرط المستمع مع الخطيب عندما يعبر الخطيب عن أفكار المستمع (NR, P: 36). ومن ثمة فهما يجتمعان ويتوحدان، وبعد ذلك يفعلان.

## قائمة المصطلحات المستعملة

Rhetorical invention	إبداع بلاغي
Abstract values	قيم مجردة
Abstract emotions	انفعالات مجردة
premises	مقدمات منطقية
Agreement	مطابقة
Analogies	قياسات-تشبيهات
Anaphora	جناس
Argumentative schemes	خطاطات حجاجية
Argumentative techniques	تقنيات حجاجية
Association	وصل
Audience analysis	تحليل المستمع
Audience mind	ذهن المستمع
Audience-oriented presence	حضور مستمع موجه
beliefs	اعتقادات
Authority	سلطة
Commitment	تعهد-التزام
Common language	لغة مشتركة
Communion	شراكة
Concrete values	قيم ملموسة
Conduplicatio	تكرار
Context	سياق
Conversation	محاورة

Conviction	إقناع-اقتناع
Credibility	مصداقية
Cultural atmosphere	فضاء ثقافي
Cultural heritage	إرث ثقافي
Demonstrative	برهاني
Dialectic	جدل
Dissociative	فصل
Divinity	لاهوتية
Effet	أثر
Enthymeme	قياس مضمّر
Ethos	إيتوس
Existence	وجود
Explicit	صريح
Expressive	تعبيري
Figures of speech	صور الخطاب
Formal logic	منطق صوري
Function	وظيفة
Hierarchies	هرميات-سلميات
Ideal audience	مستمع مثالي
Imaginary	متخيل
Imperative	صيغة الأمر
Implicit	ضمني
Incarnation	تجسيد
Indirect speech	خطاب غير مباشر

Inertia	جمود
Influence	تأثير
Intellegence	ذكاء
Interlocutors	مخاطبون
Linguistic system	نسق لساني
Literary devices	أدوات بيانية-أجهزة أدبية
Loci of the preferable	موضع مفضل
Logical analysis	تحليل منطقي
Logical argument	حجة منطقية
Logos	لوغوس
Loyalty	ولاء
Maxims	حكَم
Mental construct	بناء ذهني
Mind adherence	انخراط الذهن
New rhetoric	بلاغة جديدة
Obligation	إجبار
Onomatopie	محاكاة صوتية
Oratorical communication	تواصل خطابي
Oratorical question	سؤال خطابي
Overstatement	مبالغة
Paradigm	أنموذج
Particular audience	مستمع خاص
Pathetic argument	حجة مثيرة للشفقة
Persuasion	حمل على الإقناع



Persuasive discourse	خطاب إقناعي
Petitio principii	مصادرة على المطلوب
Phenomenological sense	إحساس ظاهراتي
Philosophic privilege	امتياز فلسفي
Psychological element	عنصر نفسي
Psychological phenomena	ظاهرة نفسية
Purposes	أغراض
Quality of mind	نوعية الأذهان
Quasi-logical schemes	خطاطات شبه منطقية
Rational	عاقل
Religious mind	ذهن اعتقادي
Religious principles	مبادئ اعتقادية-دينية
Rhetor moves	نقلات الخطيب
Rhetorical fallacy	مغالطة بلاغية
Rhetorical processes	سيرورة بلاغية
Secure adherence	تأمين الانخراط
Selective appeal	مناشدة انتقائية-استدعاء انتقائي
Self-evident truth	حقيقة البدهة ذاتها
Single person//sermodnatio	ضمير مفرد
Singular mind	ذهن فردي
Specific logical modalities	موجهات منطقية خاصة
Sporadic	مشتت
Stylistic techniques	تقنيات أسلوبية
Symbolic	رمزي

Synergic phenomenon	ظاهرة معقدة
Theory of argumentation	نظرية الحجاج
Thesis	أطروحة
Traditional assumptions of rhetoric	افتراضات بلاغية تقليدية
Unacceptabele	لامقبول
Union	وحدة
Universal aspect	مظهر كوني
Universal audience	مستمع كوني
Unreal	غير واقعي
Valid	صدق - صحة
Verbal magic	جاذبية لغوية
Verbal technique	تقنية لغوية



# الحجاج: البنية والتنميط

## مقاربة جدلية تداولية

ربيعة العربي<sup>(\*)</sup>

### ملخص

يُندرج المقال في إطار التداوليات المعيارية وتحديدًا في إطار ما يعرف بالجدلية التداولية التي يتزعمها فان إمرن وغروتندورست. انطلقت هذه النظرية في مقاربتها للحجاج من تبني برنامج بحث عام يجمع ما بين البعد التواصلية والبعد المعيارية النقدي. يكمن جوهر هذه النظرية في ربط الحجاج بحل الخلاف في الرأي على أسس معقولة. من هنا تكون الاستراتيجية المؤسسة للحجاج هي إجراء نقاش عقلاني وفق أسس معيارية مضبوطة، وذلك بغاية إقناع الطرف المعارض. لتحقيق هذه الاستراتيجية العامة انبنت هذه النظرية على مجموعة من الأسس منطلقها تعيين الخلاف في الرأي وتحديد المسلمات الضمنية وعرض الخطاطات الحجاجية وتحليل البنية الحجاجية ومنتهاها الكشف عن المغالطات وتقويم الحجاج. لتقريب هذا التصور ارتأينا أن نقف في هذا المقال على ثلاثة محاور أساسية هي: مفهوم الحجاج والبنية الحجاجية ونمطية الحجاج.

### مقدمة

انطلقت النظرية الجدلية التداولية من جامعة أمستردام في السبعينات، بريادة فان إمرن Van Eemeren و غروتندورست Grootendorst وقد خضعت لتطورات متتالية على مدى أربعة عقود. اهتمت النظرية الجدلية التداولية بمقاربة الحجاج من منظور يعتمد على بعدين أساسيين:

(\*) أستاذة التعليم العالي، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب - تخصص لسانيات.

□ البعد التواصلية: يقوم بالأساس على نظرية الأفعال الكلامية لأوستين Austin (1962) وسورل Searle (1969-1979) ونظرية غرايس Grice حول الحوار وتحليل الخطاب.

□ البعد النقدي: يقوم بالأساس على العقلانية النقدية والمقاربات الجدلية الصورية لبارت Barth وكراب Krabbe .

شكل هذان البعدان الأساس النظري الذي انطلق منه فان إمرن وغروتندورست لدراسة الحجاج في أبعاده المرتبطة بالإنتاج والتحليل والتقويم. انطلاقاً من هذا التصور تأسس برنامج البحث العام لهذه النظرية على الجمع بين الوصف التجريبي والمعارية النقدية من جهة والجمع بين المنظور البلاغي والمنظور الجدلي من جهة أخرى. يدرج فان إمرن وغروتندورست (2004: 17) النظرية الجدلية التداولية في إطار التداوليات المعيارية normative pragmatics، من هنا يلحان على ضرورة استحضار البعد المعيارية النقدي<sup>(1)</sup> على اعتبار أن المعيارية النقدية ضرورية لتقديم مقارنة كافية للحجاج.

انطلاقاً من هذا التصور العام، قدم فان إمرن و غروتندورست (1984) الأسس النظرية والفلسفية التي تعتمد هذه النظرية في مقاربتها للحجاج. إن تحديد الإطار النظري العام لمقاربة الحجاج لا يمكن أن يتم إلا بربطه بالمغالطة، لذلك نجد أن إمرن وغروتندورست في كتابهما المعنون بـ: "Argumentation, communication, and fallacies. A pragma-dialectical perspective الصادر سنة 1992 قد خصصا حيزاً هاماً لمقاربة المغالطات، كما أصدر فان إمرن مع غروتندورست وسالي جاكسون Sally Jackson وسكوت جاكوبز Scott Jacobs سنة 1993 كتاباً بعنوان "Reconstructing Argumentative Discourse" وفي كتاب "Systematic Theory of A Argumentation" الذي أصدره فان إمرن مع غروتندورست سنة 2004 نجد نظرة عامة عن كيف تطور تنظيرهما للحجاج خلال التسعينات، بعده توالى الإصدارات مع

(1) تتجلى المعيارية النقدية التي تبنتها النظرية الجدلية التداولية في مقاربتها للخطاب الحجاجي بالاستناد إلى مدونة سلوك تتضمن قواعد معيارية ينبغي للمحاجين الالتزام بها من أجل حل الخلاف في الرأي على أسس معقولة.

منظرين آخرين حيث أصدر فان إمرن مع بيتر هتלוستر Peter Houtlosser وفرنسيسكا سنوك هنكمنز Francisca Snoeck Henkemans سنة (2007) كتاب 'Argumentative Indicators in Discourse' وأصدر مع بارت غارسن Bart Garssen وبيرت موفيلز Bert Meuffels سنة 2009 كتاب 'Judgments of Reasonableness'

كل هذه الأعمال وغيرها أدت إلى إغناء النظرية التي تطورت بشكل ملحوظ حينما أدرج إمرن و بيتر هاوتلوستر Peter Houtlosser المناورة الإستراتيجية<sup>(1)</sup>. بعد وفاة هتلوستر بستتين قدم إمرن (2010) الإطار النظري الموسع في كتاب يحمل عنوان Strategic Maneuvering in Argumentative Discourse<sup>(2)</sup>. شكل هذا الكتاب مرجعا أساسيا للدراسات التي تبنت هذه النظرية وحاولت تطبيقها في مجالات مختلفة، سواء ما تعلق منها بالمجال التواصلية أو القانوني أو الطبي أو السياسي أو غير ذلك.

نخصص هذا المقال لتقريب تصور النظرية الجدلية التداولية وذلك بالتركيز على الإشكالات التالية:

- ☐ مفهوم الحجاج في النظرية الجدلية التداولية.
- ☐ البنية الحجاجية.
- ☐ نمطية الحجاج.

---

(1) أدرجت المناورة الاستراتيجية لتفسير كيف يسعى المحاججون، في الخطاب الحجاجي، إلى الجمع بين رغبتهم في التأثير ومحاظلتهم على المعقولة (الجدلية) وذلك في كل نقلة حجاجية يقومون بها.

(2) فان إمرن وآخرون (2014: 518)

## 1- مفهوم الحجاج في النظرية العجاجية:

في تقديمنا لهذه النظرية سنقف على مفهوم أساسي وظفته هذه النظرية وهو مفهوم الحجاج.

### 1-1: التعريف اللغوي

إن مرتكز النظرية الجدلية التداولية هو ربط الحجاج بمحل الخلاف في الرأي على أسس معقولة، فالحجاج فعل كلامي يهدف إلى إقناع الطرف المعارض بقبول الموقف من القضية. يقول فان إمرن وآخرون (2002: ix) "يتم تحليل الحجاج باعتباره جزءاً من مناقشة صريحة أو ضمنية (في حالة المونولوج) بين طرفين لهما موقفين مختلفين من القضية نفسها. يسعى حجاج كل طرف إلى حل الخلاف عن طريق إقناع الطرف الآخر بمقبولية موقف معين".

وفق هذا التصور العام سعت النظرية التداولية الجدلية في بلورة تصورها حول الحجاج إلى الانطلاق من معناه المعجمي العادي، وذلك بربطه بلغة الاستعمال العادية. يعتبر فان إمرن وآخرون (2014:3) أن هذا المنطلق يُمكن من خلق أساس مناسب لتقديم تحديد دقيق للحجاج، ومن ثمة تناول مختلف الإشكالات التي هي محط نقاش بين مختلف المنظورات والمقاربات التي تهتم بالتنظير للحجاج.

يعقد فان إمرن وآخرون (2014) مقارنة بين المعنى المعجمي لكلمة حجاج في اللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوروبية. أول ما يلاحظه هو وجود اختلافات واضحة، وهذه الاختلافات لها انعكاسات على تصور الحجاج، لذلك لا يمكن إغفالها، كما لا يمكن اعتبارها سمات فردية idiosyncratic. هذه الاختلافات هي كالتالي:

□ الاختلاف الأول: تنظر اللغة الإنجليزية إلى معنى الحجاج باعتباره إجراء، أما اللغات الأوروبية الأخرى فهي تنظر إليه باعتباره إجراء ونتاجاً في الآن ذاته، (مثلاً اللغة الألمانية). إن هذا التوليف بين الإجراء والإنتاج محدد للتصور الذي تتبناه النظرية العجاجية.

□ الاختلاف الثاني: تختلف اللغات الأوروبية الأخرى عن اللغة الإنجليزية في كونها تربط كلمة الحجاج بالجهد الذي يبذله المحاجج للدفاع عن وجهة نظر محددة وإقناع الطرف الآخر بها. إن الحجاج في هذه اللغات نشاط ذهني يحيل على المعقولة والتصرف المتزن. هذا يعني أنه لا علاقة له بالمخاصمة أو المشاكسة والمماحكة أو المساومة أو أي نشاط كلامي له حولة سلبية. يمكن أن نستشف هذا المعطى من الكلمة الألمانية argumentatie، فهذه الكلمة تدل على المجهود المتأني لحل الخلاف في الرأي، والوسيلة في ذلك هي إقناع الآخر بشكل متعقل. من هنا يكون اللجوء إلى الحجاج دعوة إلى تحكيم العقل عوض الأهواء والميول والمشاعر. إنه توجيه دعوة إلى الجمهور من أجل التعقل، سواء أكان هذا الجمهور يضم فردا واحدا أو أكثر.

□ الاختلاف الثالث: على خلاف اللغة الإنجليزية، يحيل الحجاج في اللغات الأخرى على التوليف بين مجموعة من القضايا للدفاع عن وجهة النظر بدون إدماج وجهة النظر هاته. فاللغات الأخرى إذن تفصل بين الحجاج ووجهة النظر التي يتم الدفاع عنها. يعتبر فان إمرون وغروتندورست (1984:18) أن هذا الفصل يسهل تحليل التعالق القائم بينهما وتقويته<sup>(1)</sup>.

## 2-1: التعريف الاصطلاحي

ربط بيرلمان وتتيكا (1970: 5) الحجاج بفن الإقناع، إذ نظرا إليه بوصفه: تقنيات خطابية تتيح تحفيز الأذهان على الانخراط فيما يعرض عليها من أطروحات أو تقوية هذا الانخراط الملاحظ من خلال هذا التعريف أن مرتكز الحجاج عند بيرلمان وتتيكا (1970)، هو التقنيات الخطابية التي يفعلها المتكلم لإقناع المخاطب بالرأي المدافع عنه، وهي تقنيات لا يمكن تفعيلها إلا عبر إجراء الحوار. إن هذا التفعيل يجعلنا نعتبر أن الحجاج يقوم على الأركان الثلاثة التالية:

(1) هذا الفصل نمجده أيضا عند بروطون و عند بيرلمان وتتيكا وغيرهم من المنظرين للحجاج.



□ الحجاج تواصل: إن الحجاج يرتبط بموقف تواصلِي يطرح فيه رأي محدد وتقدم فيه حجج للدفاع عن هذا الرأي.

□ الحجاج إقناع غير قسري، على اعتبار أنه يقوم على الحوار مع الطرف الآخر بشكل تفاعلي.

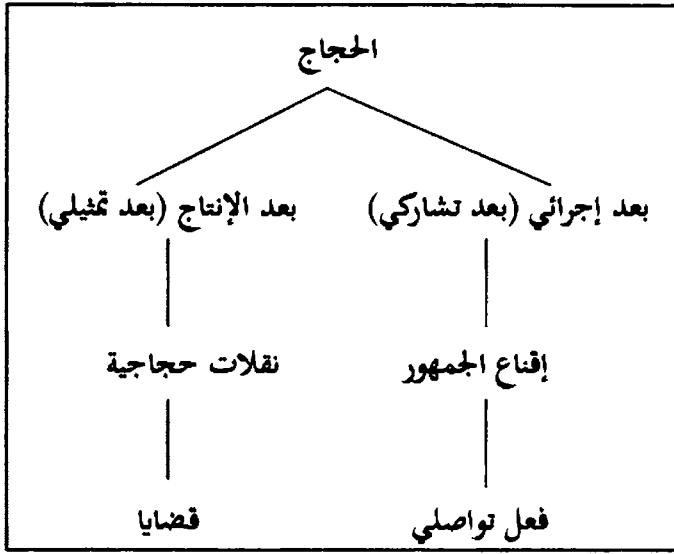
□ الحجاج معناه البرهان على اعتبار أن الحجاج يقوم على تقديم الحجج التي يكون المتوخي منها هو تحقيق فعل الإقناع.

إن فعل الحجاج إذن متلازم مع ثلاثة أفعال أساسية: فعل التواصل وفعل الإقناع وفعل البرهنة. وهو تلازم قاد فان إمرن وغروتندورست (2004:12) إلى بناء الأساس التصوري للنظرية التداولية الجدلية بالانطلاق من اعتبار الحجاج وحدة بنيوية وفعلًا تواصلية مركبة يجمع ما بين البعد الكلامي والاجتماعي والعقلي. حيث أكدا على أن: الحجاج نشاط كلامي يتم باستعمال اللغة، وهو نشاط اجتماعي موجه عادة إلى الناس الآخرين، وهو نشاط عقلي<sup>(1)</sup>، يركز عموماً على اعتبارات فكرية.

تلتحم هذه الأبعاد الثلاثة لتشكيل توليف وظيفي للنقلات التواصلية. إن الخاصية التواصلية للنقلات الحجاجية تميز الحجاج باعتباره ظاهرة تفاعلية بالمعنى الواسع الذي تقدمه تداوليات الخطاب. بذلك يكون الحجاج فعلاً تواصلياً ذا بعد وظيفي، وهذه الخاصية تعد محدة لمعمارية الفعل الحجاجي.

اعتبرت النظرية الجدلية التداولية أن الحجاج يقوم على التوليف بين مجموعة من القضايا بغرض الإقناع، وذلك باستحضار بعدين أساسيين: بعد الإجراء وبعد الإنتاج. هذا ما يمكن أن نرصده في البيان الحجاجي الذي نقترح صوغه كالتالي:

(1) التضخيم لنا.



الشكل 1 البيان الحجاجي

نستخلص من هذا البيان الحجاجي أن الحجاج فعل مركب يتأسس من مجموعة من النقلات الحجاجية التي يبينها المحاجج بشكل متعقل ويكون مسئولاً عنها. إن الغاية من الفعل الحجاجي هي الإقناع بقبول وجهة النظر المدافع عنها أو تنفيذها في جدلية تجمع بين المحاجج المناصر للرأي والمحاجج الآخر المناوئ له. فالحجاج إذن تقنية تؤسس لقبول الرأي الآخر أو لرفضه أي بعبارة أخرى تؤسس للإقناع بالرأي أو الاقتناع بالرأي المعارض وهو في الآن نفسه جزء من الحوار مع المخاطب. يقول فان إمرن وغروتندورست (2004:11):

يحمل مصطلح حجاج في الآن ذاته على سيرورة الحجاج (أو عملية الحجاج) (إنني على وشك إكمال حجاجي) وعلى متوجه (هذا الحجاج ليس صحيحاً). الجدير بالذكر أن فان إمرن وآخرين (2014: 5) يعتبرون أن النقلات التواصلية المشكلة للحجاج تتجاوز البعد الكلامي لتستحضر أيضاً البعد غير الكلامي، إذ: بالرغم من أن هذه النقلات التواصلية هي دائماً كلامية، فيمكن أن تكون في مجملها أو في جزء منها غير كلامية، مثلاً مرئية. من هنا يجمع هذا التعريف للحجاج الذي ساقه فان إمرن وآخرون (2014) بين التقنيات الخطابية والتقنيات غير الخطابية.

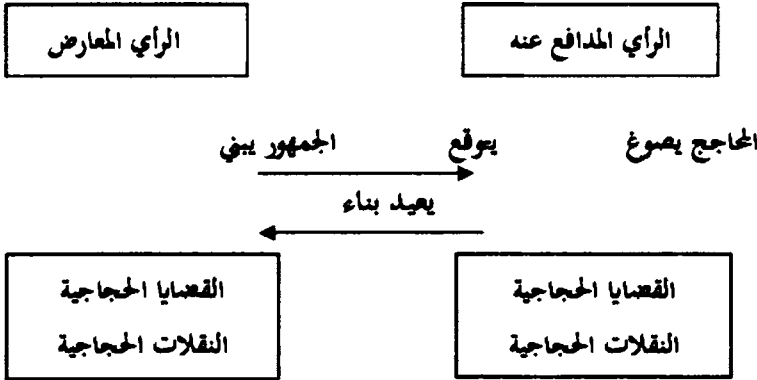
نسجل بهذا الخصوص ثلاث خلاصات:

- 1- إذا كان أساس الحجاج هو البرهنة، فإن هذه البرهنة تتجاوز البعد اللغوي لتدرج أيضا البعد غير اللغوي. إن البرهنة في بعدها تحيل على أن المنطلق هو الممكن والمحتمل وليس اليقيني وهذا ما يؤطر لفعل الجدل، إذ أننا لا نجادل فيما هو يقيني.
  - 2- إن إستراتيجية الحجاج هي البحث عن حل الخلاف في الرأي على أسس معقولة. تحيل هذه الإستراتيجية على السعي إلى إيجاد التوافق، وذلك عبر إقناع الطرف للطرف الآخر بمقبولية وجهة النظر. يقول إكهارد إكس Ekkehard Eggse: "يفترض كل حجاج مشكلا: أي خلافا حقيقيا أو وهميا حول مسألة محددة. من وجهة نظر تداولية كل حجة تهدف إلى جعل المشارك يقبل الأطروحة. وبشكل عام، كل حجة تهدف إلى تحويل الخلاف إلى توافق"<sup>(1)</sup>.
  - 3- إن عملية الحجاج تُفعل عبر تقديم مجموعة من الحجج التي تؤيد وجهة النظر أو تفندها وهذا يعني أن الحجاج يبني، أو على الأقل، ينبغي أن يبني على أسس معقولة. يقول فان إمرن و غروتندورست (2004:12): "عندما يتقدم شخص بحجاج، فإن هذا الشخص يلجأ ضمنا إلى المعقولة، إنه يفترض ضمنا أن المستمع أو القارئ سيتصرف باعتباره ناقدا معقولا.
- تشير هذه الخلاصات إلى ارتباط الحجاج بالبرهان وارتباط البرهان بالإقناع أو الاقتناع (وخاصة في حالة المونولوج). إن تفعيل البرهان في النظرية الجدلية التداولية يتم انطلاقا من باللجوء إلى مجموعة من القضايا. كل قضية من هذه القضايا توازي نقلة حجاجية. تشكل هذه النقلات الحجاجية بطريقة بنائية تؤسس لإنتاج الفعل الحجاجي وتأويله وكذلك تقويمه، فالمتكلم يبني حجاجه من أجل الوصول إلى الإقناع والسماع يعيد بناء هذا الحجاج ويحكم على سلامته بشكل معقول من أجل الوصول إلى الاقتناع. إن الحجاج منظورا إليه من هذه الزاوية لا يسعى إلى جعل المتكلم يقبل المنظور بشكل قسري، كما هو الحال في الإقناع المبني على المشاعر والانفعال والتعصب، بل يسعى إلى جعله

(1) نقلا عن بوري (2014: 13)

مساهما في بناء الحجاج. من هنا نقترح إدماج بيان نموذج التفاعل الحجاجي في إطار النظرية الجدلية التداولية ونصوغه<sup>(1)</sup> كالآتي:

1- نموذج التفاعل الحجاجي



- يفسر نموذج التفاعل الحجاجي كيف أن الحجاج يجمع بين بعدين أساسيين:
- بعد الإجراء: يتلخص في تقديم الحجج. إن الحجاج فعل تواصلية بامتياز، الفرض منه تحقيق القصد الحجاجي المتمثل في حل الخلاف في الرأي وإقناع الطرف الآخر بالرأي المدافع عنه.
  - بعد الإنتاج: يتلخص في صياغة مجموعة من القضايا. إن الحجاج يمر بجملة من النقلات الحجاجية. تسقط كل نقلة حجاجية في قضية محددة، كما أن كل قضية تؤدي إلى نقلة حجاجية. تتشكل النقلات الحجاجية وفقا للقرارات التي يتخذها المحاجج بخصوص بنية خطابه الحجاجي ككل وبنية كل نقلة حجاجية على حدة، فيكون بذلك الخطاب الحجاجي عبارة عن توليف بين النقلات الحجاجية وتكون النقلات الحجاجية عبارة عن توليف بين القضايا وتجميع لها بشكل تسلسلي لبلوغ القصد الحجاجي.

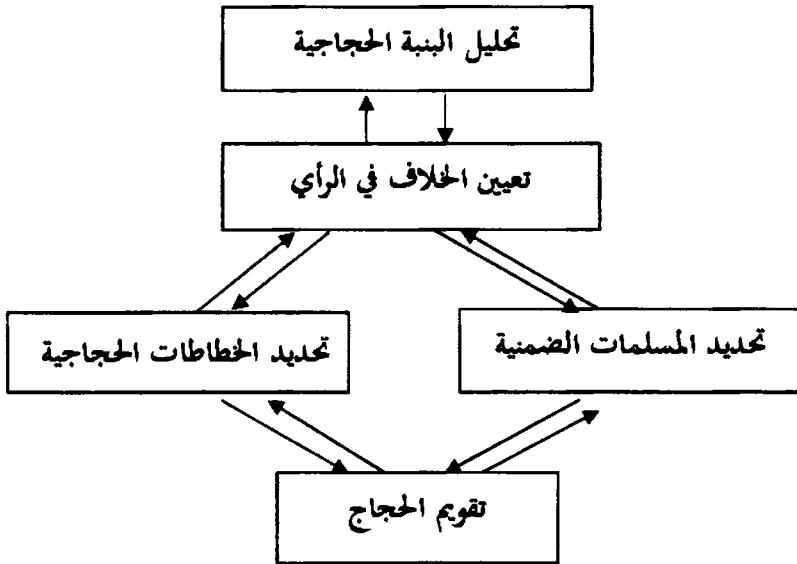
(1) وظفنا في صوغنا لهذا البيان بيان نموذج التفاعل الكلامي الوارد عند ديك (1989)

إن الربط بين هذين البعدين جعل النظرية الجدلية التداولية تعتبر أن الحجاج ليس مجرد نتاج لفعل التعليل بل إنه أيضا إجراء تفاعلي.

إن الهدف الأسمى للحجاج - كما أسلفنا - هو حل الخلاف في الرأي وجعل الرأي المدافع عنه مقبولا لدى الجمهور المتعقل (سواء كان فردا أو أكثر). بذلك يكون لكل نقلة حجاجية وظيفه حجاجية. يقول فان إمرن وآخرون (ix:2002): "يتناول الحجاج تعيين الخلافات في الرأي وتحديد المسلمات الضمنية وعرض الخطاطات الحجاجية وتحليل البنية الحجاجية وتقويم السلامة والكشف عن المغالطات باعتبارها خروقات لقواعد النقاش النقدي".

انطلاقا مما سبق يمكن أن نحدد معمارية الخطاب الحجاجي انطلاقا من البيان الحجاجي الذي نقترح صوغه كالتالي:

## 2- البيان الحجاجي



### 3- البنية الحجاجية

يشير البيان الحجاجي<sup>2</sup> إلى أن الخطاب الحجاجي يتضمن مجموعة من الأفكار تسمى قضايا. تختلف هذه القضايا من حيث أنماطها ودرجة تعقيدها. نقول إن القضية بسيطة إذا كانت تربط بين محمول<sup>(1)</sup> وموضوع أو أكثر، ونقول إن القضية معقدة إذا كانت تربط بين أكثر من محمول وعدد من الموضوعات، كما يتجلى من خلال المثالين 3 و4 على التوالي:

3- ارتفاع الأسعار يعود إلى قلة المواد.

4 - يريد أحمد السفر إلى الخارج ليكتشف العالم وليطور مداركه.

نستنتج مع فان إمرن وآخرين (2002: xii) أن البنية الحجاجية يتم تفعيلها من خلال إنتاج قضايا محددة يتم من خلالها إسناد خاصية أو صفة إلى الأشخاص أو الأشياء محور الحديث. يعتبر فان إمرن وآخرون (2002:5) أن القضية يمكن أن تكون عبارة عن وصف للمعطيات أو الأحداث، كما في:

5 - انخفض سعر الدرهم بعد تعويمه.

يمكن للبنية الحجاجية أن ترد حملاً أو حكماً أو نصيحة، كما يتبين من خلال الأمثلة التالية على التوالي:

6 - تعلم اللغات الأجنبية شرط هام في الحصول على العمل.

7- باريس أجمل مدينة في أوروبا.

8- يجب عليك مراعاة التغذية الصحية.

أما الموقف من القضية التي تتضمنها البنية الحجاجية فيتعدد ما بين موقف إيجابي أو سلبي أو محايد، كما توضح الجمل على التوالي:

9- أعتقد أن فريق الوداد فريق جيد.

10- لا أعتقد أن فريق الوداد فريق جيد.

11- لا أدري هل فريق الوداد فريق جيد أم لا.

---

(1) محمل المحمول على خاصية أو علاقة.

يتجلى من خلال هذه النماذج التمثيلية أن التعبير عن وجهة نظر يتم من خلال توسل قضايا متعددة ومختلفة. تختلف هذه القضايا لا من حيث الموضوع فقط بل من حيث الحيز، كما يتبين من خلال ما يلي:

12- كل الناس طيبون.

13- بعض الناس طيبون.

14- لا أحد موجود.

ومن حيث القوة الإنجازية أيضا، كما في المثالين اللذين نقتبسهما من إمرن وآخرين (2002: 7):

15 -a- I m certain that everyone knows fear.

b- I suspect that everyone knows fear.

#### 4- نمطية الحجاج

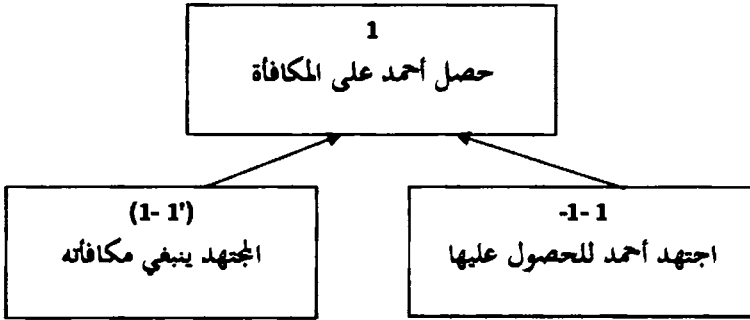
لا يعبر عن وجهة النظر بتوسل قضية واحدة فقط، بل قد يعبر عنها بتوسل مجموعة من القضايا المترابطة. من هنا يقيم فان إمرن وآخرون (2002: 66) تنميطة للبنية الحجاجية وفق عدد الحجج المقدمة وطبيعة العلاقة بين هذه الحجج. إن عدد الحجج التي ينبغي تقديمها يخضع لعدة اعتبارات منها طبيعة الخلاف في الرأي، حيث إنه إذا كان الخلاف في الرأي يتضمن جوانب متعددة، فهذا سيتطلب حججا متعددة (حتى ولو كان الحجاج بسيطا وليس مركبا). من هنا يمكن تنميطة الحجاج وفق ما يلي:

- حجاج بسيط: يكون الحجاج بسيطا إذا توفر على حجة ذات بنية بسيطة. تتألف

الحجة البسيطة من مقدمتين إحداها ضمنية والثانية صريحة. تمثل لذلك بالجملة التالية:

16 - نال أحمد مكافأة.

يمكن التمثيل لهذه الجملة بيانيا تبعا لإمرن(2002: 69) كالتالي:



- حجاج مركب: يتضمن حجتين أو أكثر للدفاع عن وجهة النظر الواحدة.

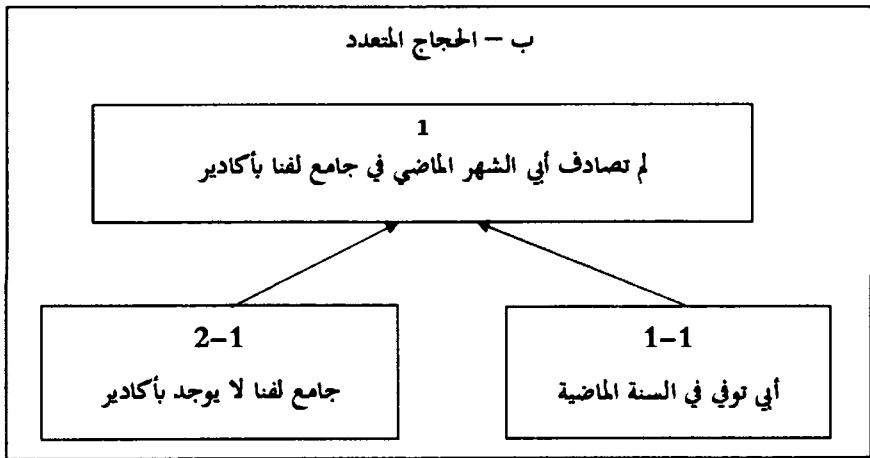
في إطار الحجاج المركب يتم التمييز بين نوعين من الحجاج:

أ - الحجاج المتعدد: يتميز بكون المحاجج يدافع عن المنظور الواحد بأكثر من حجة وكل حجة تبدو كافية لوحدها للدفاع عن وجهة النظر. وبالتالي فهذه الحجج تشكل بدائل. نوضح ذلك بالمثال (17):

17 - لم تصادف أبي الشهر الماضي في جامع لفنا بأكادير، لأن أبي توفي في السنة الماضية ثم أكادير لا يوجد بها جامع لفنا.

يمكن أن نمثل للحجاج المتعدد تبعا لفان إمرن وآخرين(2002: 69) كالتالي:





- الحجاج العطفى: يتميز بكون المحاجج يقدم مجموعة من الحجج المجتمعة والمترابطة للدفاع عن المنظور الواحد. لا تعد هذه الحجج بدائل إذ لا يمكن تعويض حجة بأخرى. يشير فان إمرن وآخرون (2002: 65) إلى أن المكونات المشكلة للحجاج العطفى تشكل كلا متماسكا و بالتالي لا يمكن الفصل بينها، كما يتضح من خلال المثال (18):

18 - علينا الذهاب إلى المطعم لأن الخادمة مريضة، وأنا مرهقة.

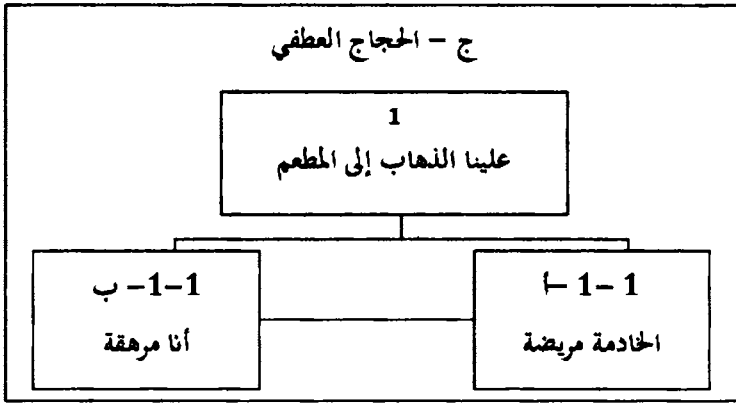
فالمحاجج يسوق حجتين، الحجة الأولى يفترض أنها قد تلاقي اعتراضا (الخادمة مريضة). إذ يفترض أن الطرف الآخر قد يفند هذه الحجة بالاعتراض التالي:

18 - أ - لم لا تطبخين أنت؟.

من هنا يتم تدعيم الحجة الأولى بالحجة الثانية الموضحة في المثال (18ب):

18 - ب - أنا مرهقة.

يمكن أن تمثل للحجاج العاطفي تبعاً لفان إمرون وآخرين (2002: 70) كالتالي:



- الحجاج التبعي: يتميز بكونه يتضمن حججا متعددة، كل حجة تدعم الحجة التي تسبقها كما يتضح من الأمثلة التالية:

19 أ- لا أستطيع مساعدتك هذا الأسبوع لأنه لا وقت لدي.

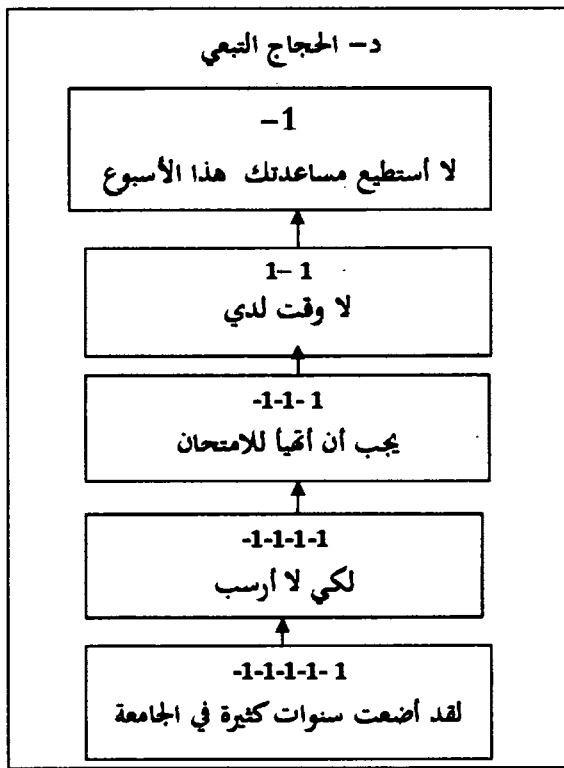
ب - لأنه يجب أن أتهياً للامتحان.

ج - لكي لا أرسب.

د - لقد أضعت سنوات كثيرة في الجامعة.

في الحجاج التبعي يتنبأ المحاجج بأن بعض أجزاء من الحجاج تحتاج لأن يدافع عنها. يصبح هذا الجزء وجهة نظر فرعية substandpoint يتم الدفاع عنها بواسطة حجة فرعية subargumentation، وهذه الحجة الفرعية يمكن أن تتحول إلى وجهة نظر متفرعة عن وجهة نظر الفرعية subsubstandpoint وتحتاج بالتالي للدفاع عنها بواسطة حجة متفرعة عن الحجة الفرعية subsubargumentation، من هنا يعتبر فان إمرون وآخرون (2002: 66) أن الحجاج التبعي عبارة عن سلسلة من التعليقات المتضافرة.

يمكن أن نمثل للحجاج التبعية لفان إمرن وآخرين (2002: 71) كالتالي:



يتم التعبير عن هذا الربط إما بتوسل حروف: كما في المثال (20):

20-أ- سافر زيد إلى السعودية للعمل هناك وأخذ معه زوجته وأولاده.

ب - حصل علي على الدكتوراه، لكن للأسف لم يجد عملاً فقرر السفر إلى الخارج.

يشير فان إمرن وآخرون (2002: 7) إلى أنه يصعب أحياناً التمييز بين الموقف

والقضية، وذلك في الحالات التي يعبر فيها الشخص عن موقف إيجابي كما في المثال

(21):

21- كان الحفل رائعا.

حيث تم الجمع بين القضية والموقف. لكن هذا لا يعني أنه لا يمكن التفكيك بينهما  
بدليل المثال (22):

22 - في رأيي، كان الحفل رائعا.

تحليل القضية البسيطة على الصورة الأولية من الخلاف في الرأي، وهذا ما يعرف في  
النظرية الجدلية التداولية بالخلاف غير المختلط nonmixed. في هذا النمط من الحجاج  
يكون طرف واحد هو الملزم بالدفاع عن رأيه، كما يتجلى من الحوار التالي:

23- أ- أحمد: نزار القباني شاعر متميز.

ب - سعاد: صحيح؟

فأحمد يلزمه هنا الدفاع عن رأيه الخاص بالشاعر نزار القباني.

إلى جانب الخلاف غير المختلط، نجد الخلاف المختلط حيث توجد خلاقات في الرأي  
متعددة. في هذه الحالة يعبر عن الموقف بتوظيف أكثر من قضية واحدة، كما يبين المثال الذي  
نقتبسه من فان إمرون وآخرين (2002: 9)

24-a- Peter: Danish men are neither romantic nor spiritual  
but at least you can depend on them

b- Alice: I m not so sure

خلاصة القول في تحليل الحجاج يلزمنا تفكيك البنية الحجاجية وتحديد النمط  
الحجاجي، لأن ذلك يمكننا من حصر تقنيات الحجاج وإجراءاته الإقناعية من جهة، وتتبع  
المسار الذي يتخذه الجدل من جهة أخرى، والكشف عن مواطن الخلل وبالتالي تحديد  
المغالطات التي يمكن أن يوظفها المشاركون. بعبارة أوضح، نقول إن تحليل الحجاج يمكننا من  
تقويم الاستراتيجية العامة المؤسسة له و التي تتلخص في حل الخلاف على أسس معقولة.

## لائحة المراجع

- **Eemeren. Van F. H & R. Grootendorst (1984):** Speech acts in argumentative discussions. A theoretical model for the analysis of discussions directed towards solving conflicts of opinion. Dordrecht. Cinnaminson. Foris & Berlin de Gruyter).
- **Eemeren. Van F. H & R. Grootendorst (1992a):** Argumentation, communication, and fallacies. A pragma-dialectical perspective. Hillsdale. NJ: Lawrence Erlbaum.
- **Eemeren. Van F. H Grootendorst R ; Jackson S and Jacobs ; S 1993:** Reconstructing Argumentative Discourse. Tuscaloosa. AL. University of Alabama Press.
- **Eemeren. Van. F. H & Grootendorst. R ; Henkemanns. F. H. 2002:** argumentation Analysis ; Evaluation ; Presentation. Lawrence Erlbaum Publishers.
- **Van Eemeren, F. H. & Grootendorst, R. 2004:** A systematic theory of argumentation. The pragma-dialectical approach. Cambridge: Cambridge University Press.
- **Eemeren. Van F. H. Houtlosser P A.F. Henkemanns. S. 2007:** Argumentative Indicators in Discourse: A Pragma-Dialectical Study Springer edition.
- **Eemeren. Van F. H, Bart Garssen, Bert Meuffels 2009:** Fallacies and Judgments of Reasonableness Springer edition.
- **Eemeren. Van F. H, 2010:** Strategic Maneuvering in Argumentative Discourse. John Benjamins Publishing.
- **Eemeren. Van F. H. Garssen B ;Krabbe E. C. W.Henkman.A. F S ; Verheij B, Wagemans J H M 2014:** Handbook of argumentation theory Springer Dordrecht.
- **Pereleman.C.Olbrechts-Tyteca L 1970:** Traite de L' argumentation. La nouvelle rhétorique Editions de l'institut de Sociologie Université de Bruxelles.

- **Beaupré.S. 2009:** L'approche Dialectique Pragmatique dans L'analyse des arguments. Université de Quebec.Montréal
- **Searle. J. R. 1969:** Speech acts. An essay in the philosophy of language. Cambridge: Cambridge. University Press.
- **Searle. J. R. (1979):** Expression and meaning. Studies in the theory of speech acts. Cambridge. Cambridge University Press.



# تطور المقاربة التداولية - الجدلية في الحجاج

تأليف: فرانس فان إمرن وبيتر هوتلوسر<sup>(1)</sup>

شعبة التواصل الخطابي، نظرية الحجاج والبلاغة

جامعة أمستردام - هولندا

ترجمة

عبد الرحمن رحموني وعزيز العماري<sup>(2)</sup>

مقتضب

تصف هذه الورقة تطور التداولية - الجدلية بوصفها نظرية للخطاب الحجاجي. بداية، فُسر تطور النموذج الجدلي - التداولي للنقاش النقدي، بقواعد تعد مستجيبة له قصد تفادي حدوث المغالطات. بعد ذلك، نوقش إدماج التصور البلاغي في إطار جدلي. ضمن هذا المسعى، فُسر مفهوم المناورة الاستراتيجية الذي يسمح بتحليل مصقول ومبرر بصورة أعمق للخطاب الحجاجي وتحديد أفضل للمغالطات. تختتم الورقة بلمحة موجزة عن مشاريع البحث الجاري.

الكلمات المفتاحية: حجاج، تحليل الخطاب، مغالطات، تداولي - جدلي، بلاغة، فعل خطابي، مناورة استراتيجية.

(1) Eemeren, F. H. van and P. Houtlosser: The Development of the Pragmadialectical Approach to Argumentation1 Argumentation 17: 387-403, 2003

(2) باحثان في التداوليات واللسانيات الوظيفية واللسانيات التطبيقية، جامعة المولى إسماعيل مكناس - جامعة ابن زهر أكادير، المملكة المغربية. البريد الإلكتروني:

rahmouneadnane@gmail.com//aziz.elamaril@gmail.com



## 1- تطور النظرية التداولية - الجدلية

يضم المنظور الجدلي - التداولي في الحجاج رؤية جدلية للمعقولية الحجاجية ضمن تصور تداولي للنقلات المقامة في الخطاب الحجاجي. استلهم التصور الجدلي للمعقولية الحجاجية من قبل عقلانيين نقديين وفلاسفة تحليليين آخرين، أمثال كارل بوبر، وهانس ألبرت، وارن نايس، ومناطقة جدليين أمثال شارلز هامبلين، وبول لورينز كمسويس، والس مارغريت بارث وإريك كراب. علما أنه تصور متجل في النموذج المثالي التداولي - الجدلي للنقاش النقدي. في هذا النموذج، تصور الخطاب الحجاجي تبعا للمروم في حل اختلاف في الرأي عن طريق وضع مقبولة وجهات النظر بهذا الشأن للروز بواسطة تطبيق المعايير التي تمثل صدق الإشكال علاوة على الصدق بين-ذاتي<sup>(1)</sup>. ويعد التصور التداولي للنقلات الحجاجية بوصفها أفعالا خطابية في المحادثة الخطابية تصورا متجذرا تحديدا في فلسفة التواصل اللغوي لجون لانجشو أوستين وجون رودجر سورل، ونظرية العقلانية (المنطق) الحوارية لبول هربرت كرايس، ودراسات أخرى للتواصل اللغوي من قبل محلي الخطاب والمحاورة. جلي هذا التصور في تحديد نقلات مقامة في مراحل متعددة لسيرورة الحل كأفعال خطابية نحو تقديم وجهة نظر، وتوقع الشك من وجهة النظر، وتقديم حجج لصالح وجهة نظر، واستنتاج ما يمثل نتيجة نقاش ما<sup>(2)</sup>.

أسس فرانس فان إمرن وروب غروتندورست معا النظرية التداولية - الجدلية أو الحجاج. ومنذ سبعينيات القرن العشرين ومستهل الثمانينيات، قدما، بادئ الأمر، صيغة

(1) وفق ما قد يتوقعه المرء، أسست هذه الورقة على قائمة إصدارات سابقة: متذكر عندما يبدو ذلك مساعدا فحسب. علما أن صيغ أخرى لـ (أجزاء) من هذه الورقة ستشتر في مكان آخر.

(2) قدم مفهوما صدق الإشكال والصدق بين - ذاتي، اللذين أسسا على تصور مطور من قبل كروشاي - ويليام، المقدمين من قبل بارث وكراب (1992). يشير صدق الإشكال إلى تقويم ملاءمة أدوات نظرية معينة لتحقيق الغرض الذي رسمت له، ويشير الصدق بين - ذاتي إلى مقبوليتها لدى مجموعة الأفراد التي افترضت لتطبيقها. وفي فان إمرن وغروتندورست (1988، 1988ب، 1992) منح اعتبار لصدق إشكال المعايير التداولية-الجدلية؛ واستقصي الصدق بين - ذاتي لتلك المعايير تجريبيا ضمن سلسلة رواثر تجريبية، نحو فان إمرن ضمن آخرين (2000). انظر أيضا المحور 4 لهذه الورقة.

لوجهات نظرهما المتناظريّة لـ (1) النزعة الوظيفية، و(2) النزعة الخارجية، و(3) والنزعة الاجتماعية، و(4) النزعة الجدلية. أولاً، لم يكن الحجاج، من منظورهما، مدروساً باعتباره بنية للاشتقاقات المنطقية، والمواقف النفسية أو الاعتقادات المعرفية، بل درس كمركب لأفعال لغوية (وأحياناً كأفعال غير لغوية كذلك) ضمن وظيفة تواصلية خاصة في سياق خطابي. ثانياً، بدلاً من التأمل في حوافز داخلية للأفراد أو ترتيبات تخص افتراض وضع حجاجي معين، دافعا عن التركيز على التعهدات العامة التي يلتزم بها المتحاجون في إنجازهم لأفعال خطابية حجاجية، وعن نتائج تلك التعهدات في السيولة الحجاجية. ثالثاً، أثبتنا أن الأفعال الخطابية الحجاجية لا تنجز ضمن فراغ اجتماعي، بل تنجز بين طرفين أو أكثر من الذين لديهم خلاف، متفاعلين فيما بينهم في محاولة لحل ذلك الخلاف. رابعاً، قصد تجاوز مجرد الحالة الوصفية في دراسة الحجاج، أصراً على تفسير معايير نقدية يتوسل بها المتحاجون العقلانيون ويحتمل بها بعضهم البعض بمسؤولية عند الانخراط في السيرورات المنظمة لحل خلاف متعلق بالاستحقاقات.

قدم فان إمرون وغروتندورست أسس نظريتهما التداولية - الجدلية في الحجاج بداية بالإنجليزية عن الأفعال الخطابية في المناقشات الحجاجية (1984). من المنطقي أن يمثل هذا الكتاب العماد، إلى حد بعيد، كتاباً فلسفياً ونظرياً. فحين نظر إليه بصورة تحليلية، تضمن النقاش النقدي، تبعاً لفان إمرون وغروتندورست، أربع مراحل مختلفة. توجد مرحلة مواجهة يتجلى فيها الاختلاف في الرأي في حد ذاته. وثمة أيضاً مرحلة افتتاح، حيث تؤسس المنطلقات الإجرائية والمادية للنقاش النقدي حول وجهات النظر بهذا الخصوص. وفي مرحلة الحجاج، يُعترض على وجهات النظر ويُدافع عنها، ثم يُنهي النقاش النقدي بمرحلة الاختتام، حيث تُحدد نتائج النقاش. قصد التجاوب مع المعايير الجدلية للمعقولية، تنجز الأفعال الخطابية في المراحل عامة ضمن خطاب يتعين أن يكون موافقاً لقواعد خاصة بالنقاش النقدي المصاغة من قبل فان إمرون وغروتندورست. هذه القواعد تنبثق من منع صرف بعضها البعض عن تقديم موقف خاص في مرحلة المواجهة للنقاش قصد الحد من تعميم نتيجة النقاش في مرحلة الاختتام. وقد ينظر إلى أي نقلة مقامة في الخطاب الذي لا

يستجيب للقواعد كعائق لتحقيق الهدف النقدي للنقاش. ومن ثمة قد يعتبر (بهذا المعنى الخاص) مغالطة.

استهدفت هذه المقاربة للمغالطات بوصفها بديلا للمعالجة المعيار للمغالطات المتقدمة بقوة إذن من قبل هامبلين منذ بداية سبعينيات القرن العشرين ثم جُست من قبل فان إمرن وغروتندورست في مؤلف الحجاج، التواصل، والمغالطات (1992). في مقابل تصور المغالطات بالطريقة القبلية لهامبلين باعتبارها الحجج التي تبدو صادقة لكنها غير صادقة، دافعا عن المغالطات بكونها نقلات نقاش تحرق بطريقة خاصة قاعدة معنية بالنقاش النقدي الذي ينطبق على مرحلة خاصة للنقاش. وهكذا استبدلا المعيار الوحيد للمصدوقية المنطقية بتجميع معايير مختلفة يتعين أن يتقيد بها الخطاب الحجاجي، المعبر عنها بقواعد في النقاش النقدي. بهذه الطريقة، يمكن أن تخصص عدة مغالطات تقليدية بوضوح تام وبشكل ثابت، بينما تكتشف المغالطات الجديدة التي اختفت غير مرصودة سلفا.

بغية توضيح كيف يمكن إثبات المغالطات في الممارسة الحجاجية، تعين على فان إمرن وغروتندورست أولا تفسير الطريقة التي قد يحلل بها الخطاب الحجاجي بصورة مثمرة. في هذا المسعى، استخدمنا مفاهيم من قبيل المقدمة المنطقية المعبر عنها، وبنية الحجاج، وخطاظة الحجة. وفي مؤلف الحجاج، التواصل والمغالطات حدد أي من تلك المفاهيم من منظور تداولي - جدلي. في إطار التعامل مع تحديد المقدمات المنطقية المعبر عنها، يقترح فان إمرن وغروتندورست بداية التمييز بين التحليل المنطقي الأدنى والتحليل التداولي المثالي، معادلين التحليل المنطقي الأدنى بإعادة بناء شرطي متصل مبرر باستلزام منطقي لاستدلال صادق، وتحليل تداولي مثالي لتخصيص سياقي أو تعميم ذلك الشرطي المبرر بالاستلزام الكرايسي للوجود الإخباري. حدد التابع، والعطف والبنيات المتعددة التي قد تتطور على غرارها مجموعة معقدة من الحجج من حيث ردود فعل مختلفة تجاه أسئلة نقدية يتوقعها المحاجج أو يجيب عنها في سيرورة دعم وجهة نظر قبل حكم نقدي. تصورت تلك الأسئلة النقدية من ناحية كتخصيص لمخطط الحجة الذي يمكن أن تؤسس بناء عليه حجة ما، أي علاقة الدعم بين حجة فردية ووجهة نظر طبيعة سببية أو عرضية أو قياسية.

تعد البؤرة العماد لمؤلف الحجاج، التواصل والمغالطات بؤرة نظرية، غير أن محتواه أيضا يتعلق إلى حد ما بالمكون التحليلي والتطبيقي للنظرية للتداولية - الجدلية المطورة كذلك ضمن إعادة بناء الخطاب الحجاجي (1993)، المكتوب من قبل فان إمرن وغروتندورست، وجاكسون وجاكوب. هذه الدراسة المتعلقة بالتداوليات المعيارية تضم أفكار فان إمرن وغروتندورست حول البعدين المعيارى والجدلي للخطاب الحجاجي كما تصور من منظور نقاش نقدي بمقاربة وصفية موجهة تجريبيا، مطورة من قبل جاكسون وجاكوبس منذ سنوات في سلسلات مقالات تدرس الحجاج في المحاورات (1980؛ جاكوبس وجاكسون، 1981، 1982، 1983). وعليه، يُحدد الخطاب الحجاجي المعاد بناؤه التخصيصات النظرية لنمط التحليل الذي يحقق حين يعاد بناء نموذج الخطاب الحجاجي بناء تداوليا - جدليا كحالة للنقاش النقدي عن طريق مقارنة المعيارية النقدية بطرق متنوعة للسداجة وأنواع أخرى لمعيارية مفضلة في التطبيق الحجاجي. كما أنه يطور أيضا الأدوات التحليلية المطبقة في هذا المسعى أي تحويلات الحذف، والإضافة، والتبادل، والاستبدال بواسطة عناصر في الخطاب غير واردة مباشرة في هدف لحل نزاع ما، من قبيل ملاحظات غير مرتبطة بنقاش جاري، وملاحظات مستبعدة عناصر مطلوبة لكنها مفتقرة في الخطاب، من قبيل مقدمات منطقية ضمنية وغير مباشرة ووجهات نظر واقعية أو حقيقية متضمنة، ورتبة موجهة صوب حل مفروض على خطاب ما بغية استبدال رتبها العماد حين يطلب ذلك، وانتظام مؤمن في الوصف اللغوي للنقلات التي تحقق الوظيفة النقدية ذاتها.

ومنذ البداية، تقاسم المؤلفون الأربعة، فيما تقدم، إعادة بناء الخطاب الحجاجي بعض المنطلقات الهامة، تعلق معظمها أساسا باستعمال التصور السورلي والكرايسي المتعلق بتحليل الخطاب الحجاجي. غير أن تأليف الرؤى أقام مواضع جديدة لإدماج إضافي. لقد برهنت إعادة بناء الخطاب الحجاجي، ضمن أشياء أخرى، على أن القطع المعينة للخطاب حجاجي واقعي التي تتجلى، بداية، غير معقولة بشكل ملفت، قد تكون معقولة، في مناسبة ثانية أو يمكن تصورها على الأقل كقطع معقولة أو ممكنة عندما وضع في الحسبان أن بعض شروط رتبة أعلى في نقاش نقدي كانت غير مثمرة إبان التبادل. وتبعاً لما بينه جاكوبس

(1992)، يتمثل بيان ذلك في شهادة ومقاطعة من قبل وعاظ ومتفرجين في موقع حرم جامعي أمريكي. أبعد من ذلك، مُنح دليل مستمد من رسائل إلى محرر لاسيما من محاورات أثناء وساطة طرف ثالث في النزاع. يقدم إصدارهما المشترك في فترة لاحقة إثباتا إضافيا لأهمية إدماج المقاربة المعيارية والوصفية في تحليل الخطاب الحجاجي (فان إمرن ضمن آخرين 1997).

تمثل البحث الأخير الذي أصدره فان إمرن وغروتندورست معا في النظرية النسقية للحجاج (2003). يعرض المؤلف لمحة عن التصورات العماد المعنية بدراسة الحجاج التي طورها فان إمرن وغروتندورست خلال تعاونهما لثلاثين سنة تقريبا. فسرت المكونات الخمسة لبرنامج البحث التداولي - الجدلي، من البحث الفلسفي والنظري إلى البحث التجريبي، والتحليلي، والتطبيقي. أثبت أن التحسينات التطبيقية للإجراءات الحجاجية والمهارات - بداية ونهاية دراسات الحجاج - يمكن فقط أن تحقق بادئ الأمر إذا ما فسر تصور المعقولة المبرر فلسفيا ومنح صياغة في النموذج النظري للحجاج المعقول، وكسب التصور التجريبي النسقي من خصيصات الواقعية الحجاجية، وطورت الأدوات التحليلية الممكن تطبيقها في تحقيق إعادة بناء منهجي للخطاب الحجاجي الذي يسد الفجوة بين النظرية والتطبيق<sup>(1)</sup>.

## 2- التوفيق بين التصورين الجدلي والبلاغي

منذ خمس سنوات خلت، أحدث المؤلفان الحاليان تطورا جديدا: مفاده إدراج تصور من البلاغة القديمة والمعاصرة في النظرية التداولية - الجدلية، لاسيما في منهج التحليل والتقييم، وتبعا للمتصور عموما في النظرية الحجاجية اليونانية، قدر الفرق بين الجدل والبلاغة فحسب بتقسيم العمل. لكن، في سنوات لاحقة، تنامت تلك التخصصات تدريجيا

(1) ضمن هذا الوصف الموجز لتطور التداولية-الجدلية، لم تناقش الإصدارات التي كانت في المقام الأول مقصودة عملا مباشرا للتخصص، نحو أسس نظرية الحجاج (فان إمرن ضمن آخرين، 1996)، الحجاج: تحليل، تقييم وتقديم (فان إمرن ضمن آخرين، 2002) والمفاهيم العماد في نظرية الحجاج (فان إمرن ضمن آخرين، 2001).

بشكل منفصل. في النظرية الحجاجية التقليدية الرومانية، كانت البلاغة مهمنة، منشغلة بتصورات من الجدل فظلت مؤثرة تأثيرا بالغا لسنوات. وفي العصور الوسطى اللاحقة، حقق الجدل مكانة، محرزا أجزاء بعض العناصر الجوهرية للبلاغة، من قبيل معالجة مظاهر الرتبة في الخطاب (الترتيب). هذه التحولات كانت موثقة ومدروسة بإحكام، ولو نادرا من منظور النظرية الحجاجية.

تبعاً لمؤلف العودة إلى العقل لتولين (2001)، أصبح التمييز بين الجدل والبلاغة تمييزاً أيديولوجياً بعد الثورة العلمية في القرن السابع عشر، نجم عن وجود أنموذجين منفصلين تبادلياً، عدا غير ملائمين. أصبحت البلاغة حقلاً للدراسة لدى علماء الإنسانيات المنشغلين بالتواصل، وتحليل الخطاب والأدب. وفي إطار الصورة المتنامية للمنطق في القرن التاسع عشر توارى الجدل تقريباً عن الأنظار، والذي بُني بفعل تمثيلات العلوم الدقيقة فتصور كجزء من المنطق. ومنذ النصف الثاني من القرن العشرين، شهدت دراسة الحجاج إحياء ملحوظاً للمنظورين البلاغي والجدلي في الحجاج. لكن، من المؤسف، بالرغم من النزوع إلى التقليل من الفروق، أن ثمة، لحد الآن، فجوة شاسعة في المقاربات التصورية والفهم المتبادل بين الذين يفضلون المقاربة الجدلية ومؤيدي المقاربة البلاغية. وفي الحقيقة، تجاهل البلاغيون، منذ عهد قريب، نتائج التنظير الجدلي، إلى حد بعيد، الأمر ذاته ينطبق على تجاهل الجدليين لنتائج التنظير البلاغي تماماً<sup>(1)</sup>.

قصد تدارك الفصل غير المرغوب فيه بين الجدل والبلاغة، أقمنا محاولة تروم تطوير الأسس التصورية والنظرية لتوحيد مسارات التحليل البلاغي والجدلي نسقياً، مبرزين أن المنظورين الجدلي والبلاغي للخطاب الحجاجي منظوران غير متلائمين، مثلما زعم عادة، لكن يمكن لهما أن يكونا أيضاً متكاملين (فان إمرن وهوتلوسر 1998، 1999، 2000

(1) يمكن أن ينظر إلى مجموع المقالات المنشورة عن الجدل والبلاغة (فان إمرن وهوتلوسر ضمن آخرين، 2002) بوصفها جهوداً تقيم تقارباً بين الجدل والبلاغة. فهي لا توضح بعض الإشكالات الأساسية التي يصطدم بها المرء عند محاولة تحقيق مثل هذا التقارب فحسب، بل توضح أيضاً زوايا متعددة، وطرق يمكن أن تستهدف بها.

2000ب، 2002)<sup>(1)</sup>. يسعى التأليف بين التحليل البلاغي والجدلي الذي نقترحه إلى إدماج نسقي للاعتبارات البلاغية في إطار نظري جدلي. وبالنظر إلى خطاب حجاجي، يصدر إما شفاهة أو في الكتابة، فإن المتحاجين المتفردين لا يهدفون عموماً إلى التحكم في النقاش بالطريقة التي تعتبر معقولة، بل يرومون أيضاً كسب النقاش بمعنى امتلاك فكرتهم المقبولة، لذا نتصور المحاولات البلاغية للمتحاجين بغية إحراز أشياء عن طريقتهم بكونها مدججة في جهودهم قصد تحقيق تطلّعهم الجدلي لحل اختلاف في الرأي تبعاً للمعايير الحقّة للنقاش النقدي. وفي التطبيق، نبنى ذلك، إذ في أي مرحلة من مراحل سيرورة الحل، بصرف النظر عن عدها مرحلة مواجهة، أو مرحلة افتتاح، أو مرحلة حجاج أو مرحلة اختتام، قد يفترض الأطراف، حين التواجد خارج النتيجة البلاغية المثلى في تلك المرحلة من النقاش، بغرض الاحتفاظ أيضاً بالهدف الجدلي لمرحلة النقاش المعنية، ومن ثمة يمكن اتخاذ هدف جدلي لأي مرحلة من المراحل الأربعة لسيرورة الحل قصد ملاءمة التبع المباشر لذئك الهدافن المختلفن، اللذان قد یرزان أحياناً بغية التوجه مقابل بعضها البعض، كما يمكن للمتحاجين استخدام ما اصطللحنا علیه بالمانورة الاستراتيجية التي توجه حين التخفيف من الضغط الكامن آنئذ بین متابعة هدف جدلي علاوة على هدف بلاغي.

قد تحصل المناورة الاستراتيجية في مستويات عدة لنقلة حجاجية ما. وتقيم المظاهر العمد للمناورة الاستراتيجية، من وجهة نظرنا، انتقاء ملائماً من إمكانيّة موضوعية متاحة في مرحلة نقاش معينة، مكيفين مساهمة الفرد مثالياً بمعية توقعات خاصة ومتطلبات المستمع، مستعملين معظم الأجهزة النقدية الفعالة. ولما تنجّ الاختيارات المقامة في المستويات المتعددة سوية ضمن تتابع منتظم أو متناسق للنقلات، فإن ذلك يصل إلى توجيه استراتيجية حجاجية جاهزة. فما الطريقة الفضلى للمناورة الاستراتيجية، التي ستوسل في مرحلة أخيرة دائماً بمحدود مرسومة بالوضع (المقام) الجدلي والمستمع الذي يعد مقتنعا في السياق المعني.

(1) بموجب تصورنا الراهن، يمكن أن ينظر إلى التداولية-الجدلية كما طورت، بداية، من قبل فان إمرن وغروتندورست (1984، 1992، 2003) كمحاولة لبناء مقاربة جدلية للحجاج التي تحتفظ بعين ثابتة صوب مظاهر الواقعية الحجاجية عن طريق دراسة الخطاب الحجاجي من منظور تداولي.

قد يوجد مثال وجيه لنمط المناورة الاستراتيجية الممثل صراحة في المستويات الثلاثة جملة، التي ميزناها في استعمال حجاجي لصورة يسميها البلاغيون بالتوافق (فان إمرن وهوتلوسر، 1999). تقتضي صورة التوافق استعمال حجة تقدم في نقطة معينة من قبل المعارض بهدف دعم وجهة نظر المؤيد. وتبعاً لما رأيناه، يتضمن التوفيق عند البناء، من حيث المناورة الاستراتيجية، انتقاء من الإمكانيات الحجاجية الملائمة للمحتاج (حجة متاحة بسهولة) ومكيفة في الوقت نفسه بصورة مثلى مع منطلق طرف آخر (كانت الحجة مقبولة تقريباً). أبعد من ذلك، إذا استعمل التوفيق بوصفه مناورة استراتيجية، سيستخدم الجهاز التقديمي، من قبيل طرح سؤال بلاغي وجيه يتعلق ببيان أن الحجة تعد حقاً جزءاً مضافاً إلى تعهدات المعارض سلفاً. وبما أن المخراط المعارض مؤمن إذن في التقديم، فإن نمط المناورة الاستراتيجية يمكن أن يكون، بلاغياً، نمطاً قوياً لكنه يعد أيضاً نمطاً جدلياً، إلى حد بعيد، ما دام الحجاج يقدم تعهداً قبلها.

وفي تصورنا، يمكن أن يستفيد التحليل التداولي - الجدلي على الأقل من ثلاث طرق بموجب استعمال ذلك التصور للمناورة الاستراتيجية في إعادة بناء الخطاب الحجاجي. وعن طريق تحصيل رؤية واضحة عن المظاهر البلاغية للخطاب، يُحصل فهم أفضل وشامل تقريباً لما قد يسمى في الحقيقة بالواقعية الحجاجية. وعن طريق تحقيق فهم أشمل وأدق للعقلانية الثابتة خلف التمثيلات الخاصة بنقلات نقاش متنوعة مقامة في خطاب حجاجي، يصبح التحليل أكثر عمقا. أخيراً لآخر، عن طريق دمج الإنجازين المصرح بهما فحسب، يمكن تبرير التحليل بوضوح تام كذلك.

### 3- الحدود الجدلية للاختيارات البلاغية في المناورة الاستراتيجية

ضمن مناورة استراتيجية حاصلة في خطاب حجاجي تستهدف صيانة التوازن بين الأهداف الجدلية والبلاغية، يمكن لتتابع ذينك الهدفين المختلفين أن يتجها سوية إلى حد ما. وعلى الرغم من ذلك، قد تكون ثمة، بلا منازع، توترات وتعارضات. يفسر هذا المأزق حدوث منزلقات معينة للمناورة الاستراتيجية في عدة نماذج واقعية للخطاب الحجاجي.



وتعد تلك المنزقات، إلى حد بعيد، شبيهة بنقلات خاطئة في خطاب حجاجي، تُعرف تقليدياً بكونها مغالطات<sup>(1)</sup>. كيفية التمييز بين الصوت والخطاب الحجاجي المغالط يمثل واحداً من المشاكل المركزية في دراسة الحجاج. ومن وجهة نظرنا، قد لا يحل هذا المشكل بصورة كلية تبعاً لمنظور جدلي ومنطقي صرف أو استناداً إلى منظور تداولي وبلاغي صرف.

قصد حل المشكل، يطلب الفصل بين النقلات الحجاجية التي تعد معقولة والنقلات الحجاجية غير المعقولة. وفي النظرية التداولية - الجدلية، يحقق هذا الفصل بتقديم صياغة مثالية نقدية للمعقولة ضمن مجموع سليم التحديد للمعايير الوظيفية المتعلقة بتوجيه الخطاب الحجاجي المستهدف في حل غير متطابق متعلق بمعقولة وجهة النظر. وتعتبر النقلة الحجاجية صوتاً إذا عدت ضمن تطابق مع القواعد المطبقة في مرحلة خاصة للنقاش النقدي، وتعتبر مغالطة حين تخرق أي من تلك القواعد فتعيق حل نزاع ما. هكذا يتزامن مشكل التمييز بين صوت الحجاج والحجاج المغالط بمعية مشكل تحديد إلى أي مدى تخرق القاعدة التداولية - الجدلية في نقاش نقدي. لكن، قصد التمكن نسقياً من تحديد مدى عد بعض النقلات الحجاجية مغالطة في مراحل سيرورة الحل جملة، فهي تستلزم معايير واضحة تتعلق بتحديد متى تخرق نقلة نقاش ما بدقة قاعدة خاصة مطبقة في مرحلة نقاش معنية. علماً أن تأسيس تلك المعايير يصطدم بمشاكل معتبرة، معتقدين أن تصوراً للمناورة الاستراتيجية يمكن أن يسعف في تحديد مثل هذه المعايير.

استهدفت المناورة الاستراتيجية، في تصورنا، تخفيفاً للضغط الكامن في الخطاب الحجاجي بين أطراف التحاجج بشكل معقول تماماً وامتلاك مجرد أشياء عن طريقة خاصة بفرد ما. طالما أن هذه الوجهة تدل على أن الهدفين معاً معتبران كما مُثلاً في جل النقلات المقامة في الخطاب الحجاجي، لاحظنا، قبل، أنهما لن يكونا دائماً في توازن تام تلقائياً. فمن جهة أولى، قد تتجاهل الاهتمامات الإقناعية، على سبيل المثال، إزاء الخوف من كونها

(1) قبل إصدار هامبلين (1970) دراسته المعلومه نوعاً ما عن المغالطات، رُجِحَ التصور المنطقي للمغالطة بوصفه حجة تلبو صادقة وهي في الحقيقة غير صادقة. وفيما يتعلق بالمقاربات النظرية المتعددة لما قبل هامبلين وما بعد هامبلين الخاصة بالمغالطات، انظر فان إمرن (2001).

(مدركة بوصفها) غير معقولة، ومن جهة أخرى، قد يتجاهل التعهد بالمثالية النقدية بفعل السعي إلى كسب الطرف الآخر بالنظر إلى جانب خاص بفرد ما. وقد يترتب تجاهل الإقناعية عن استراتيجية سيئة أو عن حماقة كذلك، كما اختار والطن وكراب (1995) تسميته. مثل هذه النقلاات ستؤدي المحاجج لكنها لا تضر الخصم أو المعترض، ولا تعد بالتالي مدانة بكونها مغالطة. لكن إذا سمح طرف ما، متعهدا بتبادل معقول للنقلاات الحجاجية حتى تصبح مبطللة عن طريق توخي إقناع الطرف الآخر، فقد تزيغ المناورة الاستراتيجية فتعد بذلك مدانة لكونها مغالطة، لأن الطرف الآخر أصبح ضحية مناورة استراتيجية. ومن منظور المناورة الاستراتيجية التي طورناها، تعد كل منزلقات المناورة الاستراتيجية مغالطة ويمكن، مبدئيا، للمغالطات أن تتصور منزلقات للمناورة الاستراتيجية.

يمكن لمقاربة المغالطات باعتبارها منزلقات للمناورة الاستراتيجية أن تمكن من تطوير معايير تتعلق بتحديد النقلاات الحجاجية المغالطة. ومن وجهة نظرنا، يمتلك أي نمط للمناورة الاستراتيجية، بعبارة أخرى، استمرارية الخاصة للصوت والفعل المغالط. وبالرغم من أن أحكام المغالطة تعد في النهاية عادة أحكاما سياقية للحظات خاصة بفعل حجاجي محدد، فإن ذلك لا يعني أن المعايير غير الواضحة يمكن أن تؤسس قصد تحديد مدى توجه الطريقة الخاصة للمناورة الاستراتيجية توجهها مضللا. ويمكن أن تعين أنماط أو مقولات خاصة للمناورة الاستراتيجية، وبمخصوص أي من تلك الأنماط، يمكن أن تحدد الشروط الخاصة التي تقتضي أن تنجز إذا ما عدت المناورة لغرض الاحتفاظ بالصوت. وعليه، يمكن أن تدرك بعض تجليات المناورة الاستراتيجية بوصفها مشروعة بينما يمكن أن يتحكم في تجليات أخرى بوصفها مغالطة مادامت الشروط الواردة لم تكن مجتمعة<sup>(1)</sup>.

من وجهة نظرنا، يمكن أن تحدث منزلقات المناورة الاستراتيجية فحسب عن طريق مزية وجود مناورة استراتيجية. وبما أن ثمة في التطبيق استمرارية بين الصوت والمناورة الاستراتيجية المغالطة ومسار فصل ملتبس دائما بين الاثنين فيما تقدم، فإن تقديرنا يفسر

(1) في حالات واضحة يمكن لأنماط معينة للمناورة الاستراتيجية أن تعرف آليا باعتبارها خرقا متجليا لقاعدة نقاش مطبقة في مرحلة نقاش خاص معني، غير أن ذلك لا يمثل عادة حالة.

فحسب لماذا لا يمكن لبعض المغالطات عادة أن تجلّى آنيا أو تبرز للآخرين. سيتوقع المتحاجون في خطاب حجاجي يومي أحيانا بعضهم البعض دعما لتعهد معين للمعقولة، بل التزاما بذلك التعهد، طالما يتوخون إحراز موقف مقبول خاص بهم. لذا، فإن افتراض المعقولة افتراض واقع في أي نقلة نقاش (انظر أيضا جاكسون 1995). هذا الافتراض يعد إجرائيا أيضا حين تحرق طريقة خاصة للمناورة قاعدة معينة للنقاش وبذلك فهو افتراض مغالط. وتبعا لترديد تعريف أرسطو للمغالطة كما استشهد به من قبل هامبلين (1970: 12)، قد نقول إن المناورة، إذن، تبدو، لحد الآن، من أجل إخضاع قاعدة النقاش النقدي، رغم أنها لا تقوم بذلك في الحقيقة<sup>(1)</sup>. وإذا عد خرق متعمد للقاعدة رهانا، فإن الطرف الذي يعد مخطئا سيكون أيضا ملزما بإثبات أن التعهد بالمعقولة ما يزال قائما. وإذا تبين أن التعهد بالمعقولة كان تعهدا مرسوما، فإن التأثير الإقناعي للنقطة سيكون مفقودا مباشرة. وإذا عد الانتهاك غير مقصود بسبب أن النقطة تعد ببساطة خاطئة، فهي لحد الآن مغالطة بالمعنى التداولي - الجدلي: رغم أن النقطة المعنية قد تبدو قوية بلاغيا علاوة على مقبوليتها جدليا لدى الخارق، إنها في الحقيقة غير معقولة. مثل هذه الخروقات غير المقصودة لا تعد، بالطبع، غير قابلة للنقض: فعندما يشير الطرف الآخر إلى أن المخالفة في مقابل المعقولة مخالفة ملتزم بها، فمن الممكن تصويبها أو معالجتها آنيا. يمكن للمعايير في تحديد المناورة المغالطة أن تكون مكتملة للغاية أو تطور نسقيا تماما إذا ما تمكنا اعتماد تصنيف سليم التبرير لأنماط متنوعة للمناورة الاستراتيجية وتخصيص ما لشروط قوتها. مثل هذا التصنيف سليم التبرير لأنماط المناورة الاستراتيجية مؤسس على تخصيص منهجي لأهداف نقدية وإقناعية قد تفترض من قبل الأطراف المعنية في نزاع ما من أجل محاولة الإنجاز في مختلف مراحل التبادل الحجاجي. في نظرنا، يمنح النموذج التداولي - الجدلي للنقاش النقدي منطلقا وجيها لتحديد تلك الأهداف. فبالرغم من تخصيص النموذج فحسب الأهداف النقدية للأطراف في المراحل الأربعة لحل اختلاف في الرأي، فإن أيا من تلك الأهداف الجدلية، كما استدللنا عليه قبل، يمتلك مكمله البلاغي. يعني ذلك، ضمن ما يعنيه، أن الطرفين معا يستطيعان استثمار معظم

(1) يمكن إذن لهذا التخصيص أن يسعف في تفسير التصرف المضلل للمغالطات.

الجال الذي ترك في محاولة لتحقيق أي من الأهداف النقدية لأجل قصدهما الإقناعي فيصلان إلى إقامة النقلة التي تؤيد حالتها الخاصة بشكل أمثل. وفي مرحلة المواجهة للنقاش النقدي، على سبيل المثال، يعد الهدف الجدلي من أجل الإتيان بتحديد بين للقضايا التي يختلف بشأنها الأطراف فتختلف المواقف التي يفترضونها. ويمكن أن تقوم الأطراف المعنية بصياغة قضايا ومواقف تفترضها بالنظر إلى تلك القضايا بكيفية يظنون أنها تمكنهم من معالجتها أفضل معالجة. مثل هذه الأهداف المتعلقة بالمرحلة محددة كذلك بغية تحقيق فكرة أدق لأنماط المناورة الاستراتيجية وثيقة الصلة بمرحلة المواجهة، والموضوعة فيها لاستعمال وجيه. إلى هذا الحد، يتعين أن تكتفي تلك الملاحظات ببيان أن المناورة الاستراتيجية لدى الأطراف في هذه المرحلة الخاصة ستكون مستهدفة في صيانة التوازن بين التعريف الدقيق لاختلاف في الرأي وتأويل النزاع الذي يعد مفيدا أو وجيها لطرف من الأطراف المعنية. بهذه المناسبة، نمتلك ضمن أي نسبة محددة بطريقة نموذجية نمطا واحدا عاما للمناورة الاستراتيجية. يمكن ذلك من دراسة قوة الشروط المطبقة على ذلك النمط من المناورة الاستراتيجية بشكل أدق وتحديد المعيار الذي يتوجب أن يوضع في الحسبان في تحديد إلى أي حد أضحت المناورة الاستراتيجية متزاحة أو مغالطة خاصة ملتزما بها وإلى أي مدى؟

قصد توضيح كيف يمكن أن يتقدم تحديد مثل تلك المعايير الفاصلة، نتخذ مجددا حالة خاصة للمناورة الإستراتيجية عن طريق التوفيق الرامي إلى التأمين في مرحلة الحجج حيث تعد الحجة قوية بلاغيا بل تنسجم في الوقت نفسه مع الاستلزام الجدلي لتقدم الحجج فقط التي يعد محتواها في مرحلة الافتتاح متفقا عليه من قبل الطرفين كليهما في المناقشة. وفي حالة التوفيق، ينبع خطر الزيف من حقيقة أن الطرف الآخر، رغم أنه قد يفترض بشكل مؤمن حتى يتوافق بمعية المحتوى القضوي للحجة، فقد لا يطلب اقتراضه فحسب بهدف قبول طريقة يستعمل بها ذلك المحتوى القضوي في الاستدلال على وجهة النظر التي تعد بشكل دقيق مقابلا لوجهة نظره الخاصة. نعتقد أن هذا التناقض يمكن أن يجلى باستخدام التحليل التداولي - الجدلي للفعل الخطابي لتقدم الحجج. وتبعاً لهذا التحليل، يمكن أن تعد الحجة مجرد محاولة ناحجة لإقناع الطرف الآخر إذا لم يقبل الطرفان معا المحتوى القضوي

للحجة فحسب بل يتصوران أيضا القضية المعنية كتبرير كامن لوجهة النظر بهذا الخصوص. وعموما، ففي توافق ما، يعد المحتوى القضوي للحجة الذي استعمل فيه محتوى مقبولا في الحقيقة من قبل طرف آخر. غير أن إمكانيته التبريرية لوجهة النظر بهذا الشأن لا تعد على الأقل غير ممكنة تلقائيا. ويمكن تحليل الفعل الخطابي التداولي باشتقاق الشرط الذي يمكن أن يساعد على تقويم حالات فعلية للتوافق. ويمكن لهذا النوع من تجليات التوفيق أن يعد صوتا إذا ما أمكن افتراض مؤيد قادر على دعم رؤية الحجة التي اتخذها انطلاقا من طرف آخر يمتلك إمكانية تبريرية مطلقة وهامة بالنظر إلى وجهة نظره، أي وجهة نظر المؤيد وقد يقرر الطرف الآخر مدى عد ذلك في الحقيقة حالة. ويعد استعمال التوافق منزلقا للمناورة الاستراتيجية إذا ما افترض ببساطة أن الحجة مأخوذة انطلاقا من طرف آخر يمتلك إمكانية تبريرية مطلقة لوجهة النظر بهذا الشأن، فليس ثمة مجال متروك لمساءلة ذلك الافتراض المسبق<sup>(1)</sup>. وإذا زبح التوافق بهذه الطريقة، فإن مغالطة استجداء أو طلب السؤال مغالطة ملتزم بها: إذ يتوسل المؤيد بوجهة نظر لا تعد بذلك مقبولة لدى طرف آخر.

وقد يفي مثالان اثنان للتوافق بتوضيح كيف يمكن للشرط الذي فسرناه أن يسعف في تحديد مدى انحراف المناورة الاستراتيجية الحاصلة - ومغالطة استجداء أو طلب سؤال تُعهد به. يعد المثال الأول جزءا من مقالة إعلانية حيث تضمنت دفع شركة شال، المتعلقة باستثمارها بنيجيريا، تبريرها لا انسحابا من مشروع غاز نيجيريا الطبيعي المصفى بالإشارة إلى أن شال لن تعاني إذا ما انسحبت شال بل الشعب النيجيري والبيئة: فإذا لم نقم بذلك إذن، فإن المشروع سوف يفشل. [...] إن الانسحاب سيضر، دون شك، بآلاف النيجيريين الذين سيشتغلون على المشروع، كما أن عشرات الآلاف سيستفيدون إلى حد ما من الاقتصاد المحلي. إضافة إلى ذلك، ستعاني البيئة، بمعية نبات يتوقع أن يقلص كثيرا حاجة غاز الاشتعال في صناعة النفط. تختار شال حججها الخاصة بعدم سحب المشروع من معارضين

(1) قبل إصدار هامبلين (1970) دراسته المعلومه نوعا ما عن المغالطات، رُجع التصور المنطقي للمغالطة بوصفه حجة تبدو صادقة وهي في الحقيقة غير صادقة. وفيما يتعلق بالمقاربات النظرية المتعددة لما قبل هامبلين وما بعد هامبلين الخاصة بالمغالطات، انظر فان إمرن (2001).

اثنين لها، معترف بهما تتعلق بـ: اهتمامها بالشعب النيجيري وانشغالها بالبيئة. وقد يفترض معارضو شال، من منظور أولوياتها السياسية، حتى يكونوا لصالح ازدهار السكان المحليين وبيئة غير ملوثة. وفي المستوى القضوي، يمكن لشال بالتالي أن تتأكد من القبول. لكن كيف تتقدم شركة النفط نحو ضمان قبول المعارضين إمكانية تبريرية للحجتين الاثنتين بالنسبة لوجهة نظرها التي لا يتعين أن تزيج المشروع؟ تقوم شال بذلك عن طريق زعم أن ثمة علاقة سببية بين سحبها للمشروع وتدهور الإنسان والظروف البيئية، وبالتالي منح دعم مباشر لرؤية أن القوة التبريرية لحجج المعارض على وجهه نظر شال مؤكدة أو مثبتة. ورغم أن إضافة الإثبات يبين أن الآثار المؤذية واضحة، فإن شال لا تمنع القارئ حقاً من مساءلة العلاقة السببية المفترضة، لذا لا يمكن القول بانحراف فعلي للمناورة الاستراتيجية بمعية التوافق لغرض الحدوث، وليس ثمة علة كافية لاتهام شال بجعل نقلة ما تبلغ طلب السؤال.

ينبثق المثال الثاني للتوافق الذي نود مناقشته من رواية جون لوكاري الجاسوس المثالي. تتمثل الخاصية الأساس للمؤلف في الولد الذي رفع من قبل أي شخص لكن الأب، أب حقيقي ولو أنه نصّاب محبوب. ومن حين لآخر يأتي الأب لزيارة الولد. ولما يصبح الأب مستعداً دائماً للانصراف يبدأ الولد بالبكاء. علماً أن الأب لا يرغب في شروع ولده بالبكاء، محاولاً تحقيق ذلك بالقول:

Do you love your old man? Well then...

يعد ذلك تجلياً معقداً للتوفيق أكثر من التجلي السابق، لأن القضية المتخذة منذ البداية تحتاج أن تكون منسوبة إلى الولد. علماً أن ذلك يحدث عن طريق السؤال البلاغي. فرق ضافي ضمن حالة شال يتمثل في أن الأب يقترح أن الانخراط في القضية يدفع الولد نحو قبول وجهة نظره. وبموجب إضافة (حسناً إذن...) يشير الأب، رغم أن الولد يحب الرجل العجوز، بأن يتوقف - لزوماً - عن البكاء. وبما أن الأب لا يمنح أي دعم إضافي لهذا الاستلزام ويقترح تعبيره أن ذلك يمثل عموماً شيئاً مقولاً، يمكننا فقط استنتاج أن ذلك التجلي للمناورة الاستراتيجية عن طريق التوافق أصبح تجلياً منحرفاً.

تبرز تلك التحليلات كيف يمكن للإشكال الأساس في دراسة الحجاج، أي التمييز بين الصوت والتقلات الناجحة في الخطاب الحجاجي، أن يوضح بواسطة تصور المغالطات بوصفها منزلقات للمناورة الاستراتيجية. وعن طريق تحصيل تصور عميق وواقعي للغاية في التخطيط الاستراتيجي للخطاب، يمكن أن يحقق إدراك شديد لأسباب النقلات غير المغالطة والمغالطة التي تحدث في ظروف معينة ضمن تطبيق حجاجي عادي. تختلف مقاربتنا لإشكال الفصل إلى حد ما عن كيف عولج من قبل منظري الحجاج، أمثال بيرو وسيغل (1992)، وجونسون (2000)، الذين يمنحون أسبقية للاعتبارات المعرفية المطلقة. تختلف مقاربتنا كذلك عن مقارنة ويلارد (1995)، وليف (2000) اللذين يعتمدان الاعتبارات الاجتماعية التجريبية. في المقابل، أدمجت في مقاربتنا التصورات المعيارية والوصفية نسقيا كما عالجنا المغالطات بوصفها أنماطا للمناورة الاستراتيجية التي تحرق، بالرغم من صيانة التعهدات العامة للمعقولة الجدلية، قاعدة معينة للنقاش النقدي لأن القيود الشرطية الواردة في نمط خاص ما للمناورة الاستراتيجية قيود متجاهلة كما أن المزايا البلاغية محصلة بمساعدة بالغة للمزايا الجدلية.

#### 4 - بعض المشاريع الحالية المتعلقة بالبحث التداولي - الجدلي

إلى هذا الحد، نواصل في المقام الأول مشروع بحثنا الطموح حول التحليل البلاغي والجدلي الذي ندرس فيه العلاقات بين البلاغة والجدل والطرق التي يمكن بواسطتها لتصور من تلك التخصصات أن يسعف في تطوير المنهج الشامل لتحليل وتقويم الخطاب الحجاجي. لقد وصفنا فيما سبق، ضمن هذا المسعى، كيف ندمج التصور البلاغي بوسائل الإقناع في إطار جدلي لحل اختلاف في الرأي بطريقة معقولة. بالنتيجة، طور المنهج المدمج في التحليل النقدي الذي استعملناه نموذجيا ضمن إعادة بناء حالة هامة للخطاب الحجاجي تاريخيا: اعتذار وليام البرتقالة (1581). يعد الاعتذار كتيباً مطولاً يبرر الأفعال الصامتة لوليام في الثورة الهولندية ضد الحكام الإسبانين التي بدأت منذ 1568. تكمن عملية التبرير في استجابة الملك فيليب لمرسوم المنع الإسباني حيث كان ويليام غير شرعي. فهو تبرير يقتضي

العرض المعقد للمناورة الاستراتيجية بين التعهدات الجدلية والأهداف البلاغية (فان إمرن وهوتلوسر، 2003).

إضافة إلى التحليلين البلاغي والجدلي، في برنامج البحث التداولي - الجدلي، الذي أصبح منذ تسعينيات القرن العشرين برنامجا دوليا إلى حد بعيد<sup>(1)</sup>، ثمة عدة (مجموعات) مشاريع بحثية ضمن سيرورة المشاريع المنجزة. وبالرغم من أن الجهود الموجهة عادة نحو تضمين مكونات برنامج البحث الخمسة جملة، كان التركيز الأساس بداية، كما فسرنا، تركيزا في المقام الأول على المكونين الفلسفي والنظري. فيما بعد، منح التركيز على المكون التحليلي أهمية بالغة، ومحض، بعد ذلك، المكونان التجريبي والتطبيقي بشكل دقيق. وعموما يعنى البحث التداولي - الجدلي حاليا بالإشكالات المعنية بتجسير الفجوة بين الفلسفة المجردة ونظرية الحجاج والدراسة التجريبية والتحليلية والتطبيقية للخطاب الحجاجي<sup>(2)</sup>. أقيم جهد ملموس في تحديد كيف يمكن أن تضبط الأدوات التصورية النظرية للتداولية - الجدلية منهجيا إزاء التوظيف النسقي والمتغير في التعامل مع سمات التطبيق الحجاجي المختلفة وغير المتحكم فيها أحيانا<sup>(3)</sup>. يعني ذلك أن مشاريع البحث التي تنفذ حاليا ترتبط عادة بالمكونات المتعددة لبرنامج البحث في الوقت ذاته. دعنا نقرب نظرتنا العامة بذكر بعض المواضيع البارزة التي يمكن تمييزها.

أولا، يوجد مشروع بحث موسع - تصورات المعقولية - يروم روز الصدق المواضيعاتي للقواعد التداولية - الجدلية المؤسسة على المقبولية بين - ذاتية. في هذا المشروع، تُعهد بدراسات تجريبية عملية تروم تحديد مدى تطابق القواعد نسقيا في نقاش نقدي بمعية معايير مطبقة (أو مفضلة بالأحرى) من قبل متحاجين عاديين عند تقويم الخطاب الحجاجي. لأجل هذا الغرض، استلزم مستعملو اللغة العادية قصد تقييم المعقولية أو مقبولية أجزاء

(1) يقدم مؤلف دراسات في الحجاج الآن لمحة عن الوضع القائم في التداولية - الجدلية عن طريق مجموع مقالات من قبل فريق امستردام (فان إمرن وغرونندورست، والمحررين، 1994).

(2) انظر فان إمرن (المحرر، 2002).

(3) أقام عدد من العلماء، أمثال جاكسون، واكوس وغروارك، أيضا مقترحات لتوسيع مجال، أو شمولية التداولية - الجدلية في جوانب مختلفة. انظر فان إمرن (المحرر، 2002، الفصل 7، 8 و 9).



الخطاب الحجاجي الذي يتضمن نقلات نقاش مغالطة (وغير مغالطة). واستنادا إلى نتائج بحث الإقناع المنجز في علم النفس الاجتماعي، افترض أن عدة عوامل سوف تؤثر في أحكامها: نمط الخطاب المعني، والدرجة التي تُحتمل بها وجهات النظر إلى حد ما بهذا الشأن، وإدراك المقوم للمتكلم أو الكاتب، ونمط نقلة النقاش في هذا الصدد، وتقديم اللغوي، إلخ، علما أن تلك العوامل جملة اتخذت كمتغيرات في الاختبارات. وتعد نتائج تلك الدراسات التجريبية أيضا واردة في تعليم الطلاب ما يتعلق بالمغالطات. فهي تقدم إذن أساسا تجريبيا لتطوير كتب دراسية كافية بيداغوجيا حيث تمنح عناية مناسبة لأي قاعدة من قواعد الحجاج الخاص، متحكمين بشكل مركز تقريبا في العقلانية تجاه القواعد التي لا تعد حدسيا واضحة آتيا ومقبولة بدلا من التحكم في القواعد التي تعد واضحة ومقبولة حدسيا بشكل آتيا. بمعنى أعم، تمنح نتائج تلك الدراسات أو الأبحاث رؤية عن تصورات المعقولة أو العقلانية لمستعملي لغة عادية، واتساق تلك التصورات، كما تمنح في الأخير، كحالة ممكنة، رؤية عن الفروق الاجتماعية، والثقافية، وفروق أخرى بينهما.

ثانيا، ثمة مشروع موسع - خصيصيات الخطاب الحجاجي - الذي يدرس السمات التداولية للخطاب الحجاجي. في هذا المشروع استقصيت أدوات تخصيصات معينة للخطاب الحجاجي التي قد تكفل تحليله. يركز المشروع في المقام الأول على تلك العناصر الضمنية والصريحة في النص أو السياق التي تعد واردة في إقامة إعادة بناء تداولي - جدلي للخطاب المترتب عن لحظة تحليلية كافية. وانطلاقا من افتراض أن الأفعال الخطابية المنجزة عموما في الخطاب الحجاجي يمكن أن يعاد بناؤها كجزء من محاولة لحل اختلاف في الرأي، يركز المشروع على الأنماط المتنوعة للنقلات الفعلية التي يمكن أن تضطلع بدور بنائي في مراحل متتالية لنقاش نقدي. ضمن هذا المسعى، استعمل التصور من منطلق نظرية الفعل الخطابي (اللغوي)، وتحليل الخطاب، وتحليل المحاورة وفروع أخرى للسانيات التداولية قصد إقامة مخزون نسقي للوسائل التي تستعمل في الممارسة الحجاجية إشارة إلى الوظائف التواصلية والتفاعلية لنقلات معينة. وفي تصورنا الموسع، تكمن مؤشرات النقلات الحجاجية أو، بعبارة، المؤشرات الحجاجية، في المفردات، والتعابير، وعلامات ضافية قد تشغل تلميحات

لتحديد النقلات الحجاجية والعلاقات بين مثل هذه النقلات الواردة في حل اختلاف في الرأي. يروم المشروع لا إقامة مخزون نسقي للمؤشرات اللغوية أو الكلامية الكامنة وتصنيفها من حيث النقلات الحجاجية فحسب، بل أيضا تحديد الشروط التي يتوجب أن تنجز في تعبير معين حتى تستغل كمؤشر خاص. لا يقيد مجال المشروع بالمؤشرات العلاقية للحجاج ووجهات النظر بالمعنى الموسع والضيق، من قبيل (بالتالي) و(لذلك)، على التوالي، بل تمتد إلى مؤشرات عناصر حاسمة أخرى للخطاب الحجاجي، من قبيل النزاع، والتنازلات، والدحوض، والحجج المضادة، والعلاقات بين الحجج<sup>(1)</sup>.

ثالثا، نود ذكر جملة مشاريع، موسومة بالحجاج المؤسساتي، التي توخت تطوير الأدوات لتحليل وتقويم الخطاب الحجاجي في المقامات المؤسساتية. يركز المشروع، بداية، على إعادة بناء الحجاج في الخطاب القانوني والمناقشات السياسية. وتكمن الأسئلة المركزية في الأسئلة التي تستعمل الإجراءات الحجاجية والتقنيات في مقامات سياسية وقضائية لحل اختلاف في الرأي، حيث تعد التصورات حاسمة في تحليل وتقويم كافيين للخطاب الحجاجي السياسي والقضائي. وضمن دراسة الخطاب الحجاجي في سياق قانوني، يقضي الافتراض بإمكانية تصور السيرة القانونية، إلى حد بعيد، بوصفها مناقشة نقدية. بموجب هذا الافتراض، يركز البحث على إعادة بناء المناقشات القضائية، واضعين في الحسبان التخصيصات المحددة للخطاب القانوني والتخصيصات الخاصة بالعقلانية القانونية. إن الهدف هو تطوير إطار نظري شامل استمدت فيه أفكار متعلقة بتحليل وتقويم الحجاج القانوني من نظرية الحجاج ومن النظرية القانونية المدججة. إلى هذا الحد، يتوجب تأسيس كيف تطبق النقاشات النقدية في المراحل جملة بالنظر إلى القواعد الموجهة والمعايير العقلانية القانونية العامة والخاصة. ويتعين أيضا تأسيس كيف يمكن إعادة بناء صور مختلفة للحجاج

(1) بما أن النموذج في النقاش النقدي يحدد النقلات التي يمكن أن تضطلع بدور بنائي في المراحل المتعددة لسيرة النقاش، فإنه يتضمن إطارا نظريا مناسباً لتصنيف مؤشرات استعمال اللغة الحجاجي. وبخصوص أي مرحلة، سيحدد البحث التعابير المتاحة في اللغة العادية قصد تعيين النقلات الواردة في سيرة الحل في المرحلة المعنية كما سيخصص نوع المعلومات التي ترسل بواسطة استعمال مؤشر خاص والشروط التي يبرر بها تحليل استعمال تعبير معين كمؤشر لنقلة نقاش مخصوص.

المعقد الواقع ضمن تبرير القرارات القانونية. أضف إلى ذلك، يتوجب تأسيس كيف يمكن أن تحلل وتقوم، بطريقة عقلانية، خطاطات الحجة المستعملة تواردا في تبرير القرارات القانونية، من قبيل تلك المستعملة في تبرير القياس، والتوافق، والحجاج التداولي. أخير لا آخرا، يتعين بناء تأليفات تقنيات بلاغية وجدلية مستعملة في إقناع المستمع القانوني بمقبولية وجهات النظر القانونية. درست المناقشات في مقامات سياسية على هذا النحو وبطريقة مماثلة: لذا فالتركيز منصب على وظيفة الإجراءات والقواعد لحل النزاعات السياسية. من بين الأسئلة الرئيسة: إلى أي حد يستلزم السياق السياسي قواعد إضافية، وإلى أي حد يستلزم صياغة خاصة لقواعد عامة، وإلى أي حد يعد ضروريا ومبررا قصد الإقرار بقيود معينة على قابلية تطبيق القواعد العامة لنقاش نقدي. أسئلة مخصوصة تكمن، على سبيل المثال، في كيف تستعمل خطاطات حجة متنوعة في سياق سياسي؟ وبأي طريقة تحتاج الحجاج التداولية أن تحلل وتقوم في مثل هذا السياق؟ وما التقنيات الجدلية والبلاغية التي يستعملها بعض السياسيين لإقناع مستمعيهم؟

abstract philosophy	فلسفة مجردة
adherence	انخراط
analytical component	مكون تحليلي
antagonism	ادعاء-الدعوى
argument scheme	خطاطة الحجة
argumentation stage	مرحلة الحجاج
argumentation structure	بنية الحجاج
argumentation theory	نظرية الحجاج
argumentative discourse	خطاب حجاجي
Argumentative Discussions	قرارات حجاجية
argumentative indicators	مؤشرات حجاجية
argumentative language use	استعمال حجاجي للغة
argumentative procedures	إجراءات حجاجية
argumentative process	سيروة حجاجية
argumentative reality	واقعية حجاجية
argumentative reasonableness	معقولة حجاجية
argumentative skills	مهارات حجاجية
argumentative speech act	فعل خطابي حجاجي
categories	مقولات
classical rhetoric	بلاغة قديمة
classical Roman argumentation theory	نظرية حجاجية رومانية تقليدية
commitment	تعهد-التزام

complex argumentation	حجاج مركب
Conceptions of reasonableness	تصورات المعقولية
concessions	تنازلات
conciliatio	توفيق
concluding stage	مرحلة الختم
conditional constraints	قيود شرطية
conditional motivated	شرطي مبرر
confrontation stage	مرحلة المواجهة
contextual judgments	أحكام سياقية
contextual specification	تخصيص سياقي
conventional validity	صدق مواضعاتي
conversation analysis	تحليل المحاورة
conversational rationality	عقلانية حوارية
coordinate	عطف - ربط
critical discussion	نقاش نقدي
critical function	وظيفة نقدية
critical ideal	مثالية نقدية
critical judge	حكم نقدي
critical rationalist	عقلانية نقدية
critical standards	معايير نقدية
deletion	حذف
demarcation	فصل
derailments	منزلاقات
dialectical analysis	تحليل جدلي
dialectical approach	مقاربة جدلية

dialectical framework	إطار جدلي
dialectical objective	هدف جدلي
dialectical perspective	منظور جدلي
dialectical reasonableness	معقولة جدلية
dialectical requirement	مطلب جدلي
dialectical standard	معيار جدلي
dialectical techniques	تقنيات جدلية
dialectical theoretical framework	إطار نظري جدلي
dialectification	نزعة جدلية
disagreement	لا تطابق
discourse analysis	تحليل الخطاب
discursive context	سياق خطابي
discussion stage	مرحلة مناقشة
empirical component	مكون تجريبي
empirically oriented approach	مقاربة موجهة تجريبيا
epistemic beliefs	اعتقادات إبستمية (معرفية)
evaluation	تقويم
everyday argumentative discourse	خطاب حجاجي يومي
externalisation	نزعة خارجية
Fallacies	مغالطات
fallacious argumentative discourse	خطاب حجاجي مغالط
fallacious moves	نقلات مغالطة
fallacy judgements	أحكام مغالطة
formal dialectical logicians	مناطق جدلين صوريين
formalization of logic	صورة المنطق

full-fledged argumentative strategy	استراتيجية حجاجية جاهزة
functionalisation	نزعة وظيفية
Greek argumentation theory	نظرية حجاجية يونانية
implicit premise	مقدمة منطقية ضمنية
Institutional argumentation	حجاج مؤسساتي
interactional functions	وظائف تفاعلية
intersubjective validity	صدق بين - ذاتي
juridical setting	مقام قضائي
justification of legal decisions	تبرير قرارات قانونية
justificatory potential	إمكانية تبريرية
legal argumentation	حجاج قانوني
legal audience	مستمع قانوني
legal discourse	خطاب قانوني
legal theory	نظرية قانونية
logical derivations	اشتقاقات منطقية
logical perspective	منظور منطقي
logical requirement	شرط - مطلب منطقي
meta-theoretical starting-points	منطلقات متا - نظرية
minimal logical perspective	منظور منطقي أدنى
modern rhetoric	بلاغة معاصرة
move	نقطة
norm of logical validity	معيار الصدق المنطقي
normative pragmatics	تداوليات معيارية
opening stage	مرحلة الافتتاح
paradigm	أنموذج

particularities of argumentative reality	خصائصات الواقعية الحجاجية
persuasion	إقناع
political setting	مقام سياسي
potential verbal indicators	مؤشرات كلامية كامنة
practical component	مكون تطبيقي
pragma-dialectical analysis	تحليل تداولي-جدلي
pragma-dialectical ideal model	نموذج مثالي تداولي - جدلي
pragma-dialectical norms	معايير تداولية - جدلية
pragma-dialectical rule	قاعدة تداولية - جدلية
pragma-dialectical theory	نظرية تداولية - جدلية
pragmatic argumentation,	حجاج تداولي
pragmatic arguments	حجج تداولية
pragmatic features	سمات تداولية
Pragmatic linguistics	لسانيات تداولية
pragmatic speech act	فعل خطابي تداولي
propositional content	محتوى قضوي
protagonists	مؤيد
realistic insight	تبصر واقعي
reasonable arguer	محاجج عقلاني
Reconstructing Discourse	إعادة بناء الخطاب الحجاجي
relational indicators	مؤشرات علاقية
resolution process	سيرورة الحل
rhetorical analogue	قياس - تشبيه بلاغي
rhetorical analysis	تحليل بلاغي



rhetoical complement	مكمل بلاغي
rhetoical techniques	تقنيات بلاغية
situated argumentative acting	فعل حجاجي موضح
social psychology	علم النفس الاجتماعي
socialisation	نزعة اجتماعية
sound argumentation	صوت الحجاج
sound strategic manoeuvring	صوت المناورة الاستراتيجية
specific communicative function	وظيفة تواصلية خاصة
specific legal criteria of rationality	معايير قانونية خاصة للعقلانية
speech act	فعل لغوي - فعل خطابي
standpoint	وجهة نظر
strategic design	تخطيط استراتيجي
strategic manoeuvring	مناورة استراتيجية
systematic empirical insight	تصور تجريبي نسقي
systematic inventory	مخزون نسقي
Systematic Theory of Argumentation	نظرية نسقية للحجاج
theoretical component	مكون نظري
traditional fallacies	مغالطات تقليدية
unexpressed premise	مقدمة منطقية غير معبر عنها
violation	خرق
virtual standpoints	وجهات نظر افتراضية

- Barth, E. M. and E. C. W. Krabbe: 1982, *From Axiom to Dialogue: A Philosophical Study of Logics and Argumentation*, Walter de Gruyter, Berlin/New York.
- Biro, J. and H. Siegel: 1992, 'Normativity, Argumentation and an Epistemic Theory of Fallacies', in F. H. van Eemeren, R. Grootendorst, J. A. Blair and C. A. Willard (eds.), *Argumentation Illuminated*, Sic Sat, 1, Amsterdam, 85–103.
- Eemeren, F. H. van (ed.): 2001, *Crucial Concepts in Argumentation Theory*, Amsterdam University Press, Amsterdam.
- Eemeren, F. H. van (ed.): 2001, *Advances in Pragma-Dialectics*, Sic Sat/Vale Press, Amsterdam/Newport News, VA.
- Eemeren, F. H. van and R. Grootendorst: 1984, *Speech Acts in Argumentative Discussions: A Theoretical Model for the Analysis of Discussions Directed towards Solving Conflicts of Opinion*, Foris/Mouton de Gruyter, Dordrecht/Berlin.
- Eemeren, F. H. van and R. Grootendorst: 1988a, 'Rationale for a Pragma-dialectical Perspective', *Argumentation* 2, 271–291.
- Eemeren, F. H. van and R. Grootendorst: 1988a, 'Rules for Argumentation in Dialogues', *Argumentation* 2, 499–510.
- Eemeren, F. H. van and R. Grootendorst: 1992, *Argumentation, Communication, and Fallacies: A Pragma-Dialectical Perspective*, Lawrence Erlbaum, Hillsdale, NJ.
- Eemeren, F. H. van and R. Grootendorst: 2003, *A Systematic Theory of Argumentation. The Pragma-Dialectical Approach*, Cambridge University Press, Cambridge.
- Eemeren, F. H. van and R. Grootendorst (eds.): 1994, *Studies in Pragma-Dialectics*, Sic Sat, 4, Amsterdam.

- Eemeren, F. H. van, R. Grootendorst, S. Jackson and S. Jacobs: 1993, *Reconstructing Argumentative Discourse*, The University of Alabama Press, Tuscaloosa/London.
- Eemeren, F. H. van, R. Grootendorst, S. Jackson and S. Jacobs: 1997, 'Argumentation', in T. A. van Dijk (ed.), *Discourse as Structure and Process. Discourse Studies: A Multidisciplinary Introduction. Volume I*, Sage, London, 208–229.
- Eemeren, F. H. van, R. Grootendorst, A. F. Snoeck Henkemans, J. A. Blair, R. H. Johnson, E. C. W. Krabbe, Chr. Plantin, D. N. Walton, C. A. Willard, J. Woods and D. Zarefsky: 1996, *Fundamentals of Argumentation Theory: A Handbook of Historical Backgrounds and Contemporary Developments*, Lawrence Erlbaum, Mahwah, NJ.
- Eemeren, F. H. van, R. Grootendorst and A. F. Snoeck Henkemans: 2002, *Argumentation: Analysis, Evaluation, Presentation*, Lawrence Erlbaum, Mahwah, NJ.
- Eemeren, F. H. van and P. Houtlosser: 1998, 'Rhetorical Rationales for Dialectical Moves: Justifying Pragma-dialectical Reconstructions', in J. F. Klumpp (ed.), *Argument in a Time of Change: Definitions, Frameworks, and Critiques. Proceedings of the Tenth NCA/AFA Conference on Argumentation*. Alta, Utah, August 1997, National Communication Association, Annandale, VA, 51–56.
- Eemeren, F. H. van and P. Houtlosser: 1999, 'Strategic Manoeuvring in Argumentative Discourse', *Discourse Studies* 1, 479–497.
- Eemeren, F. H. van and P. Houtlosser: 2000a, 'Rhetorical Analysis within a Pragma-dialectical Framework', *Argumentation* 14, 293–305.
- Eemeren, F. H. van and P. Houtlosser: 2000b, 'Managing Disagreement: Rhetorical Analysis within a Dialectical Framework', *Argumentation and Advocacy* 37, 150–157.

- Eemeren, F. H. van and P. Houtlosser: 2002, 'Strategic Maneuvering: Maintaining a Delicate Balance', in F. H. van Eemeren and P. Houtlosser (eds.), *Dialectic and Rhetoric: The Warp and Woof of Argumentation Analysis*, Kluwer Academic Publishers, Dordrecht, 131–159.
- Eemeren, F. H. van and P. Houtlosser: 2003, 'The Rhetoric of William the Silent's Apologie: A Dialectical Perspective', in L. Komlósi, P. Houtlosser and M. Leezenberg (eds.), *Communication and Culture. Argumentative, Cognitive and Linguistic Perspectives*, Sic Sat, Amsterdam. Also published in: T. Suzuki, Y. Yano and T. Kato (eds.), *Proceedings of the 1st Tokyo Conference on Argumentation*, Japan Debate Association., Tokyo, 37–40.
- Eemeren, F. H. van and P. Houtlosser (eds.): 2002, *Dialectic and Rhetoric: The Warp and Woof of Argumentation Analysis*, Kluwer Academic Publishers, Dordrecht.
- Eemeren, F. H. van, B. Meuffels and M. Verburg: 2000, 'The (Un)reasonableness of the Argumentum Ad Hominem', *Language and Social Psychology* 19, 416–435.
- Hamblin, C. L.: 1970, *Fallacies*, Methuen, London. Reprinted at Vale Press, Newport News.
- Jackson, S.: 1995, 'Fallacies and Heuristics', in F. H. van Eemeren, R. Grootendorst, J. A. Blair and C. A. Willard (eds.), *Analysis and Evaluation. Proceedings of the Third ISSA Conference on Argumentation* (University of Amsterdam, June 21–24, 1994), Volume II, Sic Sat. Amsterdam, 257–269.
- Jackson, S. and S. Jacobs: 1980, 'Of Conversational Argument: Pragmatic Bases for the Enthymeme', *Quarterly Journal of Speech* 66, 251–265.
- Jacobs, S.: 1982, *The Rhetoric of Witnessing and Hackling: A Case Study in Ethnorhetoric*. Ph.D. dissertation. University of Illinois at Urbana-Champaign.
- Jacobs, S. and S. Jackson: 1981, 'Argument as a Natural Category: The Routine Grounds for Arguing in Natural

Conversation', *Western Journal of Speech Communication* 45, 118–132.

Jacobs, S. and S. Jackson: 1982, 'Conversational Argument: A Discourse Analytic Approach', in J. R. Cox and C. A. Willard (eds.), *Advances in Argumentation Theory and Research*, Southern Illinois University Press, Carbondale, IL, 205–237.

Jacobs, S. and S. Jackson: 1983, 'Strategy and Structure in Conversational Influence Attempts', *Communication Monographs* 50, 285–304.

Johnson, R.: 2000, *Manifest Rationality. A Pragmatic Theory of Argument*, Lawrence Erlbaum, Mahwah, NJ.

Leff, M.: 2000, 'Rhetoric and Dialectic in the Twenty-first Century', *Argumentation* 14, 241–254.

Toulmin, S. E.: 2001, *Return to Reason*, Harvard University Press, Cambridge, Mass.

Walton, D. N. and E. C. W. Krabbe: 1995, *Commitment in Dialogue: Basic Concepts of Interpersonal Reasoning*, State University of New York Press, Albany, NY.

Willard, Ch. A.: 1995, *Liberal Alarms and Rhetorical Excursions. A New Rhetoric for Modern Democracy*, University of Chicago Press, Chicago

/

# البلاغة الخاصة : قراءة في حجاجية الشعري

## قصيدة ( لا تصالح ) لأمل دنقل أنموذجا

عيد بلبع<sup>(\*)</sup>

### الملخص

التحليل البلاغي منهج وصفي يقوم على تتبع الظواهر وليس على تطبيق القواعد، ومن هنا تنشأ فكرة البلاغة الخاصة، فالخصوصية إنما هي تتبع الاستعمال الخاص للغة الذي يؤدي الغاية الخاصة من الخطاب بنجاعة، وتقوم هذه الدراسة على تحليل خصائص أساليب الأفعال الكلامية وجمعها بين الشعري التأثري والخطابي الحجاجي في قصيدة ( لا تصالح ). الكلمات المفتاحية: البلاغة الخاصة، الحجاج، الشعرية، الأسلوبية، أفعال الكلام.

The rhetorical analysis is a descriptive approach based on exploring the phenomena and not applying norms, from this point arises the special rhetoric idea, as being special is a result of exploring the special use of language that achieves the intended goal of the discourse effectively. This paper intends to analyze the merits of the verbal act style and how it combines the two goals; emotional poetical goal and argumentative pleading goal in the poem: (Don't accept peace) "LaaTosaleh"

**Keywords:** special rhetoric – Pleading – Poeticism – Stylistics – Verbal acts

### تمهيد : الحدث التاريخي بين سياقين

لا نستطيع أن نُنحّي معرفتنا التاريخية عن جذور النص البعيدة الضاربة في أعماق تاريخ العرب قبل الإسلام، ولنقف من هذه الجذور على لحظة النهاية التي تقمصها الشاعر

(\*) عيد بلبع، أستاذ التعليم العالي، جامعة المنوفية، مصر، تخصص: البلاغة والنقد.

مختزلاً أقوال كليب' ووصاياه في هذا النهي: 'لا تصالح'<sup>(1)</sup>، فجعله فاتحة الوصايا العشر التي تنحصر - في جوهرها - في وصية واحدة لا تتجاوز هذا النهي الصريح: 'لا تصالح'، كما أننا لا نستطيع - في الوقت نفسه - أن ننحي معرفتنا التاريخية القريبة عن الموقف السياسي المتمثل في معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، بوصفه دافعاً لهذا التوظيف الفني للحدث القديم، فإن الذي يدفع إلى استحضار الحدث التاريخي بغرض توظيفه أمران:

- استثمار الحدث نفسه بغرض حجاجي لما فيه من مواقف مثيرة تُعمق الإحساس ببعض المواقف والقضايا وتوجه المتلقي إلى تبني موقف الرفض.
- استثمار التشابه بين الحدث التاريخي وبعض أحداث الواقع المعاش التي قد تكون مفروضة سلطوياً، مفروضة جماهيرياً، وهنا يأتي استحضار الحدث وتوظيفه غمطاً خاصاً من التعمية ومراوغة السلطة القمعية.

ومن الضروري أن تكون هناك بعض نقاط الالتقاء بين الحدث التاريخي والحدث الجديد يتم التلميح لها بإشارات لغوية تأتي بمثابة المفاتيح التي تساعد على استحضار العلاقة بين الواقع الحاضر والحدث التاريخي، وقد يكون الحدث التاريخي هو المشهد الكامل والتلميحات المفتاحية تشير إلى أحداث الواقع الجديد، وقد يكون عكس ذلك، وفق رؤية الشاعر ومساحة التشابه ونسبية الحرية والقمع السلطوي.

ولم تعتمد قصيدة لا تصالح على هذه المفاتيح بقدر ما اعتمدت على سياق التلقي، إذ كان أكبر اعتماد للقصيدة على وعي الجمهور، فالتلقي وقتها كان جمهوراً عريضاً، لذيق المواقف المعارضة للتصالح مع العدو الصهيوني.

وعلى الرغم من يقيننا بأن النص له خلفيتان فإن النص وجوداً ثالث له ملامحه الخاصة مهما تأثرت برافديه، إذ لا يمكن أن يكونهما أو يكون أحدهما، ومن ثم فلا جدوى للجهود الذي يحاول أن يطبق ظواهر النص على المشهد التراثي أو على المشهد الحديث تطبيقاً حرفياً، فهما وجود نسبي آخر في النص مهما برز حضور ملامحهما متكئة على فيض

(1) أمل دنقل. الأعمال الشعرية. القاهرة. مكتبة مدبولي. دون تاريخ. ص 393-408

خلفيات الذاكرة، فإبراز الخلفية التاريخية إنما هو توظيف حجاجي للحدث بإعادة صياغته لغة شديدة الخصوصية يتحول فيها الحدث إلى حجة توجه الحاضر.

## منهجية البحث

لكل خطاب بلاغته الخاصة المرتبطة ببواعثه وغاياته، والمرتبطة بخصوصياته الأسلوبية التي تؤدي أغراضه التواصلية، ومنهجية الدراسة تتحدد في تتبع مظاهر الخصوصية الأسلوبية وتحليلها والوقوف على الآليات التي يؤدي بها الاستعمال الخاص للغة الغاية من الخطاب.

نؤكد بهذا المستهل على حقيقة منهجية نتعهدنا وننتقل منها، تتحدد في ضرورة تحلي مقاربات تحليل الخطاب بالمرونة والنسبية لتناسب مع التجليات الخاصة للظاهرة اللغوية المتجددة المتمردة على الرتبة وصرامة المنهج، الشائنة على الضوابط النظرية، فالظاهرة الأدبية تحمل من الظلال والإيحاءات ما لا يمكن ضبطه منهجيا ضبطا تاما، ولكنها لا تستعصي على نهج تتبع الوصفي التحليلي، فلا أعني بهذا: الزهد التام في النظريات والمناهج، ولكن فقط أؤكد على المرونة والنسبية التي يصلح لها إجراء المنهجية، ونعني به مراعاة التطبيق المنهجي لخصوصية الخطاب التي تستلزم حرية في الانتقائات المنهجية بما يتناسب مع خصوصية الظاهرة، فالمنهجية خصوصية مؤسسة على ضوابط منهجية، ولكنها تراعي أن تحليل الخطاب نهج وصفي يقوم على تتبع الظواهر وتجليات خصوصيتها وليس تطبيقا آليا لقواعد.

وهذا يتطلب وعيا كبيرا بالبلاغة الخاصة للنص وظواهره، كما يتطلب وعيا كبيرا أيضا بالمنهج وأدواته وإجراءاته، وهذان الوعيان هما المنبع الذي يستمد منه الناقد مشروعية اقتراح المنهجية الخاصة للنص والظواهر موضوع الدراسة التي تتشكل ملامحها باستكشاف آثار الجدل بين المنهج والظاهرة الذي يقوم عليه التحليل.

فليس من الصواب أن نفصل النص عن استدعاءاته المنهجية التي تتواءم مع ظواهره التي تشكل منها، فالنص ممارسة قرائية للناقد قبل أن يكون مادة للتحليل والدراسة، ولكنها



ممارسة أكثر وعيا وأعمق رؤية، فخلال هذه الممارسة يتم الوقوف على الظواهر الفاعلة في النص، ثم إن الظواهر تستدعي منهجية معالجتها وتقترحها اقتراحا، والنظرة المنهجية لقراءة الظواهر تستجيب لمقترحات النص وظواهره الأكثر حضورا وتفاعلا، ومن خلال هذا النشاط القرائي يتم تحديد المداخل المنهجية الأجدى في استنطاق هذه الظواهر، ومن خلال هذه العلاقة الجدلية بين المنهج والظاهرة يتم الوقوف على الكيفية التي أدت بها الظواهر فاعليتها في تحقيق غايات النص.

ولهذه الأسباب تأتي هذه العناصر جميعها بمثابة المداخل المنهجية المناسبة لإجراء تحليل القصيدة بوصفها خطابا يغلب عليه الحجاج البلاغي، فليس ثم من شك في أن طبيعة استعمال اللغة في هذا النص متداخلة الوسائل والأغراض بحيث لا يمكن الفصل بينها، فالإنجازيات بمستوياتها والتوجيهيات والتحذيريات وغيرها من أفعال الكلام هي من وجهة أخرى أساليب تحتفظ بتكثيفاتها البلاغية على المستويين الحجاجي والجمالي، ومن ثم يأتي التداخل بين الرؤى المنهجية ضرورة تفرضها أساليب النص وغاياته التواصلية، ولهذا جاء تحليل الخطاب هنا مرتكزا على مدخل تكاملي له منهجيته الخاصة الموزعة في مبحثين، جاء المبحث الأول مهادا نظريا يتضمن المداخل المنهجية، وجاء الثاني رؤية تحليلية تجمع بين أفعال الكلام وأسلوبيات بناء الحجة، آملين أن نوفق في بيان الضرورة المنهجية التي اقترحت نمطا خاصا من التكامل بين هذه المداخل في قراءة هذا القصيدة.

## **المبحث الأول: مهاد نظري ومداخل منهجية**

### **1- حجاجية الشعري**

الحقيقة والصدق والصواب مفاهيم تتداخل وتتماس وتتطابق أحيانا، وتستدعي قراءة هذه المفاهيم تأمل مستويات مطابقة الكلام: بين مطابقته للواقع ومطابقته لاعتقاد المتكلم، ولعل قصيدة (لا تصالح) تطرح بُعدا آخر لعله الأنسب لخطابها الحجاجي، يتحدد فيما يمكن أن نطلق عليه: خطاب الموقف لا خطاب الحقيقة ولا خطاب الصواب، ولا يعمد إلى مطابقة الواقع ولكنه يتماس مع اعتقاد المتكلم، ولا نستطيع أن نجزم بمطابقته إياه،

فخطاب الموقف ليس بالضرورة مطابق لاعتقاد المتكلم ولكنه - في الحقيقة - مطابق لرغبة المتكلم، فقد تقوّد بواعثه لاتخاذ موقفٍ والحاجة له غايةً نفعيةً هي في الحقيقة رغبة المتكلم. ولا تخضع مراوغة الظاهرة لمعيار العَمْد في مغايرة الواقع أو الخطأ الذي يقصد المتكلم فيه الصدق فيُخطئ ويأتي بغيره، وليس المجاز - على النحو الذي رآه د. طه عبد الرحمن - دليلاً على أن الكذب ليس سوى مخالفة الاعتقاد للواقع<sup>(1)</sup>، فللصواب وجه آخر، فإذا كانت مطابقة الاعتقاد للواقع صدقاً دائماً فإن العكس ليس صحيحاً؛ لأن مخالفة الاعتقاد للواقع ليست كذباً دائماً فقد تأتي هذه المخالفة بسبب الخطأ أو بسبب آخر، وقد تكون مخالفات الواقع ومخالفات اعتقاد المتكلم راجعة إلى غلط من مراوغة السلطة في السياقات القمعية تجنباً لإكراهات القمع والتسلط، فيذهب الأمر بعيداً عن احتمالات المنظرين جميعها، وهذا المسلك في الغالب هو شأن الخطاب الفني الذي لا يعطي الحقيقة كاملة أو سافرة.

وتأسيساً على هذا نجد أن القول باعتقاد المتكلم يتحطم في الخطاب الفني الذي يصل الأمر فيه أحياناً إلى اتفاق سياقي بين المتكلم والمتلقين على مخالفة الحقيقة إذ يأتي في شرط المجاز - مثلاً - وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الحرفي، والمعنى الحرفي هو في الغالب مطابقة الواقع، ونخلص من هذا النقاش إلى أن الاستعمال الفني للغة خطابة وشعراً سياقاً خاصاً لاستعمال اللغة ينأى عن الانشغال بالبعد الأخلاقي للكذب<sup>(2)</sup> الذي هو كل قول ترافقه الرغبة في التزوير<sup>(3)</sup>، فإذا كان ثمّ تأثير أو إنجاز في القول الذي يرى كاذباً فإنه لا ينبغي على اعتقاد المخاطب بصدق المتكلم، وفق ما ذهب إليه بعض التداوليين<sup>(4)</sup>؛ لأنهم في هذا لم ينصرفوا إلى تحليل الظواهر في الاستعمال الفني للغة، ومن ثمّ تنتهي من هذا كله إلى

(1) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدكتور. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط3، 2012م ص 52

(2) توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ترجمة غيداء العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2012م. ص 494

(3) هراولداينرش، اللغة والكذب، ترجمة أ.د. عبد الرزاق بنور، دار كنوز المعرفة، عمان الأردن، ط1، 2016م، ص 53

(4) آن ريبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ترجمة د. سيف الدين دغفوس، د. محمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت - لبنان، ط1، 2003م، ص 39 - 40

الخصوصية الشديدة التي يتسم بها الاستعمال الفني للغة، أو قل استعمال الوظائف المضاعفة.

وإذا كنا نحاول تجلية مظهر من مظاهر التداخل والاضطراب المحتملين في الرؤية التحليلية للقصيدة، فإنه يتعين علينا أن نُقرّ بوجود غمط آخر من التداخل ولكنه تداخل فني متعمّد تملّيه إكراهات سياقية، فالقصيدة موضوع الدراسة تجمع بين الخطابي الحجاجي والتخييلي المفعم بالحجاجي أيضاً، وهذه الحقيقة تستلزم منا تتبع الظواهر وتحليلها وفق خصوصياتها الأسلوبية وتضافر غاياتها بين التأثير والإقناع، أي بين الشعرية والخطابية.

إن سياق الخطابة هو سياق الحقيقة وإن خالف الحقيقة إلى حد الترويج للباطل الصريح بخرق الضوابط السياقية، ومن الممكن أن نطلق عليه السياق الجاد إذ تتعلق الخطابة عادة بالأمور الجادة مهما كانت احتفالية، فأبعاد الإقناع البرهانية أو الإيهامية لا تغيب عن الخطابة بوصفها تواصلاً في المقامات الجادة، والتراوح بين البرهان والإيهام يضع الخطابة في منطقة الاحتمال؛ إذ لا يخرج الخطيب من منطقة الاحتمال حتى ولو حشد أكثَر الحُجج صلابَةً وواقعية ومنطقية<sup>(1)</sup>.

وإذا كان هذا شأن الخطابة في الاحتمال فإن الشعر أكثر عرضة للاحتفالية واتساما بها إذ يتأسس الشعري على التخيل باعتبار السمة السائدة، ولكن قصيدة (لا تصالح) لم تخلص للتخيل الإثاري الجمالي بل تكاد تخلص - بطريقتها الخاصة - للخطابي ومجافة الاحتفالي، فهي قصيدة موقف يطوع له ما وسعه من الضواغط الأسلوبية برهنة وتخبيلاً، ومن ثم تنتفي الاحتفالية تماماً عن القصيدة بتحويلها إلى خطاب تشويري تحريضي بدخوله في سياق جاد، ويأتي التخيلي موظفاً توظيفاً حجاجياً في هذه القصيدة بدرجة فائقة.

إن الشعري ينزع في الغالب نحو التخيل أما الخطابي فينزع في الغالب أيضاً نحو التصديق باجتلاب الحُجج، فإنهما معا على مستوى الممارسة الفعلية والإنجاز متداخلان، فهما - كما أشار د. العُمري - جناحاً البلاغة يتوغلان في جدعها، ويلتصقان بعمودها

(1) د. محمد العمري، المغالطة في فضاء الاحتمال، سياقات، N.S.P. العدد الخامس أبريل 2017م، ص 9

الفكري، تخيل مصدق، و تصديق مخيل، وكمال البلاغة في هذا التقاطع<sup>(1)</sup>، فالتخيل ليس برهانا ولا قياسا ولكنه يمكن أن يكون حجة، والحجة تأتي دائما داعمة لموقف: قبول أو رفض، إذ يختلط فيها الحجاجي العقلي بالتأثيري العاطفي إلى حد يدخل فيه التأثيري العاطفي والتخيلي ضمن ركائز الحجاج، ومن ثم يختلف مفهوم الحجاج عن البرهان والاستدلال المنطقي؛ فالاستدلال المنطقي حتمي وضروري لأسباب منطقية، أما الحجاج فهو احتمالي<sup>(2)</sup>، فنحن نحتج على احتمال نزول المطر بظهور الغيوم بكثافة شديدة، فهذا حجاج أو استدلال طبيعي غير برهاني وغير حتمي الوجود، وهو استنتاج احتمالي يتأسس على المعرفة الطبيعية للعلاقة بين الغيوم والمطر، والحدوث المتكرر لنزول المطر مع تكشف الغيوم، ولكنه يبقى في منطقة الاحتمال مهما قويت.

إن الحجاج في الاستعمال الفني للغة لا يكون على هذا المستوى من الصرامة التي حددها ديكر في حديثه عن المستوى الحجاجي في أفعال الكلام ذاهبا إلى أن فعل الحجاج يفرض على المخاطب نمطا معينا من النتائج باعتباره الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير فيه الحوار، والقيمة الحجاجية للقول ما هي إلا نوع من الإلزام يتعلق بالطريقة التي ينبغي أن يسلكها الخطاب بخصوص تنامي واستمراره<sup>(3)</sup> فهذه المحاصرة الحجاجية قد تصلح في الحوار التواصل في غير السياق الفني الذي يتمازج فيه الجمالي بالحجاجي، ويتعاقب فيه الحقيقي بالتخيلي ليتسم الخطاب بنسبية الحقيقة ونسبية الصدق كما أشرنا.

## 2- الخطاب الحجاجي في قصيدة (لا تصالح)

يصرح الشاعر من عنوان القصيدة بأنها وصايا فهي (الوصايا العشر)، والوصايا أوامر ونواه جاءت في حوار تخيلي قوامه استعمال الحيل الأسلوبية وتوظيف الأحداث لبناء حجج تهدف - ظاهريا - إلى إثراء المخاطب الحاضر على مستوى الوجود النحوي عن

(1) المرجع السابق نفسه ص 9 ، 10

(2) د. ابو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ط 1 المملكة المغربية 2006م، ص 14 ، 15

(3) المرجع السابق نفسه ص 16

العمل بمقتضى الطلب المحوري في القصيدة المصاغ في أسلوب النهي "لا تُصالح"، بالإضافة إلى حيل أسلوبية مضادة ضاغطة مهيئات للعمل على إنجاز الطلب نفسه.

ولكن المخاطب المباشر في القصيدة ليس هو المقصود بالخطاب الحجاجي في هذه الأفعال الكلامية التوجيهية، ونقصد المخاطب على المستوى النحوي المتمثل في الضمائر المستترة والظاهرة، المتصلة والمنفصلة، فتوجيه الكلام لمخاطب مفرد هو أحد مستويات المغالطة المقصودة في مخطط القصيدة بوصفها خطابا تفاعليا، لا يستهدف المخاطب نحويا بل يستهدف المتلقي الجماعي المخاطب سياقيا والذي يمثل جمهور المتلقين، فالقصيدة تستثمر استثمارا واعيا النوازع النفسية الذاتية للرفض عند جمهور المتلقين الذي يمثل شريحة المثقفين المتلقين، وهذا الاستثمار يدخل في البعد الحجاجي الذي يُطلق عليه الباتوس (Pathos)<sup>(1)</sup> ويعتمد على استجابات الملامح النفسية النزوعية للمتلقين<sup>(2)</sup>، ويُنظر إليه على أنه عنصر نفسي يمكننا البحث في أغواره من فهم أوسع وأكثر نجاعة وفاعلية خطابية لعملية التلقي<sup>(3)</sup>، ومن هنا نراه عاملا أساسيا في المؤثرات الحجاجية التي ترمي في قصيدة (لا تصالح) إلى قصد الرفض والتثوير، وهذا القصد يتحدد في التشويه والإحراج والمسخ بالكشف عما تراه القصيدة تحاذلا وتصاغرا وخيانة وعمالة، وهذا ما أشرنا إليه آنفا ببلاعة خطاب الموقف الذي يقوم فيه الخطاب بتصدير الموقف إلى المتلقي بالإثارات النفسية المعتمدة على ضواغط أسلوبية.

إن مقاصد التشويه والإحراج التي تحملها لغة الخطاب الخاص هنا تأتي مقدمة حجاجية ترمي إلى إقناع المخاطب الحقيقي المستهدف (الغائب على المستوى النحوي، في

(1) الباتوس والإيتوس هما العنصران النفسيان في بلاغة أرسطو فالإيتوس يمثل سيكولوجية البات، ويمثل الباتوس سيكولوجية التلقي، فأرسطو يرى أن الخطيب يصبح مقنعا بسبب الثقة التي يفرغها عليه الجمهور نتيجة تملك الخطيب ناصية الخطابة وفنون الاستدراج الفعالة، وذلك يتميز الخطيب بكونه سديدا وفاضلا وبارا. يراجع محمد الولي، السبيل إلى البلاغة الباتوسية الأرسطية، منشور ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته ج-2، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010م، ص60

(2) محمد الولي، السبيل إلى البلاغة الباتوسية الأرسطية، المرجع السابق والصحيفة.

(3) فانت بن سالم، دور السياق في صناعة المغالطة وتحديدها، مجلة سياقات، العدد 5 أبريل 2017م ص121

الاسم الظاهر والضمائر، والمتمثل في الجمهور المثقف) ليتبنّى موقف الرفض، ولا يقف طموح الحجاجي عند حدود موقف الرفض الصامت أو الرفض النفسي، بل تتضمن آلياته الحجاجية وسائلَ شحْنِه انفعاليا بالغضب بُغْيَة تحقيق الاحتقان الذي يهدف الخطاب منه إلى التثوير، فلا يكتفي الخطاب بتشويه الواقع بل يتعداه إلى تشويه المحتمل، فلا يرفض الواقع المعروف بل يرفض الأسباب المحتملة التي من شأنها أن تسوغ هذا الواقع أو تبرره.

لا يسلم النص من تداخل الغايات، ومن أعقد تداخلات الغايات أن تتداخل الغاية التأثيرية التي تخاطب العاطفة وكوامن الوجدان بمؤثرات المشاعر والإحساس مع الغاية الإقناعية التي تخاطب العقل بالحجة والبرهان، فهذا الخطاب هو تحوُّلٌ بالإقناعي (الخطابي، الحجاجي) إلى شعري على سبيل المغالطة بتداخل الغايات، إذ تصير الوسائل الأسلوبية حججا تخيلية شعرية ليست برهانا يستند إلى قياس أو استدلال، أي لا يستند إلى حقيقة، فهذه الحجاج البلاغي الخطابي ليس هو الإلزام والقسر، بل هو حمل المخاطب على الإذعان والتسليم بإثارة نزعة القبول والرضا، وبهذا يأتي اصطناع الشعري لتحقيق غاية إقناعية هو في حقيقة الأمر محاولة ترسيخ موقف نفسي بُغْيَة التحول به إلى إنجاز، على سبيل اصطناع الوسائل الشعرية التخيلية في الخطاب الحجاجي فيما يمكن أن تُطلق عليه الارتياح أو الرضا، حتى لو كان على سبيل الإذعان والتسليم لانقطاع الحجة المضادة، ويأتي استعمال كلمة "الارتياح" الفضفاضة الأنسب، فهو إحداث اضطراب (خلط - اختلال) نفسي متعمد يختلط فيه العاطفي بالعقلي في موقف المتلقي، يتراوح بين الارتياح والرضا والقبول الوجداني من ناحية والافتناع والقبول العقلي من ناحية أخرى، أي بين المتعة والافتناع.

أما تداخل الشعري في الخطاب الإقناعي على سبيل الاستشهاد بالتضمين والاقتراس، فهو في الغالب تدعيم الحجاج الخطابي بالشواهد الشعرية، هو من المدعمات التي تحقيق نوعا من التأييد والأرجحية، الانتشاء، الاستعطاف (استحضار عاطفة)، ويدخل في هذه الغاية ضرب الأمثلة الذي يكون غالبا من المدعمات.

إن تحول الخطاب الشعري إلى الغاية الإقناعية هو تحول في التقسيم المعروف، إذ ينأى بالشعري عن الوظيفة الإمتاعية الخالصة، وتجاوز الغاية الجمالية، بوصفها غاية وحيدة،

فتداخل الغايات بين تحقيق الاقتناع العقلي والتأثر الوجداني العاطفي تبعا لتداخل الوسائل الأسلوبية بين البراهين والحجج والمؤيدات والمدعمات.

الخطابة ومن ثم البلاغة (الحجاج) انفلات من صرامة الحقيقة إلى الاحتمال والنسبية، وهذا يمثل الفرق بين الحقيقة في ذاتها، وصياغة الحقيقة خطائيا، فالإطلاق هو الملائم للحقيقة، أدركته أم لم تدركه، والنسبية هي الملائمة للجمال والتأثير اللذين يحققان الاستمالة وقد يكونان مغايرين للحقيقة، كما أن النسبية هي الملائمة أيضا للإقناع؛ لأن الإقناع لا ينبني دائما على المصادقة بين الحجة والواقع، فليست الحجة القولية مطابقة لوجود الحقيقة في الواقع، وإنما هي مرهونة بنسبية القبول المرهونة بنسبية سداد الأسلوب، فالحجة الخطابية إذن نسبية، تقريبية، احتمالية، والتناسب نسبي نسبية متفاوتة متراوحة بين نسبية جلاء الحقيقة ونسبية نجاعة الحجة ونسبية تأثير الجمالي، ومن ثم فهي مرهونة بغاية نفعية يرتبط تحققها بمدى إصابة الحجة وسدادها، وليس مرهونا بصدق وكذب، وليس مرهونا بحق وباطل، بل قد تكون مرهونة بإيهام الصدق وإيهام الحقيق.

وفي هذه العلاقة المعقدة بين الحقيقة والأساليب البلاغية التي تصاغ من متكلم بليغ يطرح كلامه على أنه حقيقة يقف الدين والرؤية الفلسفية المثالية موقفا واحدا.

فالبلاغة في العالم الواقعي سلاح يُستعمل في جذب المستمع لإرضاء مطامع المتحدث الشخصية، وفي هذه الحالة لا تكون الحقيقة مطلبا جوهريا للمتحدث أو المستمع، وتلك هي نسبية الحقيقة في الحجة والبرهان الخطابين، وهذه النسبية هي جوهر اختلاف الخطابة (البلاغة، الحجاج) عن الاستدلال المنطقي، فالاستدلال هو استنباط نتائج من مقدمات تُفرضي إلى تلك النتائج بالضرورة وبلا لبس، أما الحجة البلاغية الخطابية فهي متفلتة من هذه الصرامة المنطقية، ومن ثم فإن الحجاج لا يُعد آلية منطقية، فالحجة البلاغية الخطابية في الغالب تعتمد على نسبية المواءمة وميوعة الاستمالة وهشاشات التأثير، وما إلى هذا مما لا

يدخل في الحجة بمعناها في مناهج التفكير العلمي وفي الاستدلال المنطقي، وإنه لأدخلُ في الإيهام بالحجة الذي جعله حازم القرطاجني تقوية الظن وليس إيقاع اليقين<sup>(1)</sup>.

وليس عبثاً أن يستعمل الجاحظ مصطلح الحيلة والشبهة بديلاً عن مصطلح الحجة والدليل<sup>(2)</sup> في مقامات الاحتجاج البلاغي الخطابي، وقد استعمل ابن رشد مصطلحات: المغالطة والحجة المغالطية والقياس المغالطي في وصف المحاجة السوفسطائية ومقاصدها وهي خداع الجمهور<sup>(3)</sup> بغرض إحراز المنفعة.

الحقيقة الجلئية ليست بحاجة إلى محاجة، وهذا يكون في جلاء الحقيقة وصرامة وجودها في الواقع، أي تصديق الواقع للقول، وإنما دعت الحاجة إلى وجود الحجاج لانعدام الصرامة في بعض الحقائق، أو فيما يُظن أنه حقائق، أي ما يتسم من الأمور بنسبية الجلاء، أو ارتهان الحقيقة بنسبية الرؤية البشرية المحتملة للاختلاف في المواقف بين الرفض والقبول، وبين الاستحسان والاستهجان، فوجود الحجاج مرهون بنسبية جلاء الحقيقة أو بنسبية الاعتراف بها، ثم يُؤسّس الاختلاف على نسبية الحقيقة ليتولد منه إنكار ورفض ومعارضة وصدام، وليست الحقيقة في ذاتها سبب الصدام ولكن السبب الحقيقي هو: إما نسبية الجلاء أو نسبية الإدراك الذي قد يتسم بالخطأ مع حسن النية، أو إحراز المنفعة الذي قد يتسم بسوء النية، أو تباين المواقف واختلافها من حدث أو قضية<sup>(4)</sup>.

جاءت قصيدة (لا تصالح) كاملة منظومة حجاجية، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنها جاءت خالصة تماماً للحجاج، فالحجاج هو منبع الظواهر جميعها على الرغم من تعدد الأصوات الحقيقية أو المحتملة أو المرتقبة أو المتوقعة لشخصيات من صنع الشاعر.

(1) حازم القرطاجني، مناهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، بيروت- لبنان، دار الغرب الإسلامي: ص 62

(2) الجاحظ، الرسائل، تحقيق عبد السلام هارون ج 4 ص 246

(3) محمد النويري، الأساليب المغالطية مدخلا في نقد الحجاج، منشور ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في القرن العشرين ص 412

(4) د. عيد بليغ، المغالطة الحجاجية في سياق الاستشهاد، مجلة سياقات، العدد 5 أبريل 2017م ص 17، 18



ولعله قد بات واضحا أن الحجاج هنا لا يعني جلاء حقائق ولكنه فقط يعني جلاء مواقف، ومن منظور آخر لا يعني البرهنة على صواب مواقف صحيحة أو البرهنة على فساد مواقف غير صحيحة، ولكنه يعني البرهنة على مواقف مقبولة ومناسبة ومتوائمة مع وجهات النظر، ولهذا كان تفنيد الحجج المحتملة عند المخاطب الذي يمثل موقف السلطة من أهم الغايات الحجاجية، وقد جاءت بنمطها الخاص من محاصرة عقل المخاطب لئلا يُدعن إلى مقتضيات العقل، أو مقتضيات الواقع، أو مقتضيات الحقيقة، أو مقتضيات العرفي والمقدس، ثم مقتضيات الخرافة والغيبيات، فالخطاب الحجاجي في القصيدة يتوسل بانتهاك هذه الثوابت جميعها في وجودها النسبي والمحمّل.

### 3- أساليب الأفعال الكلامية وبناء الحجة

إن المنظومة الحجاجية التي أشرنا إليها آنفا يتنازعها صوتان يسيران في اتجاهين متناظرين تبعا للغرض والغاية من الإقناع، وقد ترتب على غلبة هذين الصوتين على بناء القصيدة سيادة الحوار وهيمنته على القصيدة، فالقصيدة كلها حوار، وهذا الحوار حتما يستدعي قضايا الحوار في البحث التداولي، ومن ثم أصبح استحضار المبادئ الحوارية وأفعال الكلام ضرورة منهجية لرصد ظواهر الحوار وخصائصه والكشف عن مظاهر الاستلزام الحوارية وغاياته.

وقد بدأ الحوار بتوظيف حدث تاريخي من خلال استثمار جملة مكتوبة يتكون منطوقها من كلمتين: "لا تصالح"، والجملة طلب الكف عن فعل، وقد جاءت هي الجملة المركزية التي تتصل بها محاور القصيدة المتمثلة في مقطعاتها أو وصاياها العشر، ولتشكل غطا خاصا من الحوار: فهو حوار مبتور لم يتم بين مخاطب ومخاطب، أو حوار داخلي متوقع أو متخيل، يبنى على توقع أو احتمال حالة من الطرح الجدلي من محاور (ما) يهدف إلى إخماد جذوة الطلب الصريح في الجملة المحورية "لا تصالح"، ومن ثم يأتي الرد المقترح هادفا إلى سد كافة الاحتمالات التي قد يكون من شأنها أن تؤثر في المتلقي تأثيرا يثنيه عن إنجاز الطلب الصريح الاستهلاكي المتكرر في الوصايا.

ولا يخفى علينا أن الأفعال الكلامية قد جاءت هنا في حوار متخيل على لسان شخصيات حقيقية في واقعة محددة، فوفق رواية الخبر أن حقيقة القول تنحصر في كلمتين مكتوبتين: "لا تصالح"، وهاتان الكلمتان فعل كلامي، له قوة فعل الكلام وأثر فعل الكلام على مستوى الحدث التاريخي، فقد ترتب على الحدث وملابساته حروب استمرت عشرات السنين.

والنهي نفسه هو طلب الكف عن فعل بالمفهوم البلاغي، ولكنه ليس على سبيل الاستعلاء، أو قل بلا مقومات استعلاء، أو بغير المقومات المعهودة للاستعلاء، وهذا يعني أن النهي جاء بلا حيثيات استعلائية معضدة للإلزام، وعلى الرغم من هذه الحقيقة فلإن النهي هنا لا يدخل ضمن ما قد يعنيه العدول في النهي إذا دل على معنى آخر غير النهي فيستعمل لغير طلب الفعل استعلاء، وذلك الغير إما غير الطلب، وإما الطلب لا مع الاستعلاء<sup>(1)</sup>، وقريب من هذا ما أشار إليه سعد الدين التفتازاني: "أي لغير طلب الفعل استعلاء مما يناسب المقام بحسب القرائن، وذلك بأن لا تكون لطلب الفعل أصلاً أو تكون لطلبه، لكن ليس على سبيل الاستعلاء"<sup>(2)</sup> فانتفاء شرط الاستعلاء غير متحقق في ملابسات هذا النهي؛ لأن الضاغطة السلطوي قائم هنا في الملابسات السياقية المتمثلة في: والغدر والظلم والخيانة وما إلى هذا مما يشكل مجموعه حقاً ضاغطة يقوم مقام الاستعلاء وزيادة على مستوى الحدث الحقيقي، فالنهي المركزي (لا تصالح) جاء تحت وطأة الضغط العنيف للزمن في ظروف شديدة الاستثنائية في المناسبة المروية إلى حد التفرد، فليست هناك مواجهة مع الطرف الآخر في الكلام، ولكنها كلمة فتحت موقفاً إنجازياً على مدى السنين، ويضاف إليه الحجج الضاغطة أسلوبياً وتحليلياً التي شكلت رؤية الشاعر وموقفه.

(1) عصام الدين الحنفي، الأطول، شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق د. عبد الحميد هندواوي، ط 1 دار الكتب العلمية بيروت 2001م ج- 1 ص 597، حاشية الدسوقي على شروح التلخيص ج- 2، ص 312، 313

(2) التفتازاني: المطول، تحقيق د. عبد الحميد هندواوي، ط 1 دار الكتب العلمية، بيروت 2001م، ص 425، ولزيد من التفصيل يراجع: د. عيد بليغ، السياق وتوجيه دلالة النص، مقدمة في نظرية بلاغة الحديث النبوي الشريف، دار بلنسية، مصر 2007م القسم النظري.

فسارد الأحداث هو الصوت المحرّض، وهو الصوت الذي يقوم بصياغة الصوت المضاد للتحرّض على مستوى التوقع أو الاحتمال والظن، وقد جاء هذا الصوت المضاد (المتصالح) في مسارين:

- 1- مسار القول اللغوي المتضمن صياغة الحجج وسائل الإقناع الصناعية في مقولات المذعنين المسوّغين للواقع المهزوم في الخطاب التبريري (من وجهة نظر المتخيل).
- 2- ومسار الحدث المتضمّن وقائع أو حقائق متوقعة أو محتملة أو مرتقبة تأتي بمثابة الحجج الطبيعية، أي وسائل إقناع طبيعية في الواقع المتخيل المحتمل.

ولسنا بحاجة إلى تكرار القول بأن هذه الحجج جميعها تأتي في أساليب لغوية تتشكل منها الأفعال الكلامية في الحوار بمساريه، وفي الوقت نفسه تتشكل منها الحجج ومدعماتها ومعضداتها، وهذه الحقيقة تُفضي إلى ضرورة، بل حتمية التحليل الأسلوبي لاستكشاف الكيفية التي أدت بها اللغة هذه الغايات، ليأتي المدخل المنهجي الثالث متمثلاً في الرؤية الأسلوبية.

تأتي الظواهر الأسلوبية والبلاغية عناصر متضمنة الحجج ملتبسة بها، في سياقها الذي غلب عليه الحوار المصطنع المتخيل، فقد جاءت الأساليب لبناء الحجة أو تعضيدها وتدعيمها، أو لإيهامها في حالة المغالطات المتعمدة، ومن ثم فإن التحليل الأسلوبي هو المدخل الكاشف لمسارات الأصوات المتحاورة في النص وغاياتها الحجاجية، وهو كشف طريقة إعمال الحجج ومسالك مراوغات اللغة في صياغتها الفريدة، فهو ضرورة منهجية لتحليل أساليب أفعال الكلام التي انبنى عليها هذا النمط من الخطاب الحجاجي الخاص.

فالتحليل الأسلوبي إجراء منتظم لتحليل (لغة النص) الطريقة الخاصة لاستعمال النص للغة، ينحو بالنقد نحو الموضوعية وتجاوز الانطباعية والتأثرية وما ينتج عنهما من أحكام ذاتية غير منضبطة، وتعتمد رؤيتنا الأسلوبية لهذا النص على أساسين:

- رصد الأساليب رصدًا تصنيفيًا وبيان خصائصها.
- الوقوف على الغايات الوظيفية التي تحققها أساليب النص.

تمثل الظواهر الأسلوبية السائدة نقاط التلاقي التي تشكل خصائص مطردة في النص، هي السمات التي تتحدد منها أسلوبيات النص، ولكنها من زاوية أخرى تُعد هي نفسها نقاط عدول تفاجئ المتلقي وتكسر التوقع، والتحليل يبحث في كيفية تحقق هذه الخصوصية بملاحظها الخاصة وبصمتها الفريدة التي تتجاوز بها الأنماط المعيارية للتراكيب النحوية، ويُناط بالعدول تحقيق عنصر مفاجأة المتلقي.

وإضافة إلى غاية التحريض ورفض التصالح التي أشرنا إليها، هناك غايات جزئية متناثرة منتظمة في أساليب النص هي الحجج المتراكمة التي تمثل ضواغط على المخاطب المقصود، ومن ثم يأتي التحليل الأسلوبي إجراء مشتبكا ببيان حجاجية الأسلوب من ناحية، ومن ناحية أخرى بيان تضافر الحجاج مع الغاية الإنجازية التي لا يصح منهجيا تنحيها عن إجراء التحليل الأسلوبي.

إذا كان التسلسل المنهجي لهذه المداخل قد انتهى بنا في هذا التقديم النظري إلى المدخل الأسلوبي، فإنه في إجراء التحليل يكون العكس هو الصحيح، فلتكن خاتمة المداخل المنهجية هي مفتاح إجراءات التحليل، فالأسلوب هو الاستعمال الخاص للغة التي هي كيان النص والباب الأوحد للولوج إلى عالمه الخاص، ومن ثم تبدأ الإجراءات وتنتهي بالتحليل الأسلوبي، وأما ما يكون من أمر الحجاج وأفعال الكلام وقضاياهما التي أشرنا إليها فسيأتي من خلال هذا التحليل، وهذا ما نرى أن المنهجية تقتضيه تجنباً للتكرار.

وبهذا نصل إلى دراسة الوسائل الأسلوبية وكيفية أدائها للوظيفة الحجاجية وتحقيق غاياتها، وتوزع خصائص الأساليب بين التأثير والإقناع، بين الحقيقة والمغالطة التي تنشأ بمخالفة ثوابت ضاغطة: دينية، اجتماعية، واقعية، وزعزعة هذه الثوابت بالتأثير، وبالمغالطة التي اعتمدت في تشكيلها على التخيل الذي تضمنته علاقات التراكيب والعلاقات المجازية.

## المبحث الثاني: قراءة تحليلية

وهي قراءة تجزيئية تعنى برصد الظواهر الأسلوبية السائدة في النص وتصنيفها وتحديد وظائفها التي تنبثق عن وظيفتها العامة الرئيسية المتمثلة في الحجاج، وقد أشرنا إلى أن الحجاج يسير في مسارين: مسار الصوت الثابت الراض التحريضي التشيري وهو صوت الضحية، فهي تأتي رداً على المرتقب أو المحتمل أو المتوقع، ومن ثم تأتي حججاً تخيلية مبعثها الحرص، الإشفاق، الخوف والقلق، ومسلكها التحذير التخويف التعيير، وغايتها الكبرى تنفيذ دعاوى الصوت الثاني المتغير المتخيل، أما الصوت المتغير فهو متعدد بتعدد وسائل الإثراء وطرقه والإغراء به، أو قل هي مجموعة أصوات متعددة بتعدد الاحتمالات التي صنعتها مخاوف الضحية عبر الأفعال: (سيقولون، لو قيل، ناشدتك، حذرتك النجوم)، وهذه الأقوال جميعاً من شأنها أن تكون فاعلة في الإثراء عن الشار بما تحمل من مبررات محتملة للتصالح يخشى الصوت المحرض الراض أن تكون مؤثرة فيكون من شأنها أن تُقنع بالتصالح، ولهذا يمارس المصادرة بتنفيذ أي احتمال للتصالح، منطلقة من خطاب حجاجي احتجاجي ملؤه التحريض، والتثوير والتثيير بإعلان الرفض بالتقييد والتكريب والضغط على العاطفة والمشاعر الإنسانية، والاصطدام بالمحالات وإحكام الدفع إلى الإنجاز، بإحكام نسج القيود.

ويتوزع مسار الحجاج في صوت الضحية بين مسلكين هما: التحريض والتنفيذ، سيران متوازنين، بينما يسكن الصوت الثالث في مسلك التبرير إذ يتوسط، في الغالب، بين التحرير والتنفيذ، وبهذا تأتي الأساليب على هذا النحو:

أساليب التحريض.

أساليب المواءمة.

أساليب التنفيذ.

وتتحدد الظاهرة الأسلوبية السائدة في مصب واحد يمكننا أن نطلق عليه: أساليب التقييد والمحاصرة؛ لأنها تقوم على محاولات استعمال اللغة ضواغط محكمة تضيق الخناق على المخاطب حتى لا يكون أمامه سوى الامتثال للإنجاز بقبول الحرب والشار ورفض

التصالح مهما كانت ضواغط الواقع الموائمة، فإن محاصرة المخاطب بنسج الوسائل الأسلوبية حول عقله ووجدانه لم تكن بصياغة الحجج فقط ولكن، وربما الأهم، بإحكام الصياغة لتقييد الضغط ليلبغ أقصى درجاته بانسداد كل السبل التي من شأنها أن تؤدي إلى خلافه.

ولعله قد بات واضحاً أن القصيدة بتمامها تسعى لإنجاز واحد، فقد تشكلت في تراكيب مختلفة جاءت بمثابة الروافد التي تصب في مجرى واحد يتمثل في الدفع إلى عدم التصالح، أو قل لإنجاز فعل كلامي واحد يتحدد في طلب الكف الذي يتأكد ويتقيد بطلب الإلزام، وتدخل الأساليب جميعها في مسارين:

□ الإنجازات الأولية وتمثل في الأمر الصريح بطلب الإلزام، أو النهي الصريح بطلب الكف بالفعل المسبوق بلا الناهية.

□ التقريريات وهي إما أن تقع في الطلب أو تأييد الطلب وتعزيده وتدعيمه، بالتمكين لموقف نفسي، يتحول إلى إنجاز، أو الإقناع بما يتصور أنه الصواب أو الحقيقة. ولا نكاد نظفر بنمط واحد من الإنجازات الصريحة التي تأتي في الغالب في صورة الأفعال المسندة إلى المتكلم نحو: أمرك، أنهاك، أمرتك، كلفتك، وغيرها<sup>(1)</sup>.

ثم تأتي أساليب التنفيذ داعماً ومقيداً لحتمية إنجاز المقتضى التحريضي وبتراحيض احتمالات خرقه بالمواءمات، لتسير أساليب التحريض والتنفيذ لدعم الغاية الإنجازية التي تصب في منحى الثأر والحرب، بأساليب الرفض والتحذير، وتنفيذ أساليب القبول والإغراء، ويأتي التنفيذ نمطاً من أنماط المصادرة باستبعاد أي احتمال للتصالح، أو قبول الأسباب التي من شأنها أن تُقنع بالتصالح، لتصب الأساليب جميعها في إحكام دائرة الاحتمالات بزخم القيود.

(1) يُراجع في الإنجازات الأولية والتقريريات والإنجازات الصريحة، د. عيد بليغ، التداولية، البُعد الثالث في سيميوطيقا مورييس من اللسانيات إلى النقد الأدبي والبلاغة، ط 2 المجمع الثقافي المصري 2016م، ص 243 وما بعدها.

## أولاً: الإنجازات

وقد جاءت الأفعال الإنجازية الأولية في أساليب الأمر الصريح والنهي الصريح والسؤال على النحو التالي:

### النهي الصريح

النهي الصريح هو ما أراد الصوت المحرض التثييري أن يكون أول ما يفاجئ وعي المخاطب في عبارة الاستهلال: لا تصالح، وهو آخر ما أراد أن يستقر في وعي المخاطب في الوصية العاشرة التي اقتضت على عبارة النهي الصريح: (لا تصالح)، مروراً بالقصيدة كلها إذ لم تغب عن وصية واحدة من الوصايا العشر، فكانت هي العبارة المركزية التي شكلت محور ارتكاز القصيدة بدلالاتها الصريحة ودلالاتها الضمنية، وقد تكررت عشرين مرة، وجاءت في موضعين مدعمة بأسلوب نهى معطوف عليها:

ففي الوصية الأولى جاءت: لا تصالح.. ولا تتوخَّ الهرب، وفي الوصية الخامسة جاءت: لا تصالح، ولا تقتسم مع من قتلوك الطعام.

### الأمر الصريح

جاء فعل الأمر في الحوار الحجاجي بين الصوتين المتضادين أربع مرات، تلفظ الصوت الرفض بثلاثة أفعال منها، وقد جاءت هذه الأفعال كلها تحريضية داعمة للنهي المركزي (لا تصالح) بصور مختلفة، وفي موضعين جاءت في علاقة مجازية تدعم الرفض المطلق، ففي الوصية الثانية جاء الأمر: (واغرس السيفَ في جبهة الصحراء / إلى أن يجيب العدم)، وفي الوصية الخامسة جاء الأمر متكرراً بالعطف على النحو التالي: (وارو قلبك بالدم / وارو التراب المقدس / وارو أسلافك الراقيدين / إلى أن تردَّ عليك العظام) ليصل إلى الرفض المطلق إذ علق الفعل بالغاية المستحيلة، فجعل الجار والمجرور المكون من إلى والمصدر المؤول (إلى أن تردَّ عليك العظام) متعلقاً بالفعل المكرر (ارو)، ليُرسخ استحالة التصالح.

أما الفعل الثالث في الوصية الثالثة فهو: (وتذكر)، وقد جاء بعد النهي المركزي المحوري الصريح وما تبعه من دواعي التصالح المحتملة: (لا تصالح.. ولو حرمتك الرقاد صرخات الندامة)، كما جاء مفصلاً بينه وبين المفعول به بالاعتراض: (إذا لأن قلبك للنسوة اللابسات السواد ولأطفالهن الذين تخصمهم الابتسامة) (أن بنت أخيك اليمامة....) معدداً مظاهر اليتيم التي تعيشها اليمامة.

وجاء الأمر مرة واحدة على لسان الصوت المضاد في الوصية السادسة في سياق بناء الحجة، وكأنه نتيجة لهذه المقدمة الحجاجية:

سيقولون: ها أنت تطلب ثأراً يطول  
فخذ - الآن - ما تستطيع:  
قليلاً من الحق... في هذه السنوات القليلة.  
وبهذا ترى الندرة الشديد في الأمر والنهي.

## السؤال

يشكل السؤال سمة أسلوبية مهيمنة في محاولة تحقيق الغاية الإقناعية بالهدف المكشف في النهي المركزي الذي استهل به الشاعر النص أو التأثير المدعم لتحقيق هذه الغاية، وتتمثل قوته في القدرة على التذعين - ولا نقول الإقناع بشكل عام - الناتجة من تشكله في تراكيب مختلفة، يتأرجح فيها بين وجوده على مستوى المقدمات والنتائج: المقدمات التي تمثل - في جانب كبير منها - مسلمات لا مجال لرفضها أو الشك فيها، تُحمِلُ المخاطب حملاً على التسليم بها والتدرج معها نحو النتائج التي لا يجد أمامها سوى التسليم والاقترناع، وهو ما يُطلق عليه استدراج الخصم، وهو في جانب كبير منه يدخل فيما يُطلق عليه مغالطة السؤال المشحون الذي يتضمن افتراضاً سابقاً من شأنه أن يلزم الخصم بلا مقدمات مبررة<sup>(1)</sup>، وهي هنا إن كانت غير مبررة واقعياً ومنطقياً فإنها مبررة تخيالياً، فالسؤال هنا مشحون ولكنه مشحون انفعالياً، إذ يتخلل التركيب اللغوي للسؤال في الغالب عن - اصر ذات تأثير إقناعي

(1) يُراجع: عادل مصطفى، المغالطات المنطقية: طبيعتا الثانية وخبزنا اليومي، ط المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2007م



في المخاطب، لتتجسد في السؤال - نتيجة لهذا - صياغة محكمة في بُعدها الحجاجي، فاعلة في بُعدها التأثيري.

وبهذا يتوزع السؤال بمنظور الغاية بين التأثير النفسي (العاطفي، الوجداني، القلبي) والإقناع العقلي، أما على مستوى التحليل الأسلوبي فهو اختيار بين أساليب ممكنة، ولهذا يستدعي المقارنة الأسلوبية الضمنية بين السؤال والأساليب الممكنة على مستوى إجراء التحليل؛ كما يستدعي تحليل تضافر الأساليب وتناغمها في أداء الغاية.

يبدو هذا للوهلة الأولى في مستهل النص، إذ يبدأ الشاعر طرح الهدف (النهى) بشكل مباشر، ثم يحيل المخاطب إلى ذاته بطرح التساؤلات التي تحاصر المخاطب فلا يملك إلا الإقرار بها والإذعان لها، ثم يعقب الشاعر بالخبر الذي يؤكد على الحقيقة التي طرحها عبر الأسئلة، ويأتي السؤال استنطاقاً للمخاطب في الحوار المرتقب، فارضاً بعنف الوقع مصيراً أحادي الرؤية والأداة والطريقة، مفجراً التخيل في نفس المتلقي، وقد انفتح السؤال ليشمل هذه الغايات الإنجازية جميعها، فأفاد الأمر والنهي والتقريب والإقرار، كما امتد ليشمل أيضاً المؤيدات والمعضدات والمدعمات من التعجب والتعجيب والدهشة والاستنكار والتقريع والتبكيك، ففي الوصية الأولى جاء السؤال متضمناً القياس على النحو التالي:

لا تُصالح !

.. ولو منحوك الذهب

أثرى حين أفقاً عينيك،

ثم أثبتُ جوهرتين مكانهما..

هل ثرى..؟

هي أشياء لا تُشترى...

ثم جاء السؤال إثارة العاطفة للرفض والتثيير بتضمّن وسيلة أسلوبية أخرى هي

التخيل:

هل يصيرُ دمي - بين عينيك - ماء؟

أتنسى ردائي المُلطّخ..

تلبسُ - فوق دمائي - ثياباً مطرزة بالقَصَب؟

ثم يأتي السؤال في الوصية الثانية لينقُضَ المفاهيم المستقرة بما يُحمّل مَنْ حجج  
الرفض لوسائل الإقناع المحتملة من صوت الخطاب الموائم: (لا تصالح! ولو قيل رأس  
برأس)، فيأتي السؤال:

أكلُ الرؤوسِ سواء؟!!

أقلبُ الغريبِ كقلبِ أخيك؟!

أعيناه عينا أخيك؟!

وهل تتساوى يدٌ.. سيفها كان لكُ

بيد سيفها أتكلك؟

ويلفت السؤال في الوصية الثالثة إلى البعد التأثيري

العاطفي بعد مقدمات طالت عن ذكر ابنة القتيل وما حرُمته من حرمانها.

فما ذنبُ تلك اليمامة

لترى العُشَّ محترقاً.. فجأة،

وهي تجلسُ فوق الرماد؟!

ويتجه السؤال في الوصية الرابعة نحو مقاومة المغريات بنفي إمكان حدوث ذلك بأي

حال:

لا تصالح

ولو نؤجوك بتاج الإمارة.

كيف تخطو على جئة ابن أهلك..؟

وكيف تصيرُ المليك..

على أوجه البهجة المستعارة؟

كيف تنظر في يد من صافحوك..

فلا تبصرُ الدم..

في كل كف؟

ويأتي السؤال في الوصية الخامسة مركزاً على إثارة نوازع الرجولة والنخوة في نفس

المخاطب:

لا تصالح،

ولو قيل ما قيل من كلمات السلام.

كيف تستنشقُ الرثانَ النسيمَ المندس؟

كيف تنظر في عيني امرأة.

أنت تعرفُ أنك لا تستطيعُ حمايتها؟

كيف تُصبحُ فارسها في الغرام؟

كيف ترجو غداً.. لوليدٍ ينام

- كيف تحلمُ أو تتغنى بمستقبلٍ لغلام

وهو يكبرُ - بين يديك - بقلبٍ منكس؟

### التقريريات

أساليب التقرير تؤدي - بشكل أو بآخر - دوراً إنجازياً، وتتفاوت إنجازيتها بين أن تكون إنجازية منشئة، أو تكون إنجازية داعمة، وتتفاوت نسبية الإنجازية وفقاً للأساليب، وخضوعها إلى ما لا يكاد يحصى عدداً من الوسائل النحوية، مجتمعة ومتفرقة، بين التأكيد والقصر والعطف (الوصل) والقطع (الفصل) التقديم والتأخير، وغيرها من البدائل النحوية التي لا تحدها قاعدة، فلا مدخل لدراساتها سوى التسلح بالمهارة التي تؤهل للقدرة على تتبع الظواهر وتحليلها.

ومن السمات البارزة للتقريريات نجد الحضور البارز للتقرير بالقطع، وليس عبثاً أن يلوذ الشاعر بجفاف القطع وصلابته ليدعم الوظيفة الإنجازية بجفاف القطع وصرامته، نعومة الوصل وليونته، ولعلنا نستحضر هذا الفارق في بيت بشار:

بَكراً صاحبي قبل الهجير      إن ذاك النجاح في التـبـكـير

فلما روجع باقتراح أن يقول (فلان النجاح في التبكير) قال: إنما أردتها أعرابية وحشية، فلعلك تتلمس الإحساس باللغة إن استطعت أن تذوق الفارق بين صلابة القطع وليونة الوصل، فليس في ذلك قاعدة.

وفي الوصية الأولى نجد هذا القطع في التقرير بالتعقيب التالي في قوله: (هي أشياء لا تُشترى)، كما نجد التقرير أيضا: (إنها الحرب، قد تثقل القلب، لكن خلفك عار العرب) ثم نجد هذا النمط الأسلوبي نفسه في الوصية السادسة بقوله: (إنه الشار، تبهتُ شعلته في الضلوع، إذا ما توالى عليها الفصول، ثم تبقى يد العار مرسومة.. بأصابعها الخمس فوق الجباه الذليلة).

ثم نجد تقريراً استثنافياً إجمالياً ممهداً للتفصيل في الوصية الثامنة: (كل شيء تحطم في لحظة عابرة، كل شيء تحطم في نزوة فاجرة)، ونجد تقريراً إنجازياً بالقصر: (فما الصلح إلا معاهدة بين نذنين.. (في شرف القلب).. لا تُتَقَصُّ)، ونجد تقريراً بالعطف في قوله: (والذي اغتالني محضُ لصٍ / سرق الأرض من بين عيني، والصمت يطلقُ ضحكته الساخرة!). وفيها أيضاً نجد تقريراً آخر للصوت الآخر المتوالم: (إنه ليس نارك وحدك، لكنه نأر جيلٍ فجيل)، وهي محاولة إنجازية في طريق إنجاز التصالح.

وليست كل التقريرات تدخل في غاية الإنجاز، فمن التقرير ما يُقصد به الوصف لا مزيد، ويتجاوز التقرير الوصفية الخالصة إلى الإنجازية بأثر السياق، وهنا تأتي الجملة الخبرية التقريرية (إنها الحرب) مدعومة بالنواهي الصريحة والأوامر الصريحة على مستوى القصيدة، مدعومة أيضاً بمقدمات هذه الدفقة من القصيدة وتعقيبيها المتمثل في جملة النعت: (قد تثقل القلب.. لكن خلفك عار العرب).

وفي الوصية السادسة نجد استحضر النمط الأسلوبي: (إنها الحرب)، بالتركيب نفسه والقطع نفسه، ثم تأتي التراكيب بعده على درجة عالية من التشابه وأخص جملة النعت التالية لجملة القطع:

إنه الشارُ

تبهتُ شعلته في الضلوع..

إذا ما توالى عليها الفصول..

ثم تبقى يد العار مرسومة (بأصابعها الخمس)  
فوق الجباه الذليلة!

ليبقى وهج الثأر ونداء الانتقام هو الأعلى والأكثر حضوراً، فيجتمع التشوير والتثوير، وعلاقة الفعلين هي علاقة العام والخاص، فثمَّ خيطٌ رفيع بين الفعلين: ففعل التشوير عام وفعل التثوير خاص، يستحضره الشاعر بهذا القطع وهو في ذلك إنما يستحضر قيمة غالية من غير المحتمل عنده نسيانها أو التغاضي عنها أو التهاون فيها.

## ثانياً: المقيدات

نقصد بها تدعيم الإنجازات بالمقيدات التي من شأنها محاصرة المخاطب المنوط به الإنجاز، ومن ثم فهي ليست أساليب قائمة بذاتها منفصلة عن الإنجازات ولكنها تصرف في القدرات والإمكانات النحوية ملتبسة بالتركيب الإنجازية، فقد سار النص في إحكام المحاصرة ونسج القيود بالأساليب الآتية: القصر والشرط والاعتراض وتقييد الأفعال وما يعمل عملها، وقد جاء المجاز قيذاً ووسيلة من وسائل الاستحواذ تحقق اصطداماً وعي المخاطب بالمحالات، فإنه من شأن أساليب الاصطدام بالمحالات إحكام إنجاز الرفض والدفع إلى إنجاز الثأر والحرب، ببناء الحجج وصياغتها، واستدعاء المؤثرات العاطفية، للتحريض والتثوير والتثوير لرفض التصالح بالتقبيح والتكريه والتعيير فيما أطلقنا عليه المقيدات، وتحدد أهم هذه المقيدات فيما يلي:

### التفصيل بعد الإجمال

التفصيل بعد الإجمال يأتي في صورة رصد للمشاهد الفاعلة بذاتها، وكأن التوسل للتحريض وإحكام المحاصرة بمجرد ذكرها، فهي دوال فاعلة بذاتها، هذه اللوحات المتراسة المفصولة، أو المتتابعة المعطوفة الموصولة، وتقع كلها ضمن تحقيق غاية استمرار الغضب والرفض لتظل شعلة الثأر والانتقام متقدة.

يبادرنا الإجمال في الاستهلال بقول الضحية الرافضة للمصالحة: (ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك)، ثم يأتي التفصيل برصد التفاصيل الدقيقة: (حسُّكما - فجأة - بالرجولة، هذا الحياء الذي يكبت الشوق.. حين تعانقهُ، الصمت - مبتسمين - لتأنيب أمكما.. وكأنكما ما تزالان طفلين!).

ثم ينتقل في الوصية نفسها إلى ضواغط صور المستقبل المفقود، الذي كان مُتوقِّعا أو مأمولا، وتمثل في: (تلك الطمأنينة الأبدية بينكما) على سبيل الإجمال ويأتي تفصيله بعناصر تلك الطمأنينة الأبدية الآتية: (أنَّ سيفان سيفك.. صوتان صوتك، أنك إن مت: للبيت ربُّو للطفل أب)؛ ليتحقق الضغط والمحاصرة بإثارة هذه الأبعاد العاطفية.

وفي الوصية الثامنة نجد التحدي بالاصطدام بالحال المتمثل في عودة عجلة الزمن: (إلى أن يعود الوجود لدورته الدائرة)، ويأتي تفصيله في العناصر الآتية: (النجوم.. لميقاتها، والطيور.. لأصواتها، والرمال.. لذراتها، والقتيل لطفلته النازرة)

ثم ينتقل إلى المحاصرة بضواغط عاطفية فيجملها بقوله: (كل شيء تحطم في لحظة عابرة) ليأخذ في تفصيلها: (الصبا - بهجة الأهل - صوتُ الحصان - التعرف بالضيف - مهمة القلب حين يرى برعما في الحديقة يذوي - الصلاة لكي ينزل المطر الموسمي - مراوغة القلب حين يرى طائر الموت وهو يرفرف فوق المباراة الكاسرة).

### متعلقات الفعل والاعتراض والقصر

ولا يخفى عليك أن متعلقات الفعل والاعتراض والقصر جميعا من مظاهر العدول الأسلوبى في التراكيب النحوية، وقد جاءت مدعّمات ومحمّّات ومقيدات تواجه عقل المخاطب المعنى بالإنجاز وإرادته، وهي من التداخل بحيث لا يمكن الفصل بينها في مواضع متعددة؛ فقد يتقدم متعلق الفعل الجار والمجرور أو الظرف على المفعول به فيأتي اعتراضا بين الفعل والفاعل من جانب والمفعول به من جانب آخر، ثم إن التقديم والتأخير ينتج عنه القصر.

كل إضافة إلى الجملة الفعلية بعد الفعل والفاعل تعد قيذا للفعل وما يعمل عمل الفعل من مصادر ومشتقات عاملة، فمتعلقات الفعل هي في الحقيقة قيود وضوابط، والفعل وما يجري مجراه من المصادر والمشتقات يأتي مطلقا ومقيدا، والمطلق يعني إثبات مطلق الحدث، أما المقيّد فيجعل المعنى مرهونا بالقيّد، ومن المقيّدات: المفعولات، الجار والمجرور، النعت، الحال، وغيرها، ولا يكاد يخلو تركيب نحوي في القصيدة من المتعلقات التي تغيب دلالة الفعل لصالحها فتلونه بلونها، ولكننا سنقف عند الأحوال التي تمثل ضواغط أو تدعّم ضواغط.

وقد تأتي العلاقة بين الفعل ومقيّداته حقيقية أو مجازية تخيلية، ومن ثم تلتبس الظواهر وتتداخل وتتصافر في تأثيراتها، ليصبح الفصل بينها خلا يحدوها، وهذا يجعل تتبعها وتحليلها في مواضعها ضرورة منهجية للكشف عن أثرها متناغمة مع عناصر التأثير الأخرى، وسنكتفي هنا برصد الظواهر.

والمتعلق بالفعل في قصيدة (لا تصالح) يأتي قيذا وشرطا يحكم موقف الرفض، أو يأتي وظيفة تدعيمية للرفض، وهذه هي المتعلقات التي نقف عندها، فهناك بعض المتعلقات التي جاءت لأغراض أخرى سنقف عندها في التحليل، ويعمل المتعلق بالفعل بوسيلتين نحويتين:

- التعلق بالفعل تقييد للفعل يُغيّيه الفعل لصالح المقيّد.
  - وتقدم المتعلق الجار والمجرور والظرف على المفعول به الذي يفيد القصر.
- فالتقييد بالتعلق ملتبس بتقديم بعض معمولات الفعل على بعضها الآخر بما يشبه الاعتراض بين الفاعل والمتعلق المتأخر، وغالبا يكون الجار والمجرور أو الظرف، وهذا التقديم والتأخير فاعل في إنتاج الإحكام والتقييد بالقصر، ففي قوله: (هل بصير دمي - بين عينيك ماء؟)، وقوله: (تلبس - فوق دمائي ثيابا مطرزة بالقصب؟)، فتقييد الفعل بصير بالظرف (بين عينيك) المقدم على مفعوله، والفعل تلبس بالظرف (فوق دمائي) المقدم على مفعوله (ثيابا) يتج معنى التقييد بالشرط، فالقيّد شرط والقصر شرط.

ونجد أيضا الدعم بالاعتراض - في سنوات الصبا - المعضد لحالة الرفض في قوله:  
(أن بنت أخيك أليمامة، زهرة تسربل - في سنوات الصبا - بثياب الحداد) فالجار والمجرور  
مقدم على الجار والمجرور (بثياب الحداد) للتبشير على الجار والمجرور: (في سنوات الصبا) فيما  
يشبه الاعتراض.

ومن هذا النمط النحوي قوله: (من أن يكون لها - ذات يوم - أخ)، وفي قوله:  
(لترى العش محترقا.. فجأة) نجد الاعتراض بقوله (فجأة) بين الحال من المفعول به (محترقا)،  
والحال من الفاعل: (وهي تجلس فوق الرماد؟!)، كما نجد القطع بكلمة (فجأة) بين الفاعل  
وجملة الحال.

ونجد في الوصية الرابعة تقييد الفعل بالجار والمجرور في قوله: (إنس همأ أتاني من  
الخلف..)، وفي قوله: (سوف يجيئك من ألف خلف)، كما نجد التقييد بالظرف المعترض  
(الآن) في قوله: (فالدم - الآن - صار وسامًا وشارة)، كما نجد الجمع بين التقييد  
والاعتراض بالجار والمجرور في قوله: (إن عرشك: سيف، وسيفك: زيف، إذالم تزن - بذوابته  
- لحظات الشرف، واستطبت - الترف).

وفي الوصية الخامسة نجد الجمع أيضا بين التقييد والاعتراض بالظرف: (كيف تحلم  
أو تتغنى بمستقبل لغلام، وهو يكبر - بين يديك - بقلب منكس؟)

وفي الوصية السادسة نجد التقييد بالجار والمجرور في قوله: (ولو ناشدتك القبيلة باسم  
حزن أجليلة)، كما نجد الاعتراض بين الفعل والمفعول به بالجار والمجرور في قوله: (أن تسوق  
الدهاء، وثبدي - لمن قصدوك - القبول)، وبالظرف في قوله: (فخذ - الآن - ما تستطيع).

وفي الوصية السابعة نجد التقييد بالحال المتقدم على الفعل: (فجأة: ثقتني قشعريرة  
بين ضعلي..)، والاعتراض بالجار والمجرور بين المعطوف والمعطوف عليه: (واهترز قلبي -  
كفقاعة - وانفأ!).

ونجد نمطا من أنماط إحكام التقييد ينتج من خداع متعلقات الفعل بإيهام البلوغ إلى  
غاية بالجار والمجرور بل إلى في قوله: (واغرس السيف في جبهة الصحراء/ إلى أن يجيب العدم)،



وقوله: (وارو أسلافك الراقدين.. إلى أن تردّ عليك العظام!)، وقوله: (لا تصالحُ / إلى أن يعود الوجود لدورته الدائرة / ... والقتيل لطفلة الناظرة).

## القصر

أسلوب القصر يمثل إحكاما لقبضة الغرض الإنجازي وقيوده على المخاطب المستهدف بالإقناع، والقصر من الأساليب التي تُستعمل للتحتيم؛ لأنه يتسم بالتحديد المحكم، وتحاصر المخاطب بجمجمة الاستجابة، وسد منافذ مبررات التصالح، والقصر ينشأ من التقديم والتأخير ومن ثم يتداخل مع متعلقات الفعل في إحكام القيد، غير أنه جاء في بعض أساليب أخرى، من أوضحها قوله في الوصية الثامنة:

□ لا تصالح فما الصلح إلا معاهدة بين ندين....(في شرف القلب)

□ لا تنتقص.

## ثالثا: التخيل والمجاز

### 1- (لو) بين الامتناع والتخيل (الحال والمحتمل)

تأتي (لو) التخيلية التي تفترض واقعا مستقبليا متوقعا أو محذرا منه أو غير هذا من المعاني والأحداث التي لم تقع بالفعل ولكنها قد تكون محتمل الوجود في المستقبل، أو بالأحرى يخشى الصوت الرفض احتمال وجوده، وهذا الاحتمال المستقبلي هو في الحقيقة واقع، فهو مستقبلي على مستوى الحدث المستدعى من عمق التاريخ، ولكنه آنبي على مستوى الحدث السياسي الحاضر، وتأتي الصياغات اللغوية والتركيب النحوية الدالة على الاستقبال حيلة من حيل مراوغة توظيف الحدث واستدعائه.

يأتي استعمال على سبيل التخيل بغرض التمكين لموقف حجاجي، أو تقريب حقيقة مستقبلية غير متصورة عند المتلقي، فإن استعمال (لو) يفتح على المستقبل المتوقع التخيل، أو المستقبل المرتقب المرفوض المعبأ بدواعٍ من شأنها التسيويع للتصالح، تلك

العوامل المثنية عن الثأر التي تقع من الصوت الرافض في بؤرة مخاوفه، وتتوزع (لو) بين موقفين احتماليين:

احتمال أحداث بعينها من شأنها أن تدعم التصالح:

- لا تصالح! ولو منحوك الذهب
  - لا تصالح.. ولو حرمتك الرقاد، صرخات الندامة
  - لا تصالح، ولو توجوك بتاج الإمارة.
  - كنت أغفر لو أنني مت.. ما بين خيط الصواب وخيط الخطأ.
  - لا تصالح ولو وقفت ضد سيفك كل الشيوخ.
- أو احتمال أقوال بعينها تأتي بمثابة الحجج المضادة للصوت الرافض من شأنها أن تدعم التصالح أيضا:

- لا تصالح.. ولو قيل رأس برأس
- لا تصالح، ولو قال من مال عند الصدام.. ما بنا طاقة لا متشاق الحسام..
- لا تصالح، ولو قيل ما قيل من كلمات السلام
- لا تصالح ولو قيل إن التصالح حيلة
- لا تصالح، ولو ناشدتك القبيلة باسم حزن ألبيلة
- لا تصالح، ولو حذرثك النجوم، ورمى لك كهائها بالنبا..
- ولا يخفى أن المناشدة والتحذير أقوال.

نجد (لو) افتراضية، احتمالات تخيلية ليست ردا فعليا على حدث أو سلوك واقعي، وليس سلوكا متوقعا ولكنه رفض لتخيل غير واقع بالفعل يأتي لتدعيم الرفض الواقعي الحقيقي، وأغلب مجيء (لو) لافتراضات حجاجية ومن ثم تأتي قبل فعل القول.

ثم نجد التخيل لأقوال احتمالية يأتي بصورة أخرى موازية لفعل القول المسبوق بلو هو فعل القول المسبوق بالسين الدالة على الاستقبال: (سيقولون) التي تخرج عن تحديد الفاعل القائل لتأتي مرتبطة بالقول نفسه، ولكننا نجد القطع التقريري بقوله: (سيقولون)

يدعم التوقع ويقترّب من أن يكون حقيقة، ولكنه في النهاية دعم للاحتمال والتوقع يُقوِّي حجاجية الرفض.

## 2- المجاز، الامتناع القاطع

جاءت المجازات كلها تحريضية داعمة للنهي المركزي (لا تصالح) بصور مختلفة تؤكد الرفض المطلق متكئة على بُعد العلاقة المجازية واستحالة تحولها إلى حقيقة، ففي الوصية الثانية جاء الأمر: (واغرس السيفَ في جبهة الصحراء / إلى أن يجيب العدم)، وفي الخامسة جاء المجاز ممهدا لنتيجة مستحيلة: (وازو قلبك بالدم / وارو التراب المقدس / وارو أسلافك الراquدين / إلى أن تردّ عليك العظام)، وقد جاء المجاز في خطاب الصوت المتصالح في الوصية السادسة مسوغا لأمل خادع (يستولد الحقّ، من أضلّع المستحيل).

ويستثمر الرفض سرد واقعة الاغتيال في الوصية السابعة ويدعمها بالمجاز: (لم يكن غير غيظي الذي يتشكّى الظمأ)، ويقول عن قاتله في الوصية الثامنة: (سرق الأرض من بين عيني/ والصمت يطلق ضحكته الساخرة!). وفي الوصية التاسعة نجد مجازين في قوله: (والرجال التي ملأتها الشروخ)، وقوله: (وسوفهم العربية، قد نسيت سنوات الشموخ).

## الغاية والنتائج

لعلنا بهذا العرض الموجز نكون قد أقمنا الحجة على الانتقاء المنهجي الذي أطلقنا عليه: المنهجية، إذ أردنا أن نمارس الحوار بين خصوصيات النص في وجوده التواصلية والمناهج التي يستدعيها وتفرضها ظواهره، لنخلص إلى النتائج التالية:

□ تنطلق رؤية البلاغة الخاصة من حقيقة مؤداها أنه ليست هناك قواعد بلاغية صالحة لمستويات الخطاب جميعها، فالتحليل البلاغي منهج وصفي يقوم على تتبع الظواهر ودراسة خصوصية الكيفية التي تؤدي بها اللغة الغاية الخاصة للنص.

الحجاج مبحث بلاغي في أساس وجوده في عمق التاريخ، ولكن دراسته تختلف باختلاف الخصائص والغايات بين المستوى الاحتفالي الشعري، والمستوى الحجاجي الخطابي.

الدراسة البلاغية وصفية تقوم على تتبع الظواهر برصدها وتصنيفها وتحليلها، ثم استنتاج خصوصياتها، وليست مجرد تطبيق القواعد.

البلاغة تداولية قبل أن تنشأ التداولية، ويؤكد البحث على أهمية القراءة البلاغية لأساليب أفعال الكلام، إثراء للرؤية التحليلية بالجمع بين رصد الوظيفة التأثيرية والوظيفة الحجاجية.

# استراتيجية توظيف الإجراء العجائي في كتابة النص المسرحي

## - دراسة في ضوء مقترح أبو بكر العزاوي -

ابراهيمى بوداود<sup>(\*)</sup>

### تصدير

لم يجانب الصواب رومان جاكسون ذات أمسية بموسكو، حينما وقف وقفة تأمل مقابل البون الحاصل بين الأداءات التي ألحقها مُمثل من على ركح مسرح ستاستلفسكي، أثناء تلفظه بالمقطوعة الحوارية لهذا المساء وبين المقصدية التي رامها كاتب النص المسرحي، حيث لُز المخرج إلى تدوين تلك الصيغة على أربعين قصاصة ورقية تتغير مؤدياتها الدلالية، بتغير صيغ التلفظ وتلوينات النطق فيها، سعيا منه إلى تثبيت صيغة معينة يتطابق فيها الإيحاء الدلالي بالبنية التطريزية للمنطوق، فالتفت جاكسون إلى الخلخل الذي طغى على الوظيفة الشعرية التي كان يتوخاها صاحب النص وكذا مخرجه من الفعل الأدائي للممثل.

ولئن كان جاكسون قد صب اهتمامه على ضبط محددات الوظيفة اللغوية المهيمنة الشعرية في رصد أبعاد التبليغ والتأثير والانفعال بين الممثل بوصفه مرسلا والجمهور بوصفه متلقيا، وذلك ضمن تصويره لحدود النظرية التواصلية، فإن ذلك لم يكن كافيا لسد تلك الفجوة الحاصلة بين مرامي الكاتب التبليغيه وتصورات الجمهور الذهنية. ومن هنا، تنأت لنا المكنة التي قدمتها النظرية التداولية كأ نموذج بديل قد يفك الكثير من الإشكالات، ويذلل من صعوبات تفلّت المقاصد التي يتغياها كتاب النصوص المسرحية، وذلك بارتهان النظرية التداولية إلى طروحات إقناعية تتملص من تلك الجبرية التي يُدفع لها المتلقي، حيث يدعن لها قصرا العارف ويستدرج لها الساذج من الجمهور. فالنظرية تتوئب إلى مقام إقناعي يرتقي بتصورات المتلقي إلى مراقبي التبنى والاختيار من خلال آليات حوارية حجاجية تُحمّلُ بها

(\*) بوداود ابراهيمي، أستاذ جامعي، المركز الجامعي غليزان، تخصص لسانيات.

النصوص والخطابات المسرحية وتمتاع من مقامات الاستعمال وهيئات الأسيقة الملازمة، وذلك بوصف الخطاب حجة في حد ذاته.

وضمن هذا الطرح، يقدم لنا أبو بكر العزاوي مقترحا إجرائيا لتقفي أثر تمثلات الأنساق الحجاجية ضمن جملة من الخطابات (الدينية، الإشهارية) باعتبارها خطابات تطاول مرامي القصديات المضمنة بشبوتية الحجة، وذلك باستنطاق المحمولات الحجية لتلك الأنساق على نحو الأمثلة الشعبية والمقولات الماثورة، بوصفها أنساقا تقريرية مُسلمَ بصدقها سلفا ضمن عقد عرفي تنضده علاقات جمعية اعتبارية.

ولو سلمنا جدلا بأن هذه النمطية في تشكل الخطابات، هي ذاتها التي قد تحكم مفاصل الخطاب المسرحي إذا ما نهض على سند استعمالي تداولي، واستبق الكاتب المسرحي توظيف هذه الآليات الحجاجية في إعداد نماذجه الحوارية سلفا، فهل يُأتى بهذا الكاتب سلطة ترويض مؤدياته الخطابية بشكل يرتضيه هو كما المتلقي؟ ذلك هو ما نتوق إلى تكشفه فيما هو آت.

### الخطاب المسرحي وفعل التواصل

رغم الوثبات والتحويلات التي شهدتها فن المسرح عبر الأعصر، ومجايلته لتعاقب الحضارات والفكر الإنساني، بدءا باحتفالا ديونيسوسن الطقسية عند اليونان ونشأة فنون التراجيديا والكوميديا إلى ملحمة بريخت، إلا أن هذا الجنس الأدبي لم يحد عن التحرك ضمن نسقية الثنائية والتوافقات التقابلية التي تحكمه، في شكل (الملهاة/ المأساة)، (النص/ العرض)، (السيناريو/ الإخراج)، (الجوقة / الجمهور)، (العقدة/ الحل)، (الزمان/ المكان)، (الإلقاء/ التلقي)، (الأداء/ التأثير)، وجلّها تقابلات تولدت من رحم التعاضد الذي يعضد فن المسرحية، بوصفها مراسا أدبيا ينهض على مزاجية البناء الأدبي الدرامي للنص، بالعناصر الفنية للعرض. ومن ثمة، فإن الخصائص التي تسم لهذا الشكل الخطابي تتميز بتواشجها مع جملة من الترابطات الفنية والأدبية التي ترتعن إلى ثنائية الإبلاغ والإبداع.

إن الجدلية الترابطية التي تحكم الخطاب المسرحي بعناصر العرض الفنية، جعلت منه فضاءاً فلسفياً متحرراً من قيد الأنساق اللغوية ونظاميتها، التي تبررها غاية الانصهار في القوالب الفنية التي يترجاها العرض. وذلك دون تملصٍ من أداء وتأكيد وظيفته الجوهرية في إحداث التواصل، الذي يتجاوز بدوره مؤدى التبليغ والإفهام كما في اللغة، ليتحول إلى عملية تفاعلية بين مجموعة من الأقطاب ضمن حلقة المسرح، حيث يستدعي ذلك تحديد أشكال تجلي العملية التواصلية من حيث الإحالة على التصورات النظرية التي حاولت تحديد حجمها وعمقها ووظائفها من منطلقات ابتستولوجية مختلفة<sup>(1)</sup>. لتتقدم بذلك النظرية التداولية، بوصفها سنداً يتوفر على مكنة استيعاب الفعل التواصلية ضمن تعددية العناصر الفاعلة ارتكازاً على ضوابط الآلية الحجاجية.

وانطلاقاً من المسلمة المعدلة عند العزاوي لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج بغير تواصل سيكون الحجاج مرتبطاً بكافة أشكال التواصل، مقابل ما ذهب إليه طه عبد الرحمن لا تواصل باللسان من غير حجاج ولا حجاج بغير تواصل باللسان<sup>(2)</sup> حيث خلص العزاوي بهذا، فعل التواصل من تلك المعيارية الخطية اللغوية التي يلزمه بها النظام اللساني. إن الطبيعة الأدائية للخطاب المسرحي في مراوحتها بين النصوص الحوارية المعدة سلفاً، والتمثيلات الإيقونية لعناصر العرض تفقده طابع الثبوتية، وتجعل منه نصاً دينامياً، حيث تتحول النصوص المشفوهة إلى أنساق تواصلية ذات وظيفة تعبيرية حجاجية يؤديها الممثلون من على الركح، وتتحول فيه وسائل العرض السمعية والبصرية كالديكور والإضاءة والموسيقى إلى شفرات وكودات يبعدها العلاماتي تدفع إلى فك سننها. ومن ثمة، فإن فاعلية العملية التواصلية ضمن هذا التواشج تبقى رهينة بمدى تساوق هذه الأنساق (النصية/ الفنية) بشكل تناغمي، لا يحدث تصدعاً بين قصديات المؤلف والمخرج معاً، وكذا قدرات المتلقي الذهنية وتطلعاته الفنية فالنص الناجح أو المسرحية الناجحة هو ذلك النص الذي يتمكن فيه صاحبه من الاقتراب من النص الأصلي، من حيث الدلالات التي يرغب

(1) ينظر: سعيد بنكراد، مجلة علامات، عدد 21.

(2) أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج: مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت لبنان، الطبعة 1، 2010، ص 106.

المؤلف في إيصالها إلى الجمهور من خلال إظهار أحسن لكل الأبعاد التداولية لمختلف العناصر اللغوية التي يشتمل عليها النص، لأن الأهم في كل ذلك هو أن يفهم المتلقي الأبعاد المختلفة لخطاب المؤلف<sup>(1)</sup>. والمقصود بالبعد التداولي هنا، هي تلك الهياكل السياقية وكذا الفنية التي تُوظف ضمنها العمليات التبليغية والإلقائية، وتُراعى فيها جملة المبادئ الحجاجية، بوصفها مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل مجموعة بشرية معينة<sup>(2)</sup>، حيث يمثل النص إلى تلك الموافقات العرفية والمنطقية التي يحدث فيها التقاطع والتلاقح فالكل يسلم بصدقها وصحتها، فالكل يعتقد أن العمل يؤدي إلى النجاح، وأن التعب يستدعي الراحة، وأن الصدق والكرم والشجاعة من القيم النبيلة والمحبة لدى المجتمع والتي تجعل المنطق بها في أعلى المراتب الاجتماعية<sup>(3)</sup>. ومن هنا، فإن المؤلف المسرحي أثناء رصفه لعناصر بنائه الدرامية، لن يجد أفضل من عنصر الحوار لشحنه بهذه المبادئ الحجاجية، وذلك باعتباره عنصر تناقل منطوق للمضامين النصية ومؤدياتها بين طرفين أو أكثر حول مبلغ تواصلية أو موضوع ما. ينضويان تحت إطار سياقي وخطية نسقية.

### الحوار المسرحي بين المفهوم والوظيفة

يمثل عنصر الحوار في البناء الدرامي المسرحي دعامة رئيسية، بوصفه الناقل الأول والمباشر لجملة المخاطبات (répliques) المشفوهة التي يحملها النص وتؤديها شخصو مجسدة من على الخشبة، حيث تتفرع تلك المخاطبات إلى مقطوعات طويلة (Tirades) وأخرى قصيرة (stichomythie) تُعنى كل منها بوظيفة أدائية معينة، نجملها في الوظيفة التعبيرية والإخبارية والتصويرية. وهي وظائف يتوخى من خلالها الكاتب كما المخرج نقل مقاصدهما الأدبية والفنية وبلوغ القصيدة التواصلية المنشودة إلى الجمهور المتلقي. ومن هنا، فإن الحوار يقوم على تحقيق ثلاث غايات جوهرية وهي: تطوير الحبكة وذلك من خلال

(1) عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، ص 42.

(2) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العدة في الطبع، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2006، ص 31.

(3) أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 33.



الانتقال المرحلي عبر محطات المنجز المسرحي من الاستهلال إلى العقدة إلى الحل، وكذا تقديم الشخصيات والتعريف بها من خلال جُمْلها الحوارية، وآخر هذه المهام هي تخلق الإمتاع في توليفاته الجمالية ضمن فعل الأداء والإلقاء، حيث تبرز عوامل ومقومات النطق الحسن المجهور الخالي من اللحن والعي التي قد تسهم في إشباع رغبة المتلقي الجمالية من خلال الإلقاء البليغ. فالحوار بهذا المعنى، يُشكل الظاهرة الفنية الثابتة التي لا يقوم نص مسرحي بدونها<sup>(1)</sup> وذلك باعتباره مفصلا يعضد باقي عناصر البناء الفني للمسرح.

ووفق هذا المعطى، فإننا نقف على حقيقة أن الحوار المسرحي ينهض على أبعاد فلسفية وجمالية تؤديها فنية الأداء، وآليات بناء النصوص وعرفانية الفكر والإبداع لدى الكاتب والمخرجين، لتتربط بذلك وظيفته التواصلية بباقي وظائف الحبكة والبناء الدرامي، كما ترتعن تماهياتها الفنية بباقي الجماليات التي تؤديها العناصر الأخرى، ليشكل بذلك الحوار ترنيما فنيا تتعاضد فيه مؤديات القول بالأساليب الفنية للعرض والأداء، وكلما جاءت الحوارات متضّدة سلفا في النص غير مبهمة مؤدية لوظيفة محددة، أو منتجة لفعل معين، كان العرض المسرحي يتّنا منسجما.

وركحا على ما سلف، فإن مهمة الكاتب المسرحي في تأديته للخطاب لا تقف عند حدود الالتزام بهذه الوظائف والمهام. وإنما قد تتجاوزها إلى قراءات أخرى تخص طبيعة الشخصيات والممثلين، فليس للممثل أن يقلت من ذاتيته فوق الخشبة حتى وإن أدى دورا تغريبيا فإن شخصيته وكيونته الذاتية دائمة الحضور. ومن هنا، فإن المؤلف لن يجد أمامه سوى الخوض في نمذجة تلك الأشكال السردية التي تصنع الحوار وفق ما يحكم أسلوب التعبير الدرامي المتميز<sup>(2)</sup>. وهنا، يلتجئ الكاتب إلى تلك الآليات الحجاجية ضمن سياقاتها التداولية اعتمادا على اقتراح مفاهيم ومصطلحات جديدة من قبيل البرنامج الحجاجي والإستراتيجية الخطابية وتعالق الروابط الحجاجية التداولية والحجاج الأيقوني والانسجام

(1) أبو الحسن سلام: حيرة النص المسرحي بين الترجمة والاقتباس والإعداد والتأليف، قسم المسرح، آداب الإسكندرية، ط1993، ص145.

(2) بلبل فرحان: النص المسرحي الكلمة والفعل، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003، ص101.

الحجاجي التداولي، فليس مجال الحجاج هو القول أو الجملة، وإنما مجاله الحقيقي هو الخطاب والحوار حيث تتجلى طرق اشتغاله وتظهر وجوه استعماله<sup>(1)</sup>، وذلك من خلال توظيف العدد الإجرائية المتاحة بدءاً بالمعجمية الاستعمالية وتراكيبها التي لا تنفر منها أذن السامع وتستحسنها لألفتها وتعودها عليها في الخطاب العادي فالألفاظ والأقوال والعبارات التي نستعملها ونتجها في حياتنا اليومية لها طابع حجاجي واضح، ولها قوة حجاجية بارزة نسعى من خلالها إلى التأثير في المتلقي وعلى دفعه إلى تبني رأي ما، أو الاستجابة لطلب معين، أو اتخاذ موقف ما من قضية (من....أو إلى....) يغير آراءه مواقفه بشكل عام<sup>(2)</sup>. فكل مورفيم أو لفظة تؤدي معناها في الحوار تعتبر وحدة معنوية وخطابية في ترسيم معالم حوار محكم البناء وتام الحجة، كون "الحوار الدرامي من على الركن يخضع لطبيعة الجماهير، كما لطبيعة العمل الفني"<sup>(3)</sup>.

فلئن كان الحوار بمفهومه التواصل أو الاتصالي في هيئته المثالية كما يصوره لنا جاكبسون يحكمه طرفان (مرسل ومرسل إليه)، فإن الخطاب في الحوار المسرحي يشغل على ثلاثة أقطاب مرسل إليها رئيسة المخرج والممثل فالمشاهد. وكلها أقطاب تمتلك سلطة التغيير والتأثير والتبني. وضمن هذه الثلاثية القطبية في أقل تقدير لها، يسلك الكاتب المسرحي مسلكه الصارم في ضبط تلك الحوارات وفق أدواته الإجرائية المتفتحة من قواعد المنطق وحدوده، ورعاية الاعتبار الجمعي، ففي اعتقاد ستاسلافسكي أن الحوار الجيد هو الذي يحتوي على مفاتيح وإرشادات تساعد الممثل على أن يقرأ دوره كما ينبغي أن يكون<sup>(4)</sup>.

(1) أبو بكر العزاوي، اللغة والخطاب، ص 125

(2) أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 133.

(3) ينظر: أ. عادل النادي: مدخل إلى فن كتابة الدراما، دار النشر والتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ط 1، 1987، ص 28.

(4) شفيق مجلي: الحوار المسرحي، مجلة المسرح القاهرة مصر، العدد 01، يناير 1964، ص 25.

## هجائية الحوار المسرحي:

ذكرنا سلفا أن التوجه الجديد للمبحث الهجائي ينطلق من مسلمة أن كل خطاب حجة، لما يحتويه من مقصدية ضمنية. وعليه، فإننا نسلم مبدئيا بأننا نقع على الأثر الهجائي في كل أنماط الخطاب وأنواع النصوص، نجد في الخطب الدينية والقصائد الشعرية والمحاورة اليومية [...] والمسرحية الأدبية<sup>(1)</sup>. إلا أن البحث الهجائي وفق هذا المنحى لم يطاول ذلك المطلب في تقديم نماذج خطابية تفتح على أفق جديد في توليد خطابات تلي حاجة المخاطب في توجيه غاياته الدلالية، وإنما بقي حبيس بوتقة النقد وتحليل المضامين كما في السيميائية وبحوث التأويل. ومن هنا، فإننا نفضل أنه من الأرجح أن نستثمر في تلك الوظائف والقيم الهجائية التي تحكم أنماط الخطابات بتنوعها. ومن ثمة، السعي إلى وضع آليات معيارية تسهم في إعداد الخطابات سلفا، بخاصة إذا ما تعلق الأمر بالخطابات المباشرة (discours directes) كما في المسرح، وقد التفتت إلى ذلك آن أوبرسفيلد<sup>(2)</sup> Anne Ubersfeld في قراءتها التبادلية للخطاب المسرحي، حيث اقترحت ثلاث عتبات في بناء الحوار المسرحي تُجمل في ضبط المقامات الخطابية للمتكلمين، وتعربة الأنساق الكلامية من المضرات التاريخية والإيديولوجية والسياقية، وكذا الكشف عن الافتراضات التي تتحكم في الحوار سلفا<sup>(2)</sup>، وهي محددات تعمد فيها أوبرسفيلد<sup>(2)</sup> إلى التأكيد على ضرورة إبراز الملامح السياقية (الفلسفية، الإيديولوجية، الاجتماعية) للفعل الكلامي الذي يتحرك ضمنه الحوار المسرحي. كما أنها تحيل إلى مبدأ الكشف عن الافتراضات المسبقة، بمعنى الخلفيات الفكرية التي ينهض عليها موضوع المسرحية، لتنتقل بعدها إلى عتبة تضمين الأنساق الحوارية بقرائن لفظية في إطارها الاستعمالي حيث تكون سببا مباشرا في توجيه تأويلات الجمهور المتلقي إلى تصورات ذهنية محددة، ومؤدى ما ذهبت إليه الباحثة هنا، هو الدعوة إلى ضرورة تكشف تلك الأنساق الهجائية التي تنضد للبنية الحوارية في الخطاب المسرحي، حيث يمكن الحديث عن وظيفة هجائية عامة للخطاب برمته من خلال ربطه بالمتكلم والمخاطب وملابسات

(1) أبو بكر العزاوي: الخطاب والهجاء، ص 11

(2) Voir Anne Ubersfeld, Lire le théâtre, Editions sociales, 1981, p. 267.

وظروف السياق التخاطبي والاجتماعي العام، والخطاب أياً كان نوعه تكون له وظائف محايدة ومتنوعة، وظيفية إخبارية وإعلامية ووظيفة جمالية ووظيفة تفاعلية، ووظيفة حجاجية إقناعية ووظيفية إيديولوجية<sup>(1)</sup>.

إن الطرح الذي قدمته أوبرسفيلد<sup>(2)</sup> لم يخرج عن الإطار التحليلي الذي يسعى إلى سبر تجليات الملمح التداولي للحوار المسرحي، باعتباره أنموذجاً لسانيا صرفاً، حيث نتلمس تركيزها على الفعل الكلامي من منظور المواقف اللغوية، انطلاقاً من قناعتها أن أهمية التحليل التداولي للمسرح هو أن نبين كيف أن جزءاً من النص المسرحي هو صورة للكلام العادي الحي في جميع أبعاده<sup>(3)</sup>، إلا أن هذه الصورة المحاكية للظاهرة الكلامية لن تتحقق إلا من خلال الجمع بين أقطاب الدارة التواصلية الثلاث في فضاء مسرحي مشترك وجامع يحاكي الواقع وأسيقته. باعتبار المسرح صورة مصغرة للعالم وللحياة حيث توزع الأدوار على كل شخص، وبالتالي فإن خطاب الممثلين والشخصيات المسرحية هو نفسه خطاب المتكلمين في الواقع<sup>(4)</sup>.

وانطلاقاً مما سبق، فإن الكاتب مقيد سلفاً بضرورة استحضار تلك الأنماط الخطابية المألوفة وفق أسيقته لدى شخوص المسرحية وكذا لدى الجمهور. فهو بذلك، يضيق من الفسحة الحوارية التي يعتمد لها الممثلون بفعل الروح الإبداعية تحت تأثير المنعطفات الأدائية التي تحكم البنى الفنية لعناصر العرض المسرحي، ومن جانب آخر فهو يهيئ المتلقي إلى ولوج تلك الأنساق الحوارية الموظفة في الخطاب متوخياً منه تحقيق الاستجابة. وهاهنا، يكون المؤلف ملزماً بأن لا يخرج عن الأعراف الخطابية والاجتماعية للغة<sup>(4)</sup> القابلة لإعادة الترتيب والتهديب الإجرائي في إطار إقناعي أو تداولي يلبي غاية إحداث التواصل المرجو بينه وبين

(1) أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، ص 19

(2) Anne Ubersfeld, lire le théâtre; édition sociales PAR 2 EDITIONS, 1981; P294.

(3) عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 2، 2003، ص 10  
عن مداخلة للدكتورة خولة طالب الإبراهيمي، بمعهد اللغة العربية، جامعة الجزائر، 1998.

(4) عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 2، 2003، ص 10.

الأقطاب التواصلية الأخرى أو الحدود (Constraint) كما يسميها "باتريس بافيس" (Patrice pavis).

وتساوقا مع ذات التوجه، عكفت تيتيكا أرشيوني<sup>(1)</sup> (Lucie Olbrechts) على إبراز جملة المعوقات الإجرائية التي تفصل الحوار المسرحي عن الخطاب العادي، بدءا بالطبيعة الإجناسية للنص المسرحي، الذي تجليه السمات والخصائص التي تحكم النص الأدبي في بعده البلاغي والتخيلي ولغته الشعرية وانسجامه البنائي، حيث تقر بأن الحوار المسرحي، هو بمثابة الموضوع الأدبي، يلتزم بمعية الكتابة والأساليب التعبيرية والتخيل الأدبي، أي أنه أكثر انسجاما من الحوار العادي<sup>(1)</sup>. ومن ثمة، فقد أكدت على ضرورة تناول موضوع الخطاب المسرحي من زاوية النظر الإخبارية أي بوصفه فعلا كلاميا، ارتكازا على خصوصية التلفظية dispositif-enonciatif. وعليه، فإن استيعاب الكلام وفهمه يؤدي إلى الكشف عن مضامينه الإخبارية وتحديد مؤداه التداولي، أي قيمته الإنجازية<sup>(2)</sup>، وضمن هذا التداخل، فضلت أرشيوني وفق رؤية موضوعية، أن تتبنى طرح ازدواجية الحوار المسرحي ضمن الدارة التواصلية، حوار بوصفه نصا تخيليا غير مباشر يربط المؤلف بالجمهور، وحوار مباشر يؤدي ويُستوعب في سياق استعماله يجمع الشخوص بالمثلين.

وفي ذات الطرح، يذهب "مانغونو" maingueneuxdominique إلى أن الحوار المسرحي في ضوء هذه الازدواجية التواصلية التي تؤثر على فك كودات التضمين اللفظي déchiffrement del'implicite فإن جمهور المسرح لا يتوفر، قبلها، على دعائم لتفكيك المتضمنات<sup>(3)</sup>. وعليه، يجب على المتلقي فك السنن داخل السياق التلفظي، دون توجيه أو شرح أو تعليق مضمّن، حيث يرتهن المتلقي إلى مكتسباته القبلية وقدراته الذهنية الآنية للوصول إلى المعنى المتوخى من الحوار المسرحي.

(1) Karbrat- Orecchioni, Catherine, pour une approche pragmatique du dialogue théâtrale ;N41 mars 1984, P 55

(2) Orecchioni, C. K: Enonciation de la subjectivité dans le langage.- Paris, Armand Colin, 1980.-p. 185.

(3) Maingueneaux, Dominique; pragmatique pour le discours littéraire, bordas; 1990; P 148

ارتكازا على ما سلف، يمكن لنا حصر تدافع الرؤى الذي أفرزه مسعى ضبط وتحديد مفاصل تجلّي البعد التواصلّي الحجاجي للحوار المسرحي، ضمن تصورين متباينين، يعتد الرأي الأول بالطبيعة الأدبية للنص المسرحي، كما يركن الرأي الثاني إلى تعدد أقطاب التواصل في الفضاء المسرحي. ومن ثمة، فإن الإيغال في مباشرة الكشف عن هذه المفاصل يستلزم بالضرورة الالتفات إلى كل المتغيرات التي تنهض عليها خصوصية الخطاب المسرحي، وكذا المتغيرات التي تميز تعددية عناصره التواصلية.

وهاهنا، يذكر برلمان (perlman) في مبحثه البلاغي، أنه من أجل الإعداد لخطاب حجاجي، لا ضير من إقحام عناصر وخطاطات خطابية يتم من خلالها لفت انتباه المتلقي وتوجيهه بشكل يحقق الاحتواء، وذلك من خلال استبدال القرائن التأويلية بأخرى دالة تضبط سمت المنحى الدلالي<sup>(1)</sup>. ونلتمس في طرح برلمان تلك البنية التي قد تلبي غاية تتبع مسالك الأبعاد الحجاجية من خلال تضمين الخطاب بجملة من القرائن اللغوية التي تقيد التشكلات الدلالية وتقلص من فجوة الاستغراقات التأويلية، بمراعاة مكنة المتلقي في احتواء تلك المؤديات المعنوية، التي لا تخرج عن مفرزات مخياله الجمعي وعن مدركه العرفي، وذلك انطلاقا من معطى أن الجمهور السامع لا يحيد عن الإذعان للقيم والمثل المحسوسة والملموسة، وكذا الأفعال التي يتتجها المقام -lieu- أو السياق العرفي، حيث يؤسس هذا القبول الضمني لأنساق حجاجية قوية مبدئيا<sup>(2)</sup>.

وتساوقا مع طرح برلمان يذهب أبو بكر العزاوي في مقترحاته الحجاجية إلى تقديم جملة من التصورات التي تهدف إلى رصد تلك الأنساق اللغوية العرفية بوصفها أنساقا حجاجية ومبادئ استدلالية قوية، تمتاح ثبوتيتها من التوافقات السياقية الاجتماعية والانتروبولوجية على نحو آيات الخطاب المقدس والأمثال الشعبية والمقامات. كما انعطف إلى تقديم تلك الآليات الإجرائية التي تبحث في موضوع لغة الخطاب في حد ذاته من خلال

(1) Chaim Perlman et lucieolbrechts- Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique-Edition de l'université de Bruxelles- p191.

(2) ChaimPerlmanm, Rhétorique - Edition de l'université de Bruxelles, p225.

توظيف جملة من الأدوات اللغوية بوصفها عدة حجاجية لا مناص من الارتهان لها، على نحو العوامل والروابط الحجاجية.

### **حجاجية الحوار عند العزاوي؛**

لئن كانت المباحث الحجاجية التي قدم لها العزاوي، قد عنيت بتشكلات الخطاب في إطار شمولي دون تخصيص لنماذج خطابية بعينها، إلا أن جملة الرؤى الواعية التي حُمِلت بها هذه الدراسات، انبثرت إلى تقديم مقترحات مهمة يمكن أن ترقى إلى مراتب العدد الإجرائية الجادة في بناء نماذج خطابية حجاجية تُراعَى فيها خصوصية النسق اللغوي وإطاره السياقي التواصل، وهو الطرح الذي عمدنا إلى تطبيقه على نماذج خطابية مسرحية لعميد المسرح الجزائري "عبد القادر علولة"، وغايتنا في ذلك لا تقف عند حدود تحليل حوارات هذه النصوص أو استنطاق تجليات الأبعاد الحجاجية، وإنما تتعداها إلى القفز إلى إعادة بنائها اعتمادا على الآلية التي وضعها العزاوي، وفق إجراءاته النسقي والسياقي.

### **1- الإجراء النسقي: (الروابط الحجاجية)**

على الرغم من أن بواكير الظاهرة المسرحية في المنطقة المغاربية كانت عربية التأسيس إثر الجولات التي قادت رواد هذا الفن من المشرق العربي مع "مارون النقاش" و"جورج الأبيض"، فإن الخطاب الموظف في نصوصه بقي رهين اللهجات المحلية وما درج على السن العامة، لأن المجال الاستعمالي للغة العربية كان ضيقا جدا بفعل عوامل الحركات الاستعمارية المتعاقبة في المنطقة. كما أن طبيعة الموضوعات المقدمة في العروض لم تخرج عن إطار الاستلهام من الموروث الشعبي. ومن هنا، فإن التحليل البنيوي لهذه الأنساق التلفظية لن يلتزم بضرورة بمعيار لساني على النحو الذي نجده في اللغات الطبيعة الأخرى. وهو ما دفع بالعزاوي في دراسته الحجاجية للأمثال الشعبية إلى الاستعانة بالكثير من الإسقاطات اللغوية التي توخى من خلالها تهذيب وتقريب تلك الأدوات اللهجية بنظيراتها في اللغة العربية.

ويفرد العزاوي بحثاً مهماً للأدوات اللغوية ذات الوظيفة الحجاجية، وذلك ضمن  
 أنموذج التداولية المدججة لأوزفالد ديكرو (Oswald Ducrot)، على نحو الروابط  
 الحجاجية التي يشار إليها بـ: (Connecteurs argumentatifs, mots du discours, particules Pragmatiques, connecteurs pragmatiques). حيث أن دراسة  
 هذه الروابط تمت في إطار النظريات التداولية، وخاصة منها نظرية الأفعال اللغوية، ونظرية  
 الحجاج ونظرية الحوار<sup>(1)</sup>. وهي روابط تحكم أنساق الكلم كما تسهم في حضور الوظيفة  
 الحجاجية، ويؤكد العزاوي بأن اللغة العربية مثلاً، تشمل على عدد كبير من الروابط  
 والعوامل الحجاجية نذكر من هذه الأدوات. لكن، بل، إذن، حتى، لاسيما، إذ، لأن، بما أن،  
 مع ذلك، ربما، تقريباً، إنما، ما..<sup>(2)</sup> فحينما نتأمل في الأمثال التي استعان بها علولة في جملة  
 الحوارية من مسرحية الأجواد أو مسرحية أرلو كان خادم السيدين:  
 (إذا فاتك الطعام قول كليت)<sup>(3)</sup>  
 (خوك خوك لا يغرك صاحبك)<sup>(4)</sup>

ففي المثل الأول، تتقدم الأداة الشرطية إذا لتؤدي علاقة شرطية استلزامية، وهي  
 علاقة حجاجية محضة، تفيد تضمين النتيجة المضمرة (عدم التحصر عن فعل شيء فات  
 أوانه). كما أن الأداة لا النافية في المثل الثاني تؤدي وظيفة حجاجية من خلال علاقة إثباتية  
 تبريرية أو تفسيرية بنفي المحمول الثاني (حضور الصاحب) وتؤكد على المبدأ المصرح "خوك  
 خوك"، أولوية رابط الأخوة وتقديمه عن رابط الصداقة يؤيده في ذلك النسق التكراري الذي  
 يأتي محل ضمير الغائب "هو" وهي جملة اسمية تفيد التقرير (أخوك هو أخوك)، ويوعز  
 العزاوي وظيفة هذه الروابط الحجاجية في الأنساق اللغوية التي تحدد بواسطة البنية

(1) أبو بكر العزاوي: اللغة والمنطق، مدخل نظري، مكتبة الأدب المغربي، طوب بريس الرباط، 2014، ص 50

(2) أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 26

(3) عبد القادر علولة: ديوان أعماله الكاملة، ج 3. أرلو كان خادم السيدين. ص 244

(4) عبد القادر علولة: ديوان أعماله الكاملة. الجزء الأول. ص 146



(structuration) التي تقدمها أو تقترحها للخطاب<sup>(1)</sup>. إلى طبيعة العلاقات التي تتراوح بين الاستنتاج، والعلية والسببية.

## 2- الإجراء السياقي (العجة الجاهزة)

لعل تركيزنا على عنصر المثل الشعبي في التعليل لهيئات الأنساق الحوارية للخطاب المسرحي المغربي، تبررها طبيعة النصوص المقدمة التي تنهل من مكتنزات الموروث الشعبي بوصفه مصدرية عرفية متحيلة، تُحاكى فيها جملة الأسيقة المستمدة من الواقع، وتؤدي فيها السرود الملفوظة عن طريق شخوص ألفها الجمهور (الحكواتي، الراوي، المداح، القوال)، وهي نماذج تستثمر مادتها المشفوهة من المرجعيات التراثية (الأمثال، المقامات، الشعر، الغناء) باعتبارها مدركات تصويرية يخزنها المتلقي العربي في ذاكرته جاعلا منها معيارا ثابتا يستلهم منه القيم والضوابط التي توظف لسلوكه الحياتي حين تتطابق السياقات والمواقف. ومن هنا، فإن هذه الأنساق التراثية، بينها التطريزية المميزة، وحولتها الدلالية، تمثل عددا ووسائط خطابية يعتمد عليها كتاب النص المسرحي من أجل الدفع بالمتلقي إلى استحضار السياقات المناسبة للمشاهد التمثيلية، ووضعه أمام محمولات حجية جاهزة تذلل له عناء تبني الرأي واستيعابه، وذلك من منطلق أنه إذا جعلَ الكلام مثلاً، كان أوضح للمنطق، وأنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث<sup>(2)</sup>.

وفي ذات الطرح يؤكد العزاوي أن الأمثال باعتبارها مسلمات استدلالية وباعتبارها حججا جاهزة قوية، تتيح لنا القيام باستدلالات طبيعية وتداولية، ولا يمكن أن يكون لهذه الأخيرة أي طابع حتمي أو استلزامي<sup>(3)</sup>. وذلك لأن الاستدلال عند المتلقي يقوم على جملة من العمليات المنطقية الذهنية الذاتية التي يعتمد فيها على آلية القياس، حيث يستنبط فيها المتلقي نتيجته من مدركاته المكتسبة سلفا، والناجمة عن مواقف وتجارب سابقة أقرّ بصدقها

(1) أبو بكر العزاوي: اللغة والمنطق، ص 50

(2) الميداني، أحمد بن محمد بن أحمد. مجمع الأمثال. تحقيق عبد الله توما. دار صادر. ط 1 بيروت 2002. ص 6.

(3) أبو بكر العزاوي: اللغة والخطاب، ص 97.

العرف، فيكون بذلك المثل "حصيلة ونتيجة لتجربة إنسانية، يُستحضر في موقف حياتي مشابه"<sup>(1)</sup>، ليختزل بذلك الكاتب عناء تجسيد السياق في النص كما في العرض.

## خاتمة:

إن التأمل في جملة الإجراءات التي عمد العزاوي إلى إيضاحها في مجوئه التي عنيت بتقفي أثر الأبعاد الحجاجية في الخطاب، يدرك المسعى الذي كان يطاوله الباحث في تخليص القصديات من الاستغراق في المطلق واللامتناهي أو الإيهام كما يسميه أهل المسرح الذي يؤديه الفعل التأويلي للحوارات والخطابات، جاعلا من الحجة قيمة لسانية يتراوح بعدها بين تمثيلها الاستعمالي ضمن النسق اللغوي وتماهايتها التصوري ضمن ظرفية السياق. وتكمن فاعلية تلك الإجراءات الحجاجية في الربط بين إحداثيات العملية التواصلية ضمن الأنواع الخطابية التي تنهض على تعددية المرسل إليه وعلى مدى تجانس النسق اللغوي مع السياق التداولي، فكان للعزاوي أن أرسى إستراتيجية حجاجية تسهم في الترسيم لنماذج خطابية تخدم المؤدى القصدي للكاتب وتذلل من صعوبة الإقناع عند المتلقي ويمكن أن نوجز هذا المقترح في الخطاطة الآتية:

(1) ينظر: أبو سنة إبراهيم. فلسفة المثل الشعبي. المكتبة الثقافية، ع 193، مطابع الدار، فرع الصحافة، القاهرة 1968، ص 11-12.

## مكتبة البحث

- أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج: مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2010.
- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2006.
- أبو بكر العزاوي: اللغة والمنطق - مدخل نظري -، مكتبة الأدب المغربي - طوب بريس الرباط، 2014.
- أبو الحسن سلام: حيرة النص المسرحي بين الترجمة والاقتباس والإعداد والتأليف، قسم المسرح، آداب الإسكندرية، ط 1993
- أبو سنة إبراهيم. فلسفة المثل الشعبي. المكتبة الثقافية، ع 193، مطابع الدار، فرع الصحافة، القاهرة 1968.
- بلبل فرحان: النص المسرحي الكلمة والفعل، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003.
- سعيد بن كراد، مجلة علامات، عدد 21.
- شفيق مجلي: الحوار المسرحي، مجلة المسرح القاهرة مصر، العدد 01، يناير 1964.
- عادل النادي: مدخل إلى فن كتابة الدراما، دار النشر والتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ط 1 1987، ص 28.
- عبد القادر علولة: ديوان أعماله الكاملة. ج 3. أرلوكان خادام السيدين.
- عبد القادر علولة: ديوان أعماله الكاملة. الجزء الأول.
- عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 2، 2003.
- الميداني، أحمد بن محمد بن أحمد. مجمع الأمثال. تحقيق عبد الله توما. دار صادر. ط 1 بيروت 2002.

**Anne Ubersfeld**, Lire le théâtre, Editions sociales, 1981.

**Chaim Perlmanm**, Rhétorique - Edition de l'université de Bruxelles.

**Chaim Perlman et Lucie Olbrechts**- Traité de l'argumentation –la nouvelle rhétorique-Edition de l'université de Bruxelles.

**Karbrat- Orecchioni, Catherine**, pour une approche pragmatique du dialogue théâtral, ;N41 mars 1984.

**Orecchioni, C. K**: Enonciation de la subjectivité dans le langage.- Paris, Armand Colin, 1980.

**Main Gueneaux, Dominique** ; pragmatique pour le discours littéraire , bordas ; 1990.

# حجاجة الروابط والعوامل في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم

## مقاربة في ضوء التداولية المدمجة

لطيف حاتم الزامل<sup>(\*)</sup>

### ملخص البحث

تبنت التداولية المدمجة طرحاً لسانياً قوامه دمجُ التداولية بالدلالة، بخلاف الطروحات السابقة التي ترى أنَّ مُخرجات الدلالة هي مُدخلات التداولية. وفرقٌ بين أن تكون الدلالة قاعدة للاستعمال أو أن تكون التداولية قاعدة للاستدلال؛ ذلك أن الحجاج غير الاستدلال. فكلٌّ منها ينتسب إلى نظام مختلف؛ لأنَّ الاستدلال يعبر عن وجهة نظر المتكلم، وما يفترضه أو يقوله تجاه العالم. على حين أنَّ الحجاجَ مؤسس على بنية الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب<sup>(1)</sup>.

ومما يبدو في هذا الطرح أنَّ هناك عودة إلى النبوية. فالتداولية المدمجة تؤكد على القوة الحجاجية الكامنة في صلب الأقوال التي هي عبارة عن أدوات وعوامل تتفاوت في قوتها الحجاجية تقوم بتوجيه الأقوال نحو غايتها، فيكون الاهتمام بهذه الروابط والعوامل أو الموجّهات للأقوال أكثر من الأقوال نفسها<sup>(2)</sup>. ولا فرق بين أن يحصل ذلك في لغة الكلام اليومي أو في اللغة الإبداعية؛ لكنني عمدتُ إلى اللغة الإبداعية؛ لأنها تعكس الطاقة التعبيرية لهذه البنيات الحجاجية.

(\*) أستاذ التعليم العالي، جامعة القادسية، العراق، تخصص لسانيات.

(1) ينظر: اللغة والحجاج، 21.

(2) ينظر: السابق، الصفحة نفسها.

لأجل ذلك جاءت هذه المقاربة في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم؛ لاعتماد نصوصه موثلاً لهذه المقاربة الحجاجية؛ بُغية الكشف عن تلك الروابط والعوامل وأثرها في توجيه الأقوال، وفي تأثيرها في المخاطب، ومن ثم إقناعه. وأجدني محرجاً ومتردداً في هذه المقاربة اللسانية؛ لقلة المشتغلين في هذا الباب تطبيقاً لا نظيراً<sup>(1)</sup>.

وسأحاول قدر استطاعتي الخوض في هذا الباب لأقف على ما يكشف عن هذه الفاعلية الحجاجية الكامنة من الروابط والعوامل الموجهة للمتواليات الجملية والقولية في الجزء الثلاثين من الخطاب الكريم مستعينا بما يخدم البحث من المصادر النحوية والبلاغية والتفسيرية واللسانية التي ستكشف أيضاً عن جهود علمائها في النظر إلى أدق التفاصيل المتعلقة ببناء التراكيب ودلالاتها ووظيفتها.

### أولاً: ما يتعلق بفلسفة اللغة

لا أريد أن أعرض هنا لمجمل القضايا والمفاهيم التي شغلت التيارات الفلسفية واللغوية؛ لأن مجمل تلك القضايا صارت من المسلم به لدارس اللسانيات، وبها احتجنت المصادر سواء أكانت في باب الفلسفة أم في باب اللغة؟.

والملاحظ على كل تلك المحاولات والأفكار الباحثة في فلسفة اللغة، أنها حاولت أن تجيب على كل الاستفهامات المطروحة في المشروع الفكري اللغوي؛ لذلك تجدها تتباين في طروحاتها، وتختلف في وجهات نظرها، وليست هناك حلول جذرية لتلك القضايا، فظلت مفتوحة أمام الباحث ينهل من هنا ومن هناك، وهذا هو شأن المعرفة الإنسانية التي غالباً ما تكون نسبية ومتغيرة، وسؤالها مفتوح على الأفق لا يحده عارف مهما بلغ شأوه في مجال الفكر أو اللغة.

وما التداولية المدمجة إلّا غصنٌ في تلك الشجرة يحاول أن يثمر ثمرة متميزة، لكنه ملتصق بأصل الشجرة منها يستمد ديمومة حياته.

(1) أول من تصدى لهذا الاتجاه في عالمنا العربي هو الدكتور أبو بكر العزاوي في كتابه اللغة والحجاج 2009، والخطاب والحجاج، 2010. كلاهما صادر عن مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت لبنان. والدكتور العزاوي قد درس الروابط على يد ديكر.

والذي يهمنها منها هو طرحها اللساني الجديد الذي يرى ((أن الحجاج الذي يحكم هذا المشروع هو القائم على نظرية الأفعال المبنية بدورها على إنحياز تسلسلات خطائية لها قيمة استنتاجية، القصد منها (التأثير والإقناع)، أو التوجه من خلال مقومات وأدوات وروابط ومقدمات تنتهي إلى نتائج ليست بالضرورة حجاجية، برهانية خالصة كما هو الحال في البرهان المنطقي؛ بل إنها تخضع للنسبية والاحتمال القائم في بنية اللغة الطبيعية ذاتها))<sup>(1)</sup>.  
فمما يُلحظ على تلك القولة عدم القطع أو الجزم بأن كل تلك الأدوات تؤدي أثراً حجاجياً، وإنما قد تؤدي ذلك الأثر عند توجيهها للأقوال في المواقف الحجاجية التي غرضها الإقناع. فقد نجد للأداة أكثر من استعمال يخضع للقصد، لكنها في المواقف الحجاجية تظهر قوتها في الربط وتوجيه الأقوال نحو غايتها، بحيث أننا لو استعملنا غير ذلك الرابط لما حصلنا على المعنى المقصود، كما سنلاحظ فيما بعد. وبتعبير آخر، إن الفاعلية الحجاجية لا تظهر إلا في القول المنجز، من حيث كونه حجة نخدم نتيجة معينة بحسب الرابط أو العامل المستعمل، فيكون تأثيرها أقوى، بعد أن نحيل إلى معناها مباشرة دون تأويل.

## ثانياً: العجج في الأدوات / مبدأ القوة والضعف

لا ينكر أحدُ صفة القوة في اللغة، بل صفة السلطة، وإن أرادت اللغة أن تخفي عن نفسها تلك الحقيقة<sup>(2)</sup>. فأقسام الكلام من اسم أو فعل أو حرف تحمل في نفسها قوة تتفاوت من صنف إلى آخر، وتتفاوت في الصنف نفسه أيضاً. وما ذهبنا إليه يرقن في الجهد النحوي العربي عند قولهم بالقوة، وعند تفضيلهم لفظ على آخر. فالفعل عندهم أقوى العوامل<sup>(3)</sup>، والمعرفة أقوى من النكرة، والعلم أو الضمير أعرف المعارف، وهكذا. أما الحروف فتتفاوت في قوتها عند الربط، فما يصلح منها في موضع لا يصلح في موضع آخر.

(1) اللغة والفكر، دراسات نقدية، 31.

(2) لقد نبه فردريك نيتشه إلى هذا الجانب من اللغة أي أنها تحمل آثار السلطة وصفة القوة. ينظر: الفلسفة واللغة، 222.

(3) ينظر: كتاب سيبويه، 2 / 131.

لم يغفل الطرح اللساني تلك القوة. فنظرية أفعال الكلام قد عُثيت بقوة الفعل، أو ما سمّته بالقوة الإنجازية التي تُنجز أثراً مقصوداً<sup>(1)</sup>. وقد لاحظ أصحاب التداولية المدججة تفاوت الحجج في قوتها ((فهناك الحجج القوية والحجج الضعيفة، وهناك الحجج الأكثر قوة، والحجج الأكثر ضعفاً))<sup>(2)</sup>. ويبدو أن الحجاج يتفاوت في درجاته بين حجة وأخرى، فالحجج القوية يكون تأثيرها أقوى من الحجج الضعيفة على حساب نظام اللغة المستعملة. فبعض الأدوات لا يقع موضع بعض، وبعضها يتضمن معنى الآخر، وكلّه يخضع للنظام اللغوي والنظام يسبق الاستعمال بحسب دي سوسير.

### ثالثاً: الروابط والعوامل العجائية / أنواعها والفرق بينها

جعل النحويون منذ أولهم الأدوات قسماً ثالثاً من أقسام الكلام في تصنيفهم الشكلي المعروف الذي توسّع عند المحدثين<sup>(3)</sup>. ويرى أغلبهم أن هذه الحروف لا يظهر معناها إلّا مع غيرها<sup>(4)</sup>؛ لكننا وجدنا من يخالف هذه الآراء ويرى أنّ الحروف تحمل معنى في ذاتها<sup>(5)</sup>. والرأي الأخير وظفه الأصوليون في قولهم بالمعنى الإيجادي للحروف<sup>(6)</sup>. ((أي أن معنى الحرف كمعاني الأسماء والأفعال - موجود ذهني قبل الجملة، ووجوده في الذهن يؤدي نفس الوظيفة التي يؤديها في الخارج من كونه رابطاً بين معاني المفردات، أي أنّ الإنسان حين يفكر يفكر (بجمل ذهنية) لها روابطها ومعانيها النسبية الخاصة، وهي مساوية تماماً (للجمل اللفظية) التي توصل أفكاره بالآخرين))<sup>(7)</sup>.

(1) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، 42.

(2) اللغة والحجاج، 132.

(3) وصلت أقسام الكلام عند المحدثين سبعة أقسام، ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، 83.

(4) ينظر: كتاب سيبويه، 1/12.

(5) وهو ما ذهب إليه أبو علي الفارسي، وابن النحاس، ينظر: البحث النحوي عند الأصوليين، 235.

(6) ينظر: المصدر نفسه، 238.

(7) ينظر: السابق، الصفحة نفسها.



وما ذهب إليه الأصوليون من رأي يسجل لهم السبق التاريخي في هذا الباب؛ لأنّ ما ذهبت إليه التداولية المدججة لا يخرج من هذا إلّا في اختلاف النظام اللغوي الذي انطلقت منه الفكرتان، وهما نظام العربية ونظام الفرنسية.

ويفرّق أصحاب التداولية المدججة بين الروابط والعوامل الحجاجيّة في الوظيفة ((فالروابط تربط بين حجّتين على الأصح (أو أكثر)...، أما العوامل الحجاجية فهي لا تربط بين متغيّرات حجاجية (أي بين حجة ونتيجة)، ولكنها تقوم بمحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية التي تكون لقول ما))<sup>(1)</sup>.

ومن الروابط: الواو، والفاء، وحتى، وثمّ، وإن، وبَلْ، وإذ...، ومن العوامل: القصر بالنفي وإلّا، وإنّما، وإلّا في الاستثناء، وقريبا، وكثيراً<sup>(2)</sup>.

وقد تعكس العوامل الحجاجية الوظيفة البلاغية لهذه الأقوال بمحصرها المعنى وتقييده بوجهة واحدة لا تُخطئ التأثير في الآخر.

### رابعاً: الروابط والعوامل الحجاجية في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم:

يتوافر الجزء الثلاثين من الخطاب الكريم على طائفة من الروابط والعوامل التي تتباين في قوتها وغرضها الحجاجيين بحسب القصد والغرض، وما يقوم به الرابط أو العامل من أثر في توجيه الخطاب نحو غايته.

#### 1- الروابط:

وهي مجموعة الأدوات الرابطة بين حجة وأخرى، أو مجموعة من الحجج التي تستخدم النتيجة المقصودة، وسأقتصر على نماذج منها، وعلى النحو الآتي:

(1) ينظر: اللغة والحجاج، 33، والخطاب والحجاج، 56.

(2) ينظر: السابق، الصفحة نفسها.

ولها في اللغة وظائف عدة ذكرتها مُصنِّفات الحروف، ولا حاجة إلى ذكرها هنا؛ لأن الذي يهَمُّنا منها هو الربط بين الجمل التي تكون حججاً في الخطاب، وهذا ما يوفر للمتكلِّم أمرين أحدهما:

انتظام الحجج ومشاكلتها للواقع شكلاً ودلالة، بحيث تتطابق مع عالم الأشياء؛ فتكون حجة على الغرض قبل كل شيء. وقد ربطت الواو بين عددٍ من الجمل الفعلية في سورة النبأ باتخاذها حججاً للذين يتساءلون ويختلفون على الرغم من وجود حقائق مدركة تستحق الاستجابة والإذعان وعدم الاختلاف. قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي مَرُّ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ {النبأ}. فجاءت الحجج لتخبرهم أو تعلمهم بما يتساءلون عنه ويختلفون فيه، ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لَبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ {النبأ}.

وكانت الحجج متتالية قوية مترابطة (الجعل، والخلق، والبناء، والاتزان) جميعها تُنبئ بقدرة عليا على الخلق من العدم، فتكون الاستجابة سريعة، والإقناع أسهل.

## الثاني:

إن هذه الجمل لها طابع حجاجي؛ لأنها تسعى إلى التأثير في الآخر، والطلب منه باتخاذ موقف، أو تغيير موقفه السابق الذي هو الإنكار إلى موقف آخر هو الإقرار والاعتراف بالبعث والتصديق. وكان للواو أثر في ربط الحجج ببعضها البعض وتسلسلها في الخطاب.

تأتي الفاء رابطاً حين يكون ما قبلها سبباً لما بعدها<sup>(1)</sup>؛ لذلك نجد ما تستعمل لهذا المعنى من دون حروف العطف الأخرى. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ {الفيل}.

فالفاء ربطت النتيجة بالحجة. فبسبب من غزوهم الكعبة أرسل إليهم طيوراً تهاجمهم حتى أهلكتهم وأهلكت أفيالهم، فكانت نتيجةهم الهلاك وعصمة الكعبة. فالفاء رابط أفاد السبب. فهل يجرؤ أحدٌ بعد ذلك الحدث على غزو الكعبة والقصد إلى تهديمها!

وأفادت السبب في قوله تعالى: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٌ ﴿١﴾ إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ {قريش}. وقد توسطت الفاء بين الحجة والنتيجة. فالحجة هي نعمة الرزق والأمان الذي من الله بهما عليهم، والنتيجة استحقاق العبادة. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ {الكوثر}.

فبسبب ما أعطيناك من نعمة عليك بالصلاة؛ إذ توسطت الفاء بين الحجة والنتيجة. فالفاء هنا سببية لا عاطفة؛ لأنه لا يجوز عطف الطلب على الخبر. ومنه ما وقع في سياق الشرط، نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ {النصر}.

فربطت الفاء بين الشرط وجوابه الذي هو عبارة عن طلب التسييح والاستغفار. وقد وقع الفعل ماضياً بعد إذا للدلالة على أن السبب واقع لا محالة. وجملة الشرط هي

(1) ينظر: معاني النحو، 3/ 229

الحجة، وأما جوابه فهو النتيجة المطلوبة وللفاء اثرٌ في ربط الحجة بالنتيجة والإقرار والاعتراف بالنصر الموعود.

ج- ثم:

وهي مثل الفاء إلّا أنّها أشدّ تراخياً<sup>(1)</sup>، أي أنّها أقلُّ قوّة حجاجية من الفاء، لهذا تجدّها ترد في سياق التوكيد دائماً على نحو ما جاء في سورة التكاثر: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٣﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٤﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٦﴾﴾ {التكاثر}. فالجحيم هو النتيجة والجزاء، أما الحجة فهي الانشغال بالحياة الدنيا من مالٍ وبنين: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ {التكاثر}.

أما التراخي فلأنّ تلك المشاهد لم تحصل في الحال وإنّما بعد الموت؛ لذلك جاءت ثمّ مؤكّدة لتلك المشاهد فربطت أكثر من حجة بالنتيجة؛ لغرض تغيير الموقف واستبداله بموقف آخر، وكأنّه يقول ما تنكرونه اليوم سترونه غداً فإن بقيتم على إصراركم هذا وسلوككم هذا فالعاقبة الجحيم.

د- حتّى:

رابطٌ حجاجيٌ يُستعمل في الكلام للدلالة على أنّ ما بعده أقوى الأجزاء، وعندما تكون جارة لا عاطفة فيدخل ما بعدها في حكم ما قبلها ويكون جزءاً منه<sup>(2)</sup>، نحو قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ {القدر}.

فال فجر جزء من الليلة، ويشمله السلام والأمان الذي يعمُّ في هذه الليلة المباركة، وقد ربطت حتّى النتيجة بالحجج السابقة لدفع المخاطب إلى اتخاذ موقف معين. ومنه قوله

(1) ينظر: السابق، 3 / 232.

(2) المقتصد في شرح الإيضاح، 2 / 841، ومعاني النحو، 3 / 237.

تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ {البينة}.

وحتى هنا بمعنى (إلى أن) والفعل بعدها يدلّ على الاستقبال منصوب، والبيّنة هي الحجة الواضحة، أي أن أهل الكتاب والمشرّكين لم يتركوا كفرهم وإشراكهم إلى أن تأتيهم الحجة الواضحة وهي الرسول محمد وما معه من كتب أو صحف مطهّرة كونه أمياً.

هـ- بَلْ:

وهي في النحو حرف إضراب يدخل على المفردات والجمل<sup>(١)</sup>، والذي يهمنا منها دخولها على الجمل، أو الانتقال من غرض دون إبطال الكلام السابق، نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦﴾ {الأعلى} فهنا انتقال من غرض إلى غرض آخر. وهي هنا بمعنى لكن وإذا كانت بمعنى لكن فهي تربط حجتين متعارضتين. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٧﴾ ﴿٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٩﴾ {الانشقاق} وبل هنا بمعنى لكن والحجة بعدها أقوى الحجج؛ لأن هؤلاء الأقوام صفتهم الكذب؛ لذلك فهم لا يسجدون ولا يؤمنون.

و- إِذْ:

رابطٌ حجاجيٌ يفيدُ التعليلَ في بعض المواضع، نحو قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ ﴿١٠﴾ إِذْ أُتْبِعَتْ أَشْقَاهَا ﴿١١﴾ {الشمس}. أي: بسبب طغيانها خابت ثمود ففعل ما فعل شقيها عند عقره لئان النبي صالح (عليه السلام)، وبسبب من فعل شقيهم استحقوا العذاب بحق.

(١) ينظر: المقتصد في شرح الإيضاح، 2 / 946.

وتأتي ((الربط الكلام بعضه ببعض فلا يحسن سقوطها منه، وإن أسقطتها رأيت الكلام مختلفاً غير ملتئم))<sup>(١)</sup>، نحو قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ ﴿الطَّارِقُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ﴾ ﴿الطَّارِقُ﴾. ففوة الربط ب (إن) بينة؛ إذ لو أسقطتها من الكلام لاختل اتساقه وقد ربطت إن نتيجة الرجوع والحسم بما قبلها من حجج.

وقد تأتي للتعليل فيكون ما قبلها سبب لما بعدها، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿النَّازِعَاتِ﴾. فالجنة جزاء الخشية ونهي النفس عن المحرمات. فجاءت الحجج سبباً للنتيجة التي سيحصلون عليها وهي الوعد بالجنة.

### ح- الروابط الحجاجية التشبيهية:

وورد منهما في الجزء الثلاثين رابطان هما (الكاف، وكأن)، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ﴿القَارِعَةِ﴾. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ ﴿النَّازِعَاتِ﴾. ففي الحجة الأولى شبه حال الناس في تفرقهم وحيرتهم بالجراد والصوف المتناثر، وفي الثانية تشبيه لمدة لبثهم التي لم تبلغ يوماً كاملاً. ((والملاحظ أن المثال التشبيهي يحكم مباشرتهما ودلالتهما التشبيهية الأصلية))<sup>(٢)</sup>. وهذا ما يدعو إلى الاستجابة السريعة والتأثير المباشر في المخاطب وإقناعه وتغيير موقفه.

(١) معاني النحو، 1 / 312

(٢) الخطاب الحجاجي، أنواعه وخصائصه، 164.

## 2- العوامل الحجاجية:

قلنا إنّ العوامل الحجاجية تقوم بمحصر الإمكانيات الحجاجية وتقييدها، ويُعبر عنها

بأدوات:

### أ- القصر بالنفي وإلّا:

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۖ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ۖ﴾

{النبأ}. فالرابط الحجاجي هنا يخدم نتيجة سابقة هي: ﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا ۖ﴾ {النبأ}.

فالنفي والاستثناء جاءا لتأكيد ما يحصل لهم في مدة لبثهم، أي: (لا يذوقون فيها برداً وروحاً ينفس عنهم حرّ النار، ولا شراباً يسكن عطشهم، ولكن يذوقون فيها حميماً وغساقاً)<sup>(1)</sup>. فالقصر أتاح للقول قيمة حجاجية لم تكن له لولا هذا القصر.

### ب- القصر ب (إنّما):

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن تَخْشَاهَا ۖ﴾ {النازعات}.

فقصر الإنذار على أصحاب الخشية الذين يخشون أهوالها، فتكون إنّما عامل دفع قوي لهم على اتخاذ موقف معين.

### ج- القصر بإلّا الاستثنائية

ومنه قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ﴾ {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ

أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۖ﴾ {الانشقاق}.

فاستثنى المؤمنين من العذاب، مثلما هو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُشْرٍ ۖ﴾ {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۖ﴾ {العصر}. وكان

للقصر بإلّا أثر في إخراج المؤمنين من العذاب والاستثناء هنا منقطع.

(1) الكشاف، 4/675.

## د- العامل الحجاجي قريباً:

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ۝﴾ {النبأ}.

ف قريباً وصف للعذاب الذي يلحق بالكافر يوم الحساب حتى لا يأخذه الإسراف في الكفر فالنتيجة تكون ما قدمت يده في الدار الأولى وجزاء له في الآخرة التي أنكرها على الرغم مما أُنذر به.

## هـ- العامل الحجاجي زويداً

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَهْلٍ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ زُوَيْدًا ۝﴾ {الطارق}.

أي: أعطهم فرصة لعلهم يهتدون، فإن لم يهتدوا فتلك حجة عليهم، وتكون النتيجة القول الفصل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۝﴾ {الطارق}. فيفصل بين الحق والباطل. وقد أضاف التكرار قوة حجاجية عالية فساعد العامل الحجاجي على تحقيق القصد.

## نتائج البحث

في إطار هذه المقاربة حاولت تقريب المفاهيم التي أفرزتها التداولية المدججة ونظام العربية في تعامله مع الأدوات حين تكون روابط بين حجة وأخرى، أو بين مجموعة حجج ونتيجة، أو عوامل لتقييد المعنى، ولم أجد جديداً في الطرح إذا ما لاحظنا معالجة النحويين العرب والبلاغيين لكل تلك الروابط والعوامل ورصدها في الاستعمال وفي وجوهاها التعليلية التي تخدم غرض الكلام والأقوال.

ولا شك في أن النحويين والبلاغيين بنوا افتراضاتهم على نصوص إبداعية من أهمها القرآن الكريم، وإن لم يسيروا إلى ما يُسمّى اليوم بالحجاج، لكنهم أدركوا دلالات تلك الأدوات على التعليل والتفسير، والقدرة على الإرشاد والإقناع، وهذا هو الحجاج بعينه.



## مظان البحث

- البحث النحوي عند الأصوليين، مصطفى جمال الدين، ط1، دار الرشيد للنشر - العراق، 1980م.
- التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2005م.
- الخطاب الحجاجي، أنواعه وخصائصه، هاجر مدقن، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2013م.
- الفلسفة واللغة، د. الزواوي بغورة، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2005م.
- كتاب سيويه، أبو بشر عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط3، مطبعة المدني، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م.
- الكشف، جار الله الزمخشري، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، ط، الدار البيضاء، المغرب.
- اللغة والحجاج، د. أبو بكر العزاوي، ط1، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، 2009م.
- الخطاب والحجاج، د. أبو بكر العزاوي، ط1، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، 2010م.
- اللغة والفكر، دراسات نقدية، د. حسين مسكين، ط1، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت لبنان، د. ت.
- معاني النحو، د. فاضل السامرائي، مطبعة التعليم العالي، الموصل، 1989م.
- المقتصد في شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: د. كاظم بحر المرجان، المطبعة الوطنية، عمان، نشر دار الرشيد، بغداد، 1982م.



# مفهوم «الحجاج» وتعريفاته : عناصر من أجل تدريسية النظريات

## العجائية المعاصرة على المستوى الجامعي

رفائيل ميشلي - جامعة لوزان (\*)

ترجمة: إبراهيم أمغار<sup>(\*)</sup>

### ملخص

يقترح هذا المقال تعزيز اكتشاف النظريات المعاصرة للحجاج وتملك زمامها من قبل جمهور طلاب مستوى الماستر. وإذ نلاحظ تعدد المعاني التي يمكن أن يفترضها مفهوم «الحجاج» نفسه، فإننا نحاول أن نحدد الطرائق والرهانات التي تقدم بها النظريات المختلفة تعريفها للمفهوم. ويتوخى أن يجعل مفهوما المناقشات التي تحرك المتخصصين بصدد تعريف موضوعهم والسماح للطلاب لاختيار هذا التعريف أو ذاك للحجاج بشكل واع بالحقائق. ونود كذلك أن نسهم بشكل متواضع في الأبعاد التدريسية لنظريات الحجاج على المستوى الجامعي.

الكلمات الدلالية: الحجاج، التعريف، التدريسية، الانعكاسية، النظرية

### 1- مدخل

تسعى هذه المساهمة إلى تحقيق هدف تمهيدي: فهي تقترح تشجيع اكتشاف النظريات المعاصرة للحجاج وتملكها من قبل جمهور طلاب<sup>(1)</sup> درجة الماجستير في علوم اللغة

(\*) Micheli, Raphaël. "La notion d'argumentation et ses définitions: éléments pour une didactique des théories argumentatives contemporaines au niveau universitaire". Cahiers de l'Institut de linguistique et des sciences du langage 33. L'analyse des discours de communication publique (2014): 157-185.

إبراهيم أمغار، أستاذ باحث، جامعة محمد بن عبد الله، فاس، تخصص لسانيات

نستخدم صيغة المذكر، في هذه المقالة، تجنباً لإثقال النص، وللإحالة على كل من الرجال والنساء معا.

والاتصال. فالصعوبة الأولى التي يواجهها الطلاب هي أن دراسات الحجاج «تشكل سديما مشتا لل غاية تتداخل فيه مختلف الاهتمامات النظرية والعملية والمقاربات المتعددة التخصصات المختلفة» (Breton et Gauthier 2000: 69). والواقع أن الدراسات الحجاجية، منذ انبعاثها في الخمسينات، شهدت تطورا مذهلا: إذا صار الحجاج يستثمر اليوم من قبل العديد من التخصصات (علوم اللغة والاتصال، ولكن أيضا - وبطريقة رئيسية - البلاغة والفلسفة والمنطق، على سبيل المثال لا الحصر)، وفي العديد من الفضاءات الجغرافية والثقافية.

وغني عن البيان أن هذا التعدد كان له أثره في تضاعف التعاريف التالية لمفهوم «الحجاج». ومن ثم يمكن القول بأن دراسة الحجاج، سواء بالنسبة للطالب المبتدئ أو للباحث المتخصص، تسير جنبا إلى جنب مع المطلب المنهجي الآتي: «إن التشظي التخصصي والنظري للدراسات في الحجاج تتطلب أن نحدد، قبل أي تحليل، إلى ما يشير مفهوم الحجاج» (Doury 2003: 11). وهذا في نظرنا، من التحديات الأولى التي تواجه تدريس نظريات الحجاج على المستوى الجامعي: حيث يجب على المدرس على نحو مثالي:

دعوة الطلاب إلى تشغيل رد فعل نقدي لمفهوم الحجاج كما تمثلوه بشكل عفوي؛ دفعهم إلى الإقرار بوجود تعريفات علمية متعددة للمفهوم تصل إلى درجة التباين أحيانا؛

التوصل إلى إثارة اهتمامهم بالمجادلات النظرية الدائرة حول مفهوم الحجاج. ومع ذلك، فإن مثل هذا العمل - الذي يمكن وصفه بالميتانظري - مكلف، ونستطيع فوراً وضع فائدته النظرية موضع الشك: فإذا اقتحمنا التعقيد اللانهائي لمفهوم الحجاج، ألا نعرض الطلاب لخطر ارتباك أذهانهم؟ أليس من الأجدي أن نقترح على الطلاب تعريفا وحيدا للحجاج يكون ملائما تبعا للغايات التدريسية المتوخاة؟ ولكن، في ظل هذه الشروط، يصير من الخطر تقديم التعريف المنتقى باعتباره بديهيا و«توطينه» ومن ثم إخراجه - ضمنا - من سياق المجادلات النظرية التي انبثق عنها ومن دونها يكون فهمه ناقصا. ومن ناحية أخرى، إذا قبلنا هذا العمل الميتانظري على بناء مفهوم الحجاج، فإن ثمة

خطرا آخر: هو إحصاء مختلف التعاريف المتداولة، مما يؤدي حتما إلى إثارة إحساس محبط بالنسبوية. ويبدو أن كل نظرية تنص على معنى ما عندما تستخدم مفهوم «الحجاج»، ولا يتضح لنا لماذا ينبغي للمرء أن يفضل معنى على آخر.

والنهج الذي سيتم تطبيقه هنا مدفوع بإيمان قوي: إذ تشكل حتما نظريات الحجاج كلها كتلة غير متجانسة حاليا، لكن من المحتمل أن تمثل ثروة هائلة للطلاب. وليس من المناسب، في رأينا، أن نحمي الطلاب من النظرية والمجادلات المشكلة لها، بحجة أن ذلك سيكون «معقدا جدا»: بل على العكس، يجب أن يمنحوا الوسائل لقراءة النظرية وتملكها. ومن شأن هذه المقالة أن تسهم<sup>(1)</sup> بالتالي بشكل متواضع في إضفاء طابع تدريسي didactisation على النظريات المعاصرة للحجاج. وسنوضح بادئ ذي بدء استحالة أي ادعاء بالشمولية هنا بطبيعة الحال. ويركز المقال على بعض النماذج النظرية التي ميزت الأدبيات العلمية حول الحجاج باللغتين الإنجليزية والفرنسية في العقود الأخيرة ولكنها لا تتطرق للأدبيات الغنية حول الحجاج في لغات أوروبية أخرى - الألمانية والإيطالية على وجه الخصوص - وكذلك في المناطق الثقافية خارج أوروبا (على سبيل المثال التقاليد العربية<sup>(2)</sup>). والهدف من ذلك هو تحسين فهم كيفية تنظيم المجادلات حول تعريف مفهوم الحجاج. والفرضية المدافع عنها هي أنه من الممكن، لغايات تدريسية، هيكلية هذه المجادلات باستخدام عدد محدود من المعايير، والتي تسمح لنا أن نلاحظ فيما تتشابه هذه التعاريف المختلفة للحجاج، أو على العكس من ذلك، فيما تتعارض. ونسعى أيضا إلى تنظيم المجادلات النظرية وجعلها مفهومة للطلاب. وينبغي أن نضيف في الحال أن مثل هذا النهج لا يستبعد، بل على العكس يشجع الطالب على اتخاذ موقف شخصي. والفكرة هي عدم وضعه في موقف المتفرج الأبدي للمناقشات النظرية التي تحرك مجتمع الباحثين المهتمين

(1) كثير من الباحثين المتخصصين أنجزوا دراسات ذات طابع ميثاقري حول الحجاج وحلوا المعاني المختلفة التي يمكن الحصول عليها تبعاً للنظريات. في اللغة الفرنسية، سوف نغفل أولاً على الأعمال الهامة لـ Plantin (1990: 146-2005) ; 1996a: 17-19 ; 151، وفي اللغة الإنجليزية إلى تلك الخاصة بـ Eemeren et Grootendorst (2004: 1-41).

(2) لاكتشاف هذا التقليد، انظر Plantin (2005: 106-121).

بالحجاج: والمقصود في نهاية المطاف هو أن يتقني التعريف الملائم، مع معرفة تامة بالحقائق. إن هدفنا هو تسهيل استيعاب الطالب لهذا النموذج النظري أو ذاك وفقا لنوع العمل الذي يقوم به على الحجاج، وأهدافه البحثية، فضلا عن طبيعة المعطيات التي يرغب في تحليلها حجاجيا.

## 2- الخلافات التعريفية حول مفهوم «الحجاج»: معياران بنيويان

لفهم كيف يتم تنظيم المجادلات حول مفهوم الحجاج، سنطلق هنا من فكرة صيغت عمدا ببساطة شديدة، ولكن تبدو لنا إمكاناتها التوجيهية حقيقية تماما. ويبدو أن محاولات تعريف الحجاج يجب أن تتعامل مع معيارين على الأقل: (1) معيار بنيوي ينظر في الحجاج في إطار النصية، و(2) معيار تداولي، ينظر إلى الحجاج في إطار النشاط التواصل.

(1) يمكن إدراك الحجاج أولا كصيغة لتنظيم الملفوظات. وتعتبر هذه الملفوظات ذات مجموعة محددة من العلاقات فيما بينها: في الحد الأدنى، نقول إن ملفوظا أو أكثر («فرضيات»، «حجج»، «بيانات»، «أسباب»...) يهدف إلى الرفع من مقبولية ملفوظ آخر («استنتاج»، «أطروحة»...)، بواسطة ملفوظ آخر، غالبا ما يكون ضمنيا («قانون عبور»، «ضمان»، «موضع topos»). ووفقا لهذا المفهوم، فإن الحجاج يعتبر قبل كل شيء منتجاً نصياً، مرتبطاً بالتأكيد بنشاط إنتاجي (ولكن هذا لا يدخل صراحة في التعريف). يتحدث رالف جونسون Ralph Johnson بهذا الصدد عن المنظور البنيوي structural view (المفهوم البنيوي):

يعتبر المنظور [البنيوي] الحجة مجموعة تعابير [...], إحداها، أي النتيجة، مدعومة من أخرى - الفرضيات. [...] من هذا المنظور، فإن الحجة نص أو خطاب له بنية معينة: دعوى مدعومة بعلّة (أو علل) (Johnson 2000: 146).

(2) أما إذا اعتمدنا الآن على معيار إضافي تداولي، فيمكننا أن نتصور الحجاج نشاطاً تواصلياً، مما يستلزم - كما هو حال توصيف أي نشاط آخر - مساءلة الفاعلين les agents المشاركين، والأغراض les buts التي يتوخونها، والآثار leseffets التي يسعى كل واحد منهم إلى إحداثها في الآخرين، فضلا عن الضوابط التي تنظم مسار النشاط. وكما

أشار جونسون فإن مسألة الغرض بارزة بوجه خاص في مثل هذا التصور: «تطلق المقاربة التداولية للحجاج من السؤال: ما الغرض (أو الأغراض) التي تخدمها الحجة» (المرجع نفسه: 149).

وقد تم التأكيد على أهمية هذين المعيارين بشكل منتظم من قبل الباحثين الذين أنجزوا عملا ميثانظريا عن مفهوم الحجاج<sup>(1)</sup>. ولا ينبغي أن يوحي العرض المبسط المقترح هنا بأنهما يشكلان شرطين لانقسام ثنائي، كما أنهما ليسا المعيارين الوحيدين ذوي الصلة لتحديد هذا المفهوم. بل إن فرضيتنا هي أن هذين المعيارين يضطلعان حقا بوظيفة بنيوية في المجادلات التعريفية. وفي الواقع، يبدو من الصعب عند صياغة تعريف للحجاج، ألا نطرح في وقت ما سؤالين رئيسيين:

- هل يمكن أن نعتبر أن الحجاج يتجسد في قالب نصي مخصوص؟
- هل من المناسب (أو حتى من الممكن) أن نربط بالحجاج غرضا (أو عدة أغراض) توحد المستجدات المتنوعة؟

وبطبيعة الحال، وانطلاقا من هذه الأسئلة، فإن احتمالات التعريف تبقى عديدة. ومن الضروري تصور هذين المعيارين حول النصية والنشاط كقطبين من سلسلة متصلة يمكن على أساسها - وهذا في رأينا للتنوعية بالخطئة التدريسية - التخلص من مختلف التعاريف الموجودة في مجال الدراسات الحجاجية. فعندما تقدم النظريات تعريفا للحجاج، فإن كل واحدة منها تشتغل بطريقتها الخاصة - وغالبا بشكل ضمني - بالترجيح بين هذين المعيارين: وهذا ما نقترح تسليط الضوء عليه هنا. وبدون أي ادعاء بالشمول، فإن المتاح لدينا ثلاثة اتجاهات رئيسية: التقليل من المعيار التداولي لصالح المعيار البنيوي (2. 1)،

(1) على سبيل المثال، يميز بلاتان بين تعاريف «داخل-خطائية» و«خارج-خطائية» للحجاج: فالأولى تتعلق أساسا بـ «قوالها البنيوية» والأخرى بـ «أثرها (أو آثارها) التكليلية» (perlocutoire (2002: 66. وعلاوة على ذلك، فإنه حتى التباس كلمة «الحجاج» (التي تدل في الآن نفسه على كل من الإجراء والمتوج) لا ينقصه التدقيق (Van Eemeren et Grootendorst 2004: 1).

والتقليل من المعيار البنيوي لصالح المعيار التداولي (2. 2)، وأخيرا، السعي إلى الموازنة بين هذين المعيارين (2. 3).

## 2-1: التقليل من المعيار التداولي لصالح المعيار البنيوي

### 2-1-1: خطاطة الحجاج والتسلسل الحجاجي

ما تزال الأعمال التأسيسية للفيلسوف الإنجليزي ستيفن تولمين Stephen Toulmin (1922-2009)، إلى اليوم، واحدة من المصادر الرئيسية للمقاربات التي نصفها هنا بـ «البنيوية». ومنذ البداية يعبر هذا التأكيد عن مفارقة، ذلك أن عنوان العمل الشهير لتولمين (استخدامات الحجج) The Uses of Argument (1958)، المترجم إلى اللغة الفرنسية باسم (Les usages de l'argumentation) قد يصرف الذهن إلى تعريف للحجاج باعتباره نشاطا سياقيا. بينما يطرح الفيلسوف الحجاج كصيغة لتنظيم<sup>(1)</sup> الملفوظات، مترابطة فيما بينها بسلسلة من العلاقات المحددة. وهذا هو الغرض من «خطاطة الحجاج» الشهيرة. فالادعاء (claim)، يجب، إذا تم الطعن فيه، أن يبرر: وتستلزم عملية التبرير هاته بشكل حاسم أن تكون الدعوى متصلة بـ «معطى» (data)، وهذا بموجب «قانون عبور» passage loi de warrant (ضمان) يضمن أن يكون هذا الربط مقبولا. ويمكن أن يستند «قانون العبور» نفسه في الأصل على «دعامة» (backing). وهي التي تمنح للدعوى درجة متغيرة من القوة، تسجل بواسطة «موجّه» (qualifier). وإذا كان الادعاء قابلا للتخصيص، فإن ذلك يرجع إلى أنه قد تكون هناك «تفنيدات» (rebuttals)، أي ظروف لا يمكن أن يطبق فيها «قانون العبور».

لقد اعتمدت هذه الخطاطة وعلق<sup>(2)</sup> عليها على نطاق واسع، ولن ندع نحن أيضا الفرصة تمر دون أن نبدي ملاحظتين عامتين بشأن كل من أهمية نموذج تولمين وحدوده.

(1) يستخدم تولمين مصطلح layout، والذي يمكن أن يوافق الترجمات الآتية: «التنظيم» agencement، «العرض» présentation، «الحكم» disposition...

(2) انظر من بين عديدين (Johnson (2000: 46-50)، (Plantin (1990: 22-34 ; 2005: 19-24)، (VanEemeren (2003).



لا شك أن أحد نقاط قوة الخطاطة يكمن في الثالوث المعطى - <قانون العبور> - الاستنتاج. ويوضح تولمين أن الحجاج يستند أساسا إلى الترابط بين هذه المكونات - الثلاث: ف «المعطى» يأخذ وضعه كحجة لصالح «الاستنتاج» ورهنا بـ «قانون العبور» الذي يضمن، بطريقة ضمنية غالبا، الصلة بينهما. وينتمي «قانون العبور» هذا إلى مجموعة من الآراء المقبولة عموما من قبل أعضاء جماعة ما: وهو ما يحيل في هذا الصدد إلى المفهوم البلاغي للموضع (topos (Plantin 1990: 29; 2005: 24). ويمكن القول إن هذه العلاقة الثلاثية المعطى - <قانون العبور> - الاستنتاج قد طبعت عميقا الدراسات حول الحجاج، وخصوصا عندما تتحرى الجانب الذي نطلق عليه هنا «البنوية»: لقد تحدث بلاتان عن «وحدة حجاجية» (1990: 33) argumentative cellule - وهو مصطلح تداوله مؤخرا ميشال دوفور Michel Dufour، الذي يرى في «وحدة cellule فرضية - مرجع - استنتاج»، «المعيار المميز للسجل الحجاجي» (2008: 54) registre argumentatif - بينما جعل جان ميشيل آدم Jean-Michel Adam من «ثالوث المعطى» << قانون العبور >> الادعاء الاستنتاجي conclusive Assertion تأكيدا قاطعا على «جوهر الحجاج» (2004: 84).

ورغم ذلك، فعند التركيز على المنظور اللساني، من باب الحرص على تحقيق العدالة للواقعية اللغوية<sup>(1)</sup>، ترك الخطاطة عدة أسئلة معلقة. بادئ ذي بدء، تلك المتعلقة بطبيعة ورتبة الوحدات اللسانية المعنية: أي نوع من الوحدات النحوية الجزئية أو الكلية (اقتضاءات، جمل بسيطة أو مركبة، بل حتى جمل دورية) يحتمل أن تحقق في الواقع المكونات المجردة للخطاطة<sup>(2)</sup>؟ وبعدئذ، تلك المتعلقة بالخطية: فإذا أخذنا بعين الاعتبار التحقيقات النصية الفعلية، فوفق أي نظام تترتب هذه المكونات<sup>(3)</sup>؟ وأخيرا، تلك الخاصة بالتعقيد: كيف

(1) هذه ليست وجهة نظر تولمين، البنية على أرضية فلسفية وتسعى للدخول في حوار مع منطقة عصره، الذين يهتمهم بتبني مقاربة «صورية» بشكل مفرط عند دراستهم للاستدلالات.

(2) انظر، من أجل نقاش حديث لهذا المشكل، Atayan 2009: 96-99.

(3) تسعى أعمال جان ميشيل آدم (1996، 1997، 2004) إلى الاستفادة من خطاطة تولمين في إطار لسانيات النص، مع دراسة المتأالية الحجاجية ونظامي تسلسله الرئيسيين (التصاعدي والتنازلي).

نفكر، انطلاقاً من الخطأ القاعدية، في بنيات أكثر تعقيداً (وشائعة جداً) تنطوي على فرضيات للاستنتاج نفسه أو التي تكون فيها فرضية ما يجد ذاتها مدعومة بحركة حجاجة<sup>(1)</sup>؟

## 2-1-2: نظرية الحجاج في اللغة

علينا الآن أن نقول كلمة عن تعريف للحجاج له وضعه الخاص. وما لا شك فيه أنه، مثل سابقه، يشير إلى أن المعيار التداولي قد تضاعف لصالح المعيار البنيوي، مما يبرر النظر في هذه المرحلة من العرض. كما يتميز بنيتة الصريحة في كسر التعاريف «المعهودة» للحجاج، مما يبرر إجراء بحث منفصل. ويتعلق الأمر بما يسمى بنظرية «الحجاج في اللغة»، التي وضعت منذ الثمانينات من قبل أوزوالد ديكر وOswald Ducrot، لأول مرة مع جان كلود أنسكومبر (1983) Jean-Claude Anscombre، ثم مع ماريون كاريل Marion Carel.

يعرف ديكر والحجاج بالطريقة الآتية:

تشكل أجزاء الخطاب من تسلسل لقضيتين ح و ن، مرتبطتين ضمناً أو صراحة بواسطة رابط من قبيل إذن، لذا، لذلك.... سادعوح الحجة و ن النتيجة ( Ducrot 2004: 19).

يصف ديكر هذا التعريف بـ «اللساني» ويميزه بوضوح عن مفهوم «بلاغي» يفهم فيه الحجاج بأنه «نشاط لفظي يهدف إلى دفع شخص ما لأن يعتقد شيئاً» (2004: 18). يبدو واضحاً هنا القرار المنهجي بعدم النظر في الحجاج باعتباره نشاطاً مكتملاً (وهو ما يمثل في الواقع مفتاح التعاريف البلاغية، كما سيتبين في النقطة الموالية). إذا حاولنا الآن تحليل تعريف ديكر، يمكننا، في البداية، أن نرى أنه النظر اللساني لتعريف تولمين. بينما الأمر بعكس ذلك تماماً: إن الأصالة العظيمة لأعمال ديكر تكمن في توجيه انتقادات لاذعة لكل تعريفات الحجاج التي تفترض مسبقاً أن الملفوظ - الحجة يتسم (أو يسعى) إلى تبرير الملفوظ -

(1) سيكون مفيداً جداً الاطلاع على الأعمال المدونة بالإنجليزية حول بنيات الحجاج المعقد complex argumentation structures (SnoeckHenkemans 1997).

النتيجة. وتمثل الفكرة الأساسية في أنه «في سلسلة حجاجية» ح إذن ن، فإن معنى الحجة ح يحتوي في حد ذاته على توجيه بأنه يجب أن يستكمل بالنتيجة» (2004: 22). وبعبارة أخرى، وفقا لهذه النظرية، فإن توجيه ملفوظ نحو نتيجة معينة متأصل في معنى هذا الملفوظ نفسه. ولذلك فإن نظرية الحجاج في اللغة هي نظرية دلالية تعزز مفهومها حجاجويا للمعنى argumentativiste du sens: يتعلق الأمر، كما يفسر ديكر، بـ «ارتكاز دلالة الملفوظ على التسلسلات الحجاجية» (1993: 240). وعليه، يمكن تفهم كيف يبدو هنا المفهوم المعتاد للحجاج، والمبرر جوهريا، مستنكرا كأنه «وهم»: إذ كيف ثبت، في الواقع، أن ملفوظا - نتيجة «مبرر» بواسطة ملفوظ - حجة - يمكن تقييمه وقبوله بصورة مستقلة - في حين أن التوجيه نحو الملفوظ - النتيجة متأسس على الدلالة نفسها للملفوظ - الحجة؟ ومن دون قدرة على تطوير هذه النقطة، فسوف نقول، بشكل عام، إن نظرية الحجاج في اللغة كانت موضوع استقبال متناقض. يتم التأكيد على قوتها في التصور بصورة متسقة من قبل منظري الحجاج، وغالبا ما يؤخذ بعين الاعتبار مفهومها «للتوجيه الحجاجي» وتحليلاتها اللسانية الجزئية للروابط (لكن، إذن، مع ذلك، فضلا عن...). وبالمقابل، فقد تعرضت التضمينات العامة لتعريفه للحجاج للنقد بانتظام: فعبير الادعاء أن كل ملفوظ هو حجة بالقدر نفسه الذي يحمل دلالة، تفضي نظرية الحجاج في اللغة إلى حجاجية شمولية argumentativisme généralisé، حيث يرى بعض المتخصصين في الخطاب والتفاعلات نتائجها غير مثمرة من الناحية المنهجية (انظر على وجه الخصوص Plantin 2005: 24-30).

## 2-2: التقليل من المعيار البنيوي لصالح المعيار التداولي

هكذا، يمكننا أن نقبض على الحجاج انطلاقا من مقارنة بنيوية وندرته قبل كل شيء كصيغة لتنظيم الملفوظات: شكل محدد من «تصميم نص mise en texte» (Adam 1996: 44)، «نص [...] له بنية معينة» (اقتباسا مجددا من صياغة جونسون). بيد أنه، من الممكن أيضا لبناء مفهوم الحجاج بشكل مختلف، والنظر إليه في المقام الأول من

حيث هو نشاط تواصلية. وكما ألمحنا إلى ذلك في المدخل، فإن مثل هذا المنظور، الراسخ في تداوليته، يشدد عموما على أحد الأبعاد الأساسية لأي نشاط، أي طابعه النهائي: فالحجة تحدد على سبيل الأولوية حسب الغرض (أو الأغراض) التي يفترض الوصول إليها. وقد اعتمد هذا المنظور من قبل التقليد البلاغي والبلاغة الجديدة، كما شخصها بوضوح مارك أنجنيوت Marc Angenot ، والمحددة في معظم الأحيان للممارسة الخطابية بـ«النجاعة والنتيجة المرجوة» (2008: 54، التسويد مني). ونحن نعلم أن الخطابة حسب أرسطو تتمثل في «القدرة على النظر، في كل مسألة من المسائل، إلى ما يوصل إلى الإقناع» ( Rhétorique, I, 2, 1355b). وخلال الخمسينات، كان الفيلسوف البلجيكي شايم بيرلمان Chaïm Perelman (1912-1984)، جنبا إلى جنب مع تولمين، من أعظم من قام بإحياء نشاط الدراسات الحجاجية. وخلافا للفيلسوف الإنجليزي، سار في أعقاب التقليد البلاغي، واقترح تعريف الحجاج بأنه «التقنيات الخطابية التي تقود إلى تسليم الأذهان بما يعرض عليها من أطروحات أو الزيادة في درجة ذلك التسليم» ( Perelman et Olbrechts-Tyteca 5 [1958] 2000). ونجد مثالا حيا عن هذا المنظور البلاغي الجديد في مقاربة «الحجاج في الخطاب» التي طورتها روث أموسي Ruth Amossy على مدى العقد الماضي. ووفقا لأموسي، فإن الحجاج يتألف من:

الوسائل اللفظية التي تستعملها دعوى تعبيرية للتأثير على المخاطبين بها في محاولة لدفعهم إلى الالتزام بأطروحة ما، أو لتعديل أو تعزيز التمثلات والآراء التي تدعمها، أو ببساطة لتوجيه طرقهم في النظر أو إثارة تساؤلات حول مشكلة معينة (Amossy 2010: 36).

دعونا الآن نحاول أن نفهم بشكل أفضل المنطق وراء هذه التعاريف البلاغية للحجاج ثم نحدد بإيجاز الانتقادات الرئيسية الموجهة إليها. نحن نتحدث عن التقليل من المعيار البنيوي لصالح المعيار التداولي: ما الذي يمكن فهمه من هذا تحديدا؟ في المقام الأول، وبكل وضوح فإن هذه التعاريف غائية téléologiques، حيث أنها تستوعب الحجاج انطلاقا من غرض واحد أو أكثر: فسواء أعلق الأمر بـ«الإقناع»، أم بـ«الدفع إلى الالتزام»، أم على نطاق أعم، «التأثير» على الآخرين، فإن الأمر برمته متعلق بفكرة أن من يجادل يهدف

إلى ترك أثر على من يتوجه إليه. وتجدر الإشارة ثانيا إلى أن هذه التعريفات أقل تقييدية للغاية فيما يتعلق بالوسائل الملائمة لتحقيق هذا الغرض (أو الأغراض). هناك بالفعل قيد على النظام السيميائي المستخدم (إذ يجب أن تكون الوسائل «لفظية»، «خطابية» - فيما يبدو أنها استبعاد للوسائل البصرية)، ولكن لا شيء فيما يتعلق بتصميم النص *mise en texte*. وبعبارة أخرى، فإن هذه التعريفات لا تنص على أن «الأساليب الخطابية» أو «الوسائل اللفظية» الخاصة بالحجاج تنتمي بالضرورة إلى صيغة محددة لتنظيم هذه الملفوظات (على سبيل المثال، وفقا للثالث المعطى - قانون العبور - الاستنتاج)، كما هو الحال في المقاربات البنيوية المستلهمة من خطاطة تولمين. ولا تستلزم هذه التعاريف كذلك تقييدا تسلسليا. ويجب ألا ينصرف الذهن، ونحن نناقش هنا «التقليل من المعيار البنيوي»، إلى أن المقاربات البلاغية التي ساءلناها لا تهتم بوصف «الوسائل اللفظية» و«التقنيات الخطابية» (إذ يوفر عمل بيرلمان جردا هائلا معللا لأنواع مختلفة من الحجاج، في حين اهتمت أموسي بمخططات حجاجية من الإيثوس *l'ethos* إلى الباثوس *pathos*): وهذا يدل ببساطة على أن هذه «الوسائل» و«التقنيات» ليست مسبقا قيودا على مستوى شكلها، ولا تدخل بالتالي في تعريف مفهوم الحجاج نفسه.

وسوف نشير هنا، دون قدرة على التطوير بشكل مطول، إلى انتقادين هامين التي وجهت في بعض الأحيان لهذه المقاربات.

إن تعريف الحجاج تبعا لأغراضه، كما تفعل أموسي، يقترح نطاقا واسعا ومتنوعا منها يميل إلى توسيع نطاق الحجاج. وكما تقول أموسي نفسها، فإن «الحجاج، وهو الطافح من جميع الجوانب بالكلام الذي سيكون الإقناع مهمته الأكيدة، مدرج ضمن الخطاب نفسه» (2010: 36). إن ما لدينا هنا هو تعريف للحجاج يميل إلى أن يكون حجاجويا شموليا: إذ

يبدو أن الحجاج قد أصبح - بدرجات متفاوتة بالتأكيد - متأصلا في الخطاب<sup>(1)</sup>. وقد تعرضت هذه المسلمة للانتقاد من قبل كتّـاب، على غرار بلانتان (انظر أدناه، 2. 3)، الذين يسعون بدلا من ذلك إلى الحد منهجيا من مجال الحجاج.

وقد انتقدت التعاريف البلاغية للحجاج كذلك بسبب الأهمية المفرطة التي تسندوها لمفهوم الإقناع (أو للمقصد الإقناعي). ويؤكد الاعتراض الرئيسي على فكرة الثبات (أي ظاهرة معينة قائمة على الرغم من اختفاء سببها المفترض): وفي هذا السياق من الشائع ملاحظة أن المتكلمين يستمرون في المحاججة، حتى وإن لم يعد من المعقول إطلاقا إضفاء رهان إقناعي على التفاعل المستمر. وعليه، فإن الانتقاد يتمثل في القول، استنادا إلى ملاحظة تجريبية للخطابات المحجاجية في تنوعها، إن المقصد والأثر الإقناعيين ليسا مؤهلين بما فيه الكفاية للتصديق بأنه من الشرعي تنصيبهما معيارين محددين لمفهوم «الحجاج»<sup>(2)</sup>.

### 3-2: محاولات لتحقيق التوازن بين المعيارين البنيوي والتداولي

لقد تحرينا النظر حتى الآن في منظورين عظيمين فيما يتعلق بوضع حد لمفهوم الحجاج. الأول نابع من تقليل من دور المعيار التداولي لصالح المعيار البنيوي: حيث يتم إدراك الحجاج كصيغة محددة لتنظيم الملفوظات. ومن هذا المنظور، فإن ما يحسم في تحديد الحجاج، هو أن سلسلة من الملفوظات يحتمل أن تكون قابلة لتأويل وفقا لعلاقات من قبيل [حجاج - قانون عبور - استنتاج]. ويمكن أن نلاحظ قطعاً أن الاعتبارات التداولية المتعلقة

(1) هذا الموقف، الذي يميل إلى تحديد النشاط الحجاجي مع النشاط الخطابي بشكل عام، مستلهم بشدة من الأعمال الهامة للفيلسوف والمنطقي السويسري جان بليز غرايز Jean-Blaise Grize، مؤسس «المنطق الطبيعي». ويعرف غرايز الحجاج بأنه «تخطيطي»، أي «صياغة عوالم مصغرة، بأدوات اللغة، يعرضها أ على ب بهدف الحصول على تأثير معين عليه» (1982: 188). وقد عولج الحجاج كذلك من وجهة نظر «واسعة»، باعتباره «نهجا يسعى إلى التدخل في شأن رأي شخص ما، وسلوكه، وحتى في أداؤه. ولكن لا بد من أن نحدد أن هذه الوسائل هي وسائل الخطاب» (1990: 40).

(2) مارك المنوت (2008) هو المؤلف الذي يدافع بلا شك وبكل قوة عن هذا المفهوم اللإقناعي للحجاج. فهو يحدد الحجاج من خلال هدفين رئيسيين، «منطقيا سابق على التوقع، معقول، بغالطة قليلة أو منعدمة، لإقناع مخاطب»: أن يكون له ما يبرره من جهة، و بأن يحدد موضعه بالقياس إلى منظور الآخر (2008: 439-444).

بالنشاط ليست مستبعدة في هذا المنوال: نحن نتكلم على وجه الخصوص عن «السعي إلى مواجهة آراء أو مواقف أو سلوكيات محاور» (Adam 1997: 104). ومع ذلك، يظل معيار الغرض مرتبطاً بشكل واضح بالمعيار النبوي: فما يصنع الحجاج، هو أولاً طريقة تأليف الملفوظات فيما بينها. أما المقاربة الثانية فتتمثل في تقليل المعيار النبوي لصالح المعيار التداولي: فيطرح الحجاج بالدرجة الأولى، باعتباره مجموعة من الوسائل المشروطة بتحقيق غرض (أو عدة أغراض): وتختلف هذه الأغراض باختلاف النظريات، ولكنها تدور دائماً حول إنتاج تأثير على الآخرين («دفعهم إلى الالتزام بأطروحة»، «إقناعهم»، «تعديل أو تعزيز الآراء التي يحملونها...»، الخ). وفي مثل هذا الطرح، الذي ندعوه بالغائي، فإن ما يحدد الحجاج، هو حقيقة أنه من المحتمل أن يقدر المرء على إضفاء نوع من القصدية على خطاب ما. أما «الوسائل» أو «التقنيات» المستخدمة لتحقيق هذا الغرض، من ناحية أخرى، فلا دخل لها عند وضع التعريف.

وكما سنرى الآن، تحاول عدة أعمال، عند تعريف مفهوم الحجاج، أن تربط صراحة بين المعايير النبوية والتداولية. وحسب هذا المنظور، فلن يمكننا الحديث عن «الحجاج»، يجب علينا أن نتعامل مع «هيكل تنظيمي للخطابات» (Plantin 1996a: 18)، على نحو لا ينقسم، مع إطار معين من النشاط (حيث يضطلع المشاركون بدور ما ويتوجهون لإنجاز غرض ما). ولتوضيح هذه «الفئة الثالثة»، سوف نقدم مثالا بنوعين من الأعمال.

## 2-3-1: المقاربات المعيارية: التداولية الجدلية وتطورات المنطق غير الصوري

في مجال البحوث باللغة الإنجليزية، سنصرف اهتمامنا إلى التداولية الجدلية، وهي المقاربة التي طورها على مدى السنوات الثلاثين الماضية فرانس فان إيمرن Frans Van Eemeren وزملاؤه في جامعة أمستردام، وبمواكبة من المنطق غير الصوري، لا سيما في أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة وكندا). يتعلق الأمر بالمقاربات المعيارية، حيث أنها تنوي صياغة معايير تضمن تقييم الطابع الأكثر أو الأقل «معقولة» للحجج التي يصدرها المتكلمون. وللتنظر في التعريفين الآتيين:

يمكن تعريف الحجاج بأنه نشاط كلامي واجتماعي وعقلاني يهدف إلى إقناع نقدي معقول بمقبولية موقف من خلال طرح تشكيلة من القضايا المسوغة أو المفنّدة للقضية المعبر عنها في الموقف (1: 2004 Van Eemeren et Grootendorst).

الحجة هي صنف من أصناف الخطاب أو النص - الخلاصة الصافية لممارسة الحجاج - حيث يسعى المجادل إلى إقناع الآخر(ين) بصدق أطروحة عبر إنتاج الأسباب التي تدعمها. وفضلا عن هذا الجوهر الاستنتاجي، فإن الحجة تمتلك طبقة جدلية حيث يتعهد المجادل بالوفاء بالتزاماته (168: 2000 Johnson).

وتجدر الإشارة بسرعة إلى أن هذين التعريفين يُفَعَّلان في الآن ذاته معيارا تداوليا وآخر بنيويا. فعلى المستوى التداولي، فإنهما يحددان بطريقة تقليدية تماما غرضا يسعى إليه الحجاج («إقناع [...] بمقبولية موقف»، «إقناع بصدق أطروحة» - وفي هذا لا يمكن تمييزهما عن مقاربات بلاغية وبلاغية جديدة (انظر أعلاه، 2.2). وعلى المستوى البنيوي، يؤكدان على أن إنجاز الغرض المقصود يجب أن يتم بوسائل محددة، في شكل صيغة لتنظيم الملفوظات («تشكيلة من القضايا المسوغة أو المفنّدة للقضية المعبر عنها في الموقف»، وهي «جوهر استنتاجي» مع «الأسباب التي تدعم [الأطروحة]») - وفي هذا تختلف عن تعاريف البلاغة الجديدة التي لا تفرض، كما سبق الذكر، قيودا بنيوية بمثل هذه الشدة.

وعلى الآن الماضي قدما لتبيين بصورة أدق أصالة هذه المقاربات (التي لا تعتبر التعاريف المذكورة بلا شك كافية لترجمتها). وسنزعم أنه من المهم أن تقتحم نظريات الحجاج منعطفًا جدليا (والتي، كما سترى أدناه، كان لها تأثير حقيقي على بعض الأعمال في اللغة الفرنسية). وتتحدى هذه المقاربات حقيقة أن الحجة يمكن تصورها فقط في إطار المونولوج والتبرير. ووفقا لها، لا يكفي أن نقول إن الحجاج هو خطاب يبرر فيه أحد المتكلمين موقفا بالاعتماد على أسباب: إذ يجب علينا أن نضيف فورا ما يطلق عليه جونسون dialectical tier («طبقة جدلية»). وإذا كان لهذا ما يبرره جيدا، فإن الحجاج أيضا - في جوهره - جدلي: فهو ينطوي دائما على توقع وإدارة خطاب مضاد contre-discours (أي خطاب يدافع عن وجهة نظر أخرى في المسألة نفسها أو وجهة النظر نفسها بالاستعانة



بأسباب أخرى). وقد يتعلق الأمر بخطاب مضاد ينشئه فعليا متكلم آخر ردا على خطاب (سجلّ «تحواري» dialogal ومتعدد الإدارة polygéré) أو خطاب مضاد أكثر افتراضية يتمثله المتكلم في خطابه الخاص (سجلّ «حواري» dialogique وأحادي الإدارة monogéré). وسواء أكنّا نتعامل مع «تحواري» صارم أم مع حواري، فإن الفكرة المركزية هي أن يصير التوليف بين الخطاب والخطاب المضاد محددًا للحجاج ويجب أن يوجه منهجيا جميع أوجه دراسته. وقد ترك هذا التوجيه الجدلي أثره على مجالين فرعيين تقليديين لنظرية الحجاج:

- تحديد ووصف أنواع الحجج المختلفة (حجة السلطة، حجة المماثلة، حجة العواقب...) هي مهمة رئيسية لدراسة الحجاج. وفي الوقت الراهن، لا يتم وصف أنواع الحجج فقط من حيث بنية (تسلسل القضايا)، بل أيضا عند الاقتضاء أسئلة حرجة تتولد عادة لدى المخاطب ويتوجب على المتكلم توقعها (انظر من أجل موجز ممتاز، Walton, Reed et Macagno 2008).
- اتخذت كذلك دراسة المغالطات، أي الأشكال غير السليمة من الاستدلال، بثبات منحى جدلي. فقد صارت المغالطات حاليا أكثر مرونة في تعريفها بأنها حجج معيبة من حيث صحتها المنطقية الصارمة مثلما هو الحال بالنسبة لحجج تستخدم بشكل غير سليم في سياق حوار مخصوص.

## 2-3-2: المقاربات الوصفية: النموذج «الحواري» في الحجاج

في اللغة الفرنسية، طور كريستيان بلانتان على مدى الخمسة عشر عاما الماضية نموذجا للحجاج يطلق عليه «الحواري» dialogal. وبناء على المقتطفات التالية، سوف ننظر في تعريف الحجاج المقترح فيه والسعي إلى تفحص أصالته:

نتحدث عن «نموذج حواري» للحجاج [...] للتأكيد على جانب في الحجاج، وهو الربط بين خطابين متناقضين (Plantin 2005: 54).

يعرف الحجاج الحوارى بطريقة مقيدة. فالمستوى التجريبي لا يتطابق مع المستوى الدلالي. وليس كل شيء في الخطاب حجاجيا [...] وما يمكن أن يكون كذلك فبدرجات متفاوتة. والمفهوم الأساسي هو وجود حالة حجاجية، حيث يتعايش خطابان متعارضان ويقاس أحدهما بالآخر، محددتين من ثم سؤالاً (2009: 52).

يعرف التفاعل الحجاجي بأنه حالة مواجهة خطائية مبنية على امتدادها على ردود متعارضة على سؤال ما. [...] وتميز الحالة الحجاجية ثلاث صيغ خطائية: خطاب عرض؛ أو خطاب اعتراض، أو سؤال. وتتوافق هذه الصيغ الثلاث مع ثلاثة أدوار خطائية (ثلاثة فاعلين): فالعارض Proposant يقدم خطاب العرض، والمعارض Opposant يقدم خطاب الاعتراض، ويتكفل الطرف الثالث Tiers بالسؤال (Plantin 1996b: 11-12). ومقارنة بما رأيناه أعلاه، يمكن إبداء ثلاث ملاحظات.

(1) أولاً وقبل كل شيء، يسهم هذا النموذج «الحواري» بشكل كامل في المنعطف الجدلي الذي حددناه في بعض المقاربات المعيارية الناطقة باللغة الإنجليزية (انظر أعلاه، 2.3.1). ويوجه عام، فإن العلاقة بين خطاب وخطاب مضاد («خطابين متناقضين» و«خطابين متعارضين» و«ردود متعارضة على السؤال نفسه») شرط، هنا أيضاً، لتحديد الحجاج. وكما في حالة النموذج التداولي الجدلي، فإن التبرير ليس كافياً لضبط مفهوم الحجاج تماماً: فعندما نحاجج، نبرر بكل تأكيد وجهة نظر، ولكن بوضع خطاب مقابل خطاب آخر (وجهة نظر بديلة، أو أسباب بديلة تدعم وجهة نظر نفسها). والفرق الكبير في النموذج «الحواري» هو أنه يمنح محلل الحجاج موقفاً وصفيًا بصورة جذرية. وهنا حيث تضع التداولية الجدلية قواعد تسمح للمحلل بالحكم ما إذا كان اختلاف الآراء يدار على نحو «عقلاني»، تكون المهمة الوحيدة للنموذج «الحواري» هي وصف إدارة المواجهة بين المتخاطبين المتجادلين.

(2) إذا كان النموذج «الحواري» يركز بوضوح على المعيار التداولي (وفقاً لاصطلاحنا)، ويصور الحجاج بوصفه نشاطاً تواصلياً، تجدر الإشارة إلى أنه لا يعرف هذا النشاط من خلال غائية خارجية. وهنا، يتجلى الاختلاف واضحاً عن التعاريف البلاغية

(أعلاه، 2.2)، التي تجعل من الحجاج نشاطا يهدف إلى إحداث أثر في الآخرين («الإقناع»، «الالتزام»...). أما بالنسبة للنموذج «الحواري»، فإن ظواهر التنظيم المتبادل بين الخطاب والخطاب المضاد هي التي تحدد الحجاج: ففي هذا النموذج، يمكن للعارض والمعارض أن يتجادلا بشكل جيد جدا دون أن يستهدفا على الإطلاق تغيير الآراء.

(3) وأخيرا، يدافع النموذج «الحواري» عن مفهوم «تقييدي» للحجة، ويتملص من ثم من الصيغ المختلفة للحجاجية الشمولية التي حددناها. إن ربط الحجاج بـ «صيغة لتنظيم الخطاب» ومزيج فريد من الأدوار التي يصرفها المتكلم (أو المتكلمون) (عارض، أو معارض، أو طرف ثالث) يمنع من رؤيته كمكون أساسي لمعنى الملفوظات (كما هو الحال عند ديكرود) أو للخطابية بشكل عام (كما هو الحال في النموذج البلاغي الجديد لأموسي).

كان الغرض من هذه المقالة هو مساعدة طلاب الدراسات العليا الجامعية لاكتشاف وتملك النظريات المعاصرة للحجاج. وانطلاقاً من الفكرة القائلة بأن التعدد الدلالي polysémie لمفهوم «الحجاج» ذاته يمثل أولى الصعوبات، سعينا إلى تحديد الصيغ والرهانات التي تحدد بها مختلف النظريات هذا المفهوم. وقد بدا من المهم لنا أن نجعل الخلافات التعريفية التي تحرك مجال الدراسات حول الحجاج واضحة. وكما ذكرنا أعلاه، لم يكن هدفنا إبقاء الطلاب بعيدين عن النظرية، بل تزويدهم بالأدوات اللازمة لقراءة هذه النظرية والتعمق في هذه النقطة وفقاً تبعاً لاهتماماتهم وأشغالهم. وتظل بالطبع العديد من الأسئلة الهامة التي يجب تطويرها من منظور تدريسية النظريات الحجاجية على المستوى الجامعي. وأول ما يتبادر إلى الأذهان هو الطابع المعياري أو الوصفي لدراسة الحجاج: هل للمحلل دور في تقييم الطبيعة «العقلانية» للمحاجات التي يحللها، وإذا كان الأمر كذلك، فعلى أية معايير ينبغي أن يستند تقييمه؟ ومن النادر مناقشة هذا السؤال هنا: فهو ينطوي على رهانات تربوية مهمة، خاصة لتشكيل «الروح النقدية» لدى الطلاب، ويستدعي تأملات مستقبلية<sup>(1)</sup>.

(1) حول الدفاع عن الموقف المعياري وتوضيحه، سنشير في المقام الأول إلى Van Eemeren et Grootendorst (2004)؛ أما عن المقاربة الوصفية، فإن أعمال Plantin (2009)، وDoury (2004)، وAngenot (2008) أساسية.

- ADAM, Jean-Michel (1996), «L'argumentation dans le dialogue», Langue française, n°112, p. 31-49.
- ADAM, Jean-Michel (1997), Les textes: types et prototypes, Paris: Nathan.
- ADAM, Jean-Michel (2004), «Une approche textuelle de l'argumentation», dans Marianne DOURY et Sophie MOIRAND, L'argumentation aujourd'hui. Positions théoriques en confrontation, Paris, Presses de la Sorbonne Nouvelle, p. 77-102.
- AMOSSY, Ruth (2010), L'argumentation dans le discours, Paris, Armand Colin.
- ANGENOT, Marc (2008), Dialogue de sourds. Traité de rhétorique antilogique, Paris, Mille et Une Nuits.
- ARISTOTE, Rhétorique, texte établi et traduit par Médéric DUFOUR, Paris, Les Belles Lettres, 1960.
- ATAYAN, Vahram et Daniela PIRAZZINI (2009), Argumentation: théorie – langue – discours, Frankfurt, Peter Lang.
- BRETON, Philippe et Gilles GAUTHIER (2000), Histoire des théories de l'argumentation, Paris, La Découverte.
- DANBLON, Emmanuelle (2005), La fonction persuasive, Paris, Armand Colin.
- DOURY, Marianne (2003), «L'évaluation des arguments dans les discours ordinaires. Le cas de l'accusation d'amalgame», Langage et Société, n°105, p. 9-37.
- DOURY, Marianne et Sophie MOIRAND (2004), L'argumentation aujourd'hui. Positions théoriques en confrontation, Paris, Presses de la Sorbonne Nouvelle.
- DUCROT Oswald et Jean-Claude ANSCOMBRE (1983), L'argumentation dans la langue, Bruxelles, Mardaga.
- DUCROT, Oswald (1993), «Les topiques dans la théorie de l'argumentation dans la langue», dans Christian PLANTIN (éd.),

- Lieux communs. Topoï, stéréotypes, clichés, Paris, Kimé, p. 233-248.
- DUCROT, Oswald (2004), «Argumentation rhétorique et argumentation linguistique», dans Marianne DOURY et Sophie MOIRAND, *L'argumentation aujourd'hui. Positions théoriques en confrontation*, Paris, Presses de la Sorbonne Nouvelle, p. 17-35.
  - DUFOUR, Michel (2008), *Argumenter. Cours de logique informelle*, Paris, Armand Colin.
  - GOVIER, Trudy (1996), *A Practical Study of Argument*, Belmont, Wadsworth.
  - GRIZE, Jean-Blaise (1982), *De la logique à l'argumentation*, Genève, Droz.
  - GRIZE, Jean-Blaise (1990), *Logique et langage*, Paris, Ophrys, 1990.
  - GRIZE, Jean-Blaise (1996), *Logique naturelle et communications*, Paris, PUF.
  - JOHNSON, Ralph (2000), *Manifest Rationality. A Pragmatic Theory of Argument*, Mahwah, Lawrence Erlbaum.
  - MICHEL, Raphaël, (2009), «La construction de l'objet dans quelque s'approches discursives et interactionnelles de l'argumentation: une perspective métathéorique», dans Vahram ATAYAN et Daniela PIRAZZINI (éds.), *Argumentation: théorie – langue – discours*, Frankfurt, Peter Lang, p.19-30.
  - PERELMAN, Chaïm et Lucie OLBRECHTS-TYTECA ([1958] 2000), *Traité de l'argumentation*, Bruxelles, Editions de l'Université de Bruxelles.
  - PLANTIN, Christian (1990), *Essais sur l'argumentation*, Paris, Kimé.
  - PLANTIN, Christian (1996a), *L'argumentation*, Paris, Seuil, coll. «Mémo».
  - PLANTIN, Christian (1996b), «Le trilogue argumentatif. Présentation de modèle, analyse de cas», *Langue française*, n°112, p. 9-30.

- PLANTIN, Christian (2002), «Argumentation», dans Patrick CHARAU DEAU et Dominique MAINGUENEAU (dirs.), Dictionnaire d'analyse du discours, Paris, Seuil, p. 66-72.
- PLANTIN, Christian (2005), L'argumentation, Paris, PUF, coll. «Que sais-je?».
- PLANTIN, Christian (2009), «Laissez dire: la norme de l'un est dans le discours de l'autre», in Vahram Atayan et Daniela Pirazzini (éds.), Argumentation: théorie – langue – discours, Frankfurt: Peter Lang, p. 51-71.
- SNOECK HENKEMANS, Francisca (1997), Analysing Complex Argumentation: the Reconstruction of Multiple and Coordinatively Compound Argumentation in a Critical Discussion, Amsterdam, SicSat.
- TOULMIN, Stephen (1958), The Uses of Argument, Cambridge, CUP.
- VAN EEMEREN, Frans, (2003), «A Glance Behind the Scenes: the State of the Art in the Study of Argumentation», Studies in Communication Sciences, n° 3/1, p. 1-23.
- VAN EEMEREN, Frans et Rob GROOTENDORST, 2004, A Systematic Theory of Argumentation. The Pragma-Dialectical Approach, Cambridge, CUP.
- WALTON, Douglas, (2006), Fundamentals of Critical Argumentation, Cambridge, CUP.
- WALTON, Douglas, Chris REED et Fabrizio MACAGNO (2008), Argumentation Schemes, Cambridge, CUP.





# سلطة المفكر بين الخطاب العجاجي والخطاب الثقافي

## التعريف بشكسبير نموذجاً

مرودة مختار<sup>(\*)</sup>

الملخص

تحاول هذه المقاربة أن تبحث عن السلطة التي يمارسها المؤلف على القارئ أثناء عملية الكتابة، وذلك من خلال نسج نص يعتمد تقنيات الحجاج بوصفها استراتيجية خطاب، ومنطلقاً من النسق الثقافي الذي بزغت فيه الشخصية التي قام الكاتب بدراستها في نسج لا تستطيع تمييز سداته من لحمته إلا بقراءة متأنية ومحاوره لعملية الإبداع بأركانها الثلاثة، مرسل ومستقبل وموضوع. وتحاول أيضاً أن تبحث عن أثر الشخصية المختارة من قبل الكاتب على وسائل الحجاج التي اصطفاها لاستمالة القارئ للتسليم بوجهة نظره. بعناية تبحث هذه المقاربة عن إجابات لمجموعة من الأسئلة يثيرها العمل نفسه منها: هل العقد كان متحيزاً في اختياره للشخصيات التي يدرسها بصفة عامة ولشخصية شكسبير بصفة خاصة؟ وهل تشابه منهج العقد في معالجة شخصية شكسبير مع منهجه في الكتابة عن الشخصيات الإسلامية؟ وما مدى التشابه والاختلاف بين هذا وذاك؟ وهل مارس العقد نوعاً من السلطة على القارئ أثناء الكتابة؟ وما مدى موضوعيته وهو يمارس فعل الكتابة تجاه الشخصية المختارة للدراسة؟ وهل هناك علاقة بين الشخصية ومساحة الخطاب الحجاجي في النص المدروس؟ وما مدى قدرته على النفاذ إلى أعماق النسق الثقافي ليستخرج لنا دعائم حججه التي آثرها في نصوصه؟ وهل كان للشخصية بوصفها شخصية إسلامية أو شخصية عامة أثر على تنوع وسائل الحجاج؟

<sup>(\*)</sup> مرودة مختار، أستاذة جامعية، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، تخصص: النقد الأدبي والثقافي. يعد هذا المقال نسخة مطبوعة للمقال المنشور إلكترونياً.

تحاول هذه المقاربة كشف البعد التداولي الذي أنكأ عليه العقد لينسج وسائل حجاجه في إطار لا ينزع الشخصية عن سياقها الثقافي.

وهنا تستحيل القراءة إلى حوار مع عقل عربي..... لتكون مصدر متعة وعناء تحتاج إلى الجهد والصبر والرياضة، إن النصوص لا تعطى بعض ما تملك إلا إذا أعطيتها كل ما تملك<sup>(1)</sup>.

إنه وسيلة لإقناع الآخرين والتأثير فيهم، وباعثه الأول هو Argumentation إن أبسط تعريف للحجاج بين طرفين. الاختلاف Diragreement، استمالة المتلقي لما يعرض عليه Aherence والغاية التي يرمي إليها الحجاج هي تحقيق الاستمالة من رأي أو دعوى، والتأثير العملي في سلوكه وبالجملية الإقناع<sup>(2)</sup>.

إن العقد متى قرر كتابة العبقريات انطلق من واقع ثقافي بدأت فيه الدعوة للشوعية، فجاءت سلسلة العبقريات لتقديم نماذج إسلامية متفردة بوصفها أيقونة للأجيال الحالية والقادمة، محاولاً أن يتخذ في كتابته منهجاً محكماً حد الصرامة يُدخل القارئ في دائرة لا يستطيع الفكك من أسرها إلا بنهاية الكتاب، فعمد لوسائل الحجاج ليحقق مأربه. وقبل أن يشرع في اختيار وسائل حجاجه فإن الشخصيات الإسلامية التي اختارها العقد قد فرضت بداية على القارئ نوعاً من الحجاج هو حجاج السلطة، سلطة الشخصية الدينية التي تباغت القلب والعقل بمجرد ذكر اسمها أو سَمَها بأنها من العشرة المبشرين بالجنة على سبيل المثال، ستدفع هذه السلطة القارئ العام إلى التسليم مبدئياً بكل آراء العقد والميل صوب موافقته، ستؤثر على مساحة الحجاج في النص المكتوب، فلن يحتاج العقد إلى وسائل حجاجية كثيرة، تكفيه واحدة أو اثنتين على الأكثر لأن سطوة السلطة الدينية لاسم الشخصية الإسلامية المختارة قطعت أشواطاً في ذهن المتلقي قبل أن يشرع في الحوار، و أزال الكثير من علامات الاستفهام التي قد تطرأ على ذهن المتلقي فأوعزت إليه بالتسليم

(1) د. مصطفى ناصف، محاورات مع الشر العربي، ص12، عالم المعرفة العدد 218.

(2) د. جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص 107، ط/ دار غريب القاهرة، 2000م.

الذي عضده سمة العقاد الأثيرة في كتابته وهي البدء بالنتيجة في أغلب فصول الكتاب ليحاصر القارئ بين قوسين لافكاك منهما.

تقلصت مساحة الحجاج في العبقريات إذا قارناها بكتابة العقاد عن الشخصيات العامة التي لا علاقة لها بالصبغة الدينية مثل كتابه التعريف بشكسبير<sup>(1)</sup>. وإذا نظرنا إلى عبقرية عمر<sup>(1)</sup> - بوصفها مثالا - سنجد انعكاس ذلك على لغة العقاد، فاللغة تقوم في الخطاب الحجاجي بدور جوهري وفاعل في تحقيق التأثير والاستمالة، فالمفردات والتراكيب التي يختارها المتكلم لوصف حدث ما تعكس موقفه تجاه ذلك الحدث من جهة، وتضع ذلك الحدث في نسق تصوري بعينه، يؤثر في تحديد الموقف الذي يتخذه المتلقي تجاه ذلك الحدث من جهة ثانية<sup>(2)</sup>. وتحليل نسيج نص عبقرية عمر سنجد أن العقاد قد آثر استخدام غطين فقط من أنماط الحوار الحجاجي:

### النمط الأول: التحقيق Inquiry

يتسم الوضع فيه<sup>3</sup> بافتقاد دليل يثبت صحة واقعة ما، وثمة معلومات سابقة على الواقعة يقوم المحقق بجمعها، ويبنى عليها حجاجا متصاعدا حتى يصل إلى دليل قاطع على صحة الواقعة<sup>(3)</sup>.

يبرز هذا النمط جليا في دفاع العقاد عن عمر بن الخطاب لدحض التهمة التي ألصقت به وتواترت عن موقفه من مكتبة الإسكندرية التي قيل إنه أمر بإحراقها، فأورد العقاد في بداية حديثه حجة تقطع كل شك نابع من أناس لا يدينون بالإسلام: وأخرى شيء أن يلاحظ في مسألة المكتبة هذه أن الذين أذعنوها وأبرأوا عمر من تبعثها كان معظمهم من مؤرخي الأوروبيين الذين لا يهتمون بالتشيع للمسلمين وكانوا جميعا من الثقات الذين

(1) عباس محمود العقاد، عبقرية عمر، ط/ نهضة مصر.

(2) د. جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص 118.

(3) المرجع السابق، ص 113.

يؤخذ بنتائج بحثهم في هذا الموضوع<sup>(1)</sup> شهادة المستشرقين من أمثال المؤرخ الإنجليزي إدوارد جيبون والدكتور ألفرد بتلر والمستشرق كازانوفنا أثبتت أن هذه الخرافة ألفها أجنبي بعد موت ابن الخطاب بستة قرون. هذا عن المستشرقين، أما عن المشاركة فأورد العقاد رأى جورجي زيدان: أنه كان يميل إلى نفي الحكاية ثم عدل عن ميله هذا إلى قبولها<sup>(2)</sup>.

ويخلص العقاد من جملة الآراء إلى نتيجة يذكرها: "يحق لنا أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها، وأنها موضوعة في القرن الذي كتبت فيه ولم تتصل بالأزمة السابقة له بسند صحيح، وربما كانت مدسوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب الدميم عليه وعلى الإسلام"<sup>(3)</sup>.

وعلل العقاد بعد ذلك أسباب انتهائه لهذه النتيجة، وجمعتها تدور حول تزيف هذه الحكاية و أنها لم تكن لتجتمع في وقت واحد قبل القرن السادس الهجري، ومنها أن يكون المؤلف عليم بالأحوال التي أثرت عن عمر بن الخطاب، وعالم بما في هذه التهمة من المعابة، ووجود حزازة بين الإسلام وخصومه.

### النمط الآخر: حوار الإقناع أو المناقشة النقدية

ينتقل العقاد إلى نمط آخر من أنماط الحوار الحجاجي ليعالج به المسألة نفسها ويسمى حوار الإقناع، أو المناقشة النقدية وفيها يثبت رأيه اعتمادا على قواعد الاستدلال من مسلمات المشارك الآخر<sup>(4)</sup> أي أنني أحاول إقناعك انطلاقا من مقدمات أنت تقبلها، ففرض العقاد بعد ذلك أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية، وناقش هذا الفرض من خلال طرح العديد من أساليب الاستفهام التي خرجت عن معنى طلب العلم إلى معان أخرى أبرزها الإنكار: إلا أننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية، فما هي الوصمة التي تلحقه من هذا الأمر؟ ولماذا كان يحرم عليه

(1) عبقرية عمر، ص 177.

(2) عبقرية عمر، ص 180.

(3) عبقرية عمر، ص 180.

(4) جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، 111-112.

أن يحرقها ويجب عليه أن يستبقها ويفتح أبوابها؟ ولماذا كان ينبغي أن يكون على يقين أنها شيء مفيد للمسلمين ولغيرها من الأمم، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها؟ أمن نقص في تفكير الإنسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصر حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها، إن صح أنهم حفظوها؟ فإن كان عمر مطالب بعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الاطلاع عليها، وإذا كانت أحوال الأمم التي هي أهلها لا تدل على قيمتها بل تسوغ الاعتقاد بخلوها من كل قيمة فأين هو العيب في تفكيره إن صح أنه فكر على ذلك المنوال<sup>(1)</sup> وقد تراوح معنى الأساليب الاستفهامية بين التعجب والإنكار، فأساليب الاستفهام أنكرت معادة الفاروق للمعرفة أو الفلسفات اليونانية التي تصلح حال أهلها، وعلل العقاد ذلك انطلاقاً من موقع الفاروق كخليفة للمسلمين. فمن خلال التجربة الواقعية أيقن عمر أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلمات إلى النور، وانتصروا على من حاربوه وعندهم كل كتاب. وما فرغ المسلمون بعد من قراءة القرآن ولا انقضت على تداوله بينهم سنوات. فكيف يرضى الخليفة الذي يهيمه أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه إلى كتب لا يؤمن ما فيها؟<sup>(2)</sup>.

ويرى العقاد أنه "على أي فرض من الفروض لم يكن في تصرف عمر ما يأباه العقل وفي رأيي أنه بدأ المناقشة النقدية منطلقاً من فرضية الطرف الآخر في أمر عمر بن الخطاب بإحراق مكتبة الإسكندرية ولكنه لم يكملها"<sup>(3)</sup>، انطلق من الفرضية ولم يصل للنتيجة المرجوة من الطريق نفسه وأنهى المناقشة بطريقة تدين عمر بن الخطاب مؤداها أن الخليفة أدرى بشئون أمته، يفعل ما يشاء ملتصقاً له العذر - إن كان قد فعلها - بأن المسلمين لم ينتهوا بعد من تدبر القرآن وفهمه حتى ينطلقوا لعلوم أخرى قد تؤثر سلباً عليهم وفي هذا التماس

(1) عبقرية عمر، ص 182.

(2) عبقرية عمر، ص 183.

(3) عبقرية عمر، ص ولزيد من الأمثلة انظر: أ- رد العقاد على وصف المستشرقين للفاروق بأنه محدود الفكر ص 35 ب - رفض العقاد المبالغة الواردة في رواية الفاروق لابنه ص 23.

للخليفة بالعصمة، ونوع من ممارسة السلطة على القارئ في التسليم برأي العقاد والخيال للدفاع المطلق أكثر من تنفيذ الآراء بشكل منطقي يحاور القارئ فكريا لا سلطويا. إن اختيار العقاد لشخصيات إسلامية أثر سلبا على مساحة الخطاب الحجاجي انطلاقا من واقع ثقافي يمارس خطاب السلطة على القارئ استنادا للمرجعية الدينية للشخصية المدروسة التي تحجب قدرا كبيرا من المناقشة والاختلاف بسبب مكانتها في التاريخ الإسلامي فتحت القارئ على التسليم المبني دون مناقشة نقدية مكتملة، فأطلقت العنان للعقاد فحاد عن موضوعه narcissism cultural. والعقاد في هذه المسألة مارس نوعا من النرجسية الثقافية على القراء، فشهرته التي اكتسبها أعطت له سلطة المفكر الذي يتيقن من تماهي الجماهير معه<sup>(1)</sup>.

إذا انتقلنا لبحث أنماط الحجاج لدى العقاد في دراسته لشخصية عامة مثل شكسبير في كتابه "التعريف بشكسبير" ستساورنا مجموعة من الأسئلة سبق طرحها في بداية البحث، ومفاتيح إجابتها تكمن في أن العقاد كان ابنا بارا للنزعة الإنسانية التي تقدر العلم والفن لذاتيهما لا لما تجنيه من فوائد معينة<sup>(2)</sup> وأنه كان حريصا على ألا تضل الدهشة المرجوة في الزحام<sup>(3)</sup> ووسط هذا الزحام كان معنيا بالبحث عن التفرد، وكأنه يبحث عن نفسه فيه ليجد شريكا إنسانيا يتوحد معه يقدمه ويعزز وجوده بشهادته التي تبدأ نقدية مفندة ومحللة وتنتهي سلطوية في مواضع كثيرة لتغلب ذاته على ذات المتلقي لصالح الذات المتفردة المعنية بالدراسة التي اختارها فنراه يبرر لها أحيانا ما يرفضه العقل فيخسر قارئنا متابعا يعمل عقله ولا يسلمه لسلطة المفكر.

ومن الأكيد أن فعل القراءة كان ينظر إليه في السابق على أنه إجراء متميز بالتبعية ولم تكن هذه التبعية مقتصرة على الخضوع لسلطة النص وحده بل أيضا لسلطة أخرى خفية هي سلطة الكاتب، بآرائه ومواقفه الحاضرة في تضاعيف العمل الأدبي، وقد مكن هذا التصور من جعل المقصدية الأدبية المرتكزة أساسا على أسبقية المضمون على التجربة

(1) آلن هاو، النظرية النقدية ترجمة ثائر ديب، مكتبة الأسرة 2010، ص 145.

(2) د. مصطفى ناصف، اللغة والبلاغة والميلاد الجديد ط أولى 1992، ص 138.

(3) المرجع السابق ص 139.

الأدبية..... ولذلك كانت سلطة العالم لا حدود لها<sup>(1)</sup> وقفة متأنية من القارئ عند عنوان الكتاب التعريف بشكسبير تثير داخله الدهشة وتدفعه للتساؤل ماذا يريد العقاد أن يقول لنا؟ من لا يعرف العقاد ولا يألف خطابه سيجيب أن العقاد سيجمع ما ورد بالتراجم عن سيرة شكسبير ويقدمها إلينا، ولكن القارئ العقادي سيعي الرسالة الكامنة في كلمة التعريف إنه يقول لنا من طرف خفي بداية من عنوان الكتاب أنه سيقرا شكسبير كما لم يُقرأ من قبل. العقاد سوف يعتمد على التراجم التي كتبت عن شكسبير ولكن بمنظوره وبالقراءة الخاصة به التي تنطلق من النسق الثقافي الذي نشأ فيه شكسبير وحساسية عصره التي هيأت المناخ السياسي والثقافي الداعم لهذه النشأة، العقاد مولع بالأساس بدراسة الشخصيات التي تنشأ وقت التحولات الكبرى التي تشهدها الحقب التاريخية المختلفة في العصر القديم أو الحديث. وإذا نظرنا إلى الكتاب برمته باعتباره بنية نصية كبرى فإن استراتيجية الحجاج التي رسمها العقاد وانتهجها بداية من عنوانه ظهرت جلية في تقسيم فصول الكتاب وفي طريقة ترتيبها وتدرجها بمهارة كاتب ينسج طريقا على مهل ليأخذ بيد القارئ إلى وجهة بعينها يتبناها. ويمكننا تقسيم فصول الكتاب إلى خمسة محاور رئيسة بوصفها بنى صغرى للكتاب نتلمس من خلالها خطة العقاد الحجاجية في الوصول للقارئ.

المحور الأول: ويضم الفصول التالية: (1) عصر شكسبير، و(2) الشعر والمسرح، و(3) أسرة شكسبير.

المحور الثاني، ويضم الفصول التالية: (4) الرجل، و(5) الفنان، و(6) المؤلف، و(7) الشاعر،

المحور الثالث، ويضم: (8) الخصائص والمزايا،

المحور الرابع، ويضم: (9) مصادر الروايات، و(10) نسبة الروايات،

المحور الخامس، ويضم: (11) تراث شكسبير، و(12) الخاتمة.

(1) حميد حمداني، القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثقافي العربي، ط أولى 2003، ص.6.

والمحور الأول من الكتاب يضم ثلاثة فصول يعد بمثابة المقدمة الحجاجية التي كتبت بعناية بالغة لتهيئة المتلقي لتلك القراءة التي سيفند فيها العقد السياقي الثقافي الذي أحاط بشكسبير ويغزل منه حججه المتتابعة.

والفصول الثلاثة التي بدأ بها ركزت تركيزاً شديداً على الحجج المؤسسة على بنية الواقع فقد كان عصر ميلاد شكسبير مادة خصبة لتشكله، ميلاده تزامن مع "عصر النهضة" أو المولد الجديد كما أطلق عليه بعض الأوروبيين أو عصر إحياء العلوم الذي شاعت تسميته بعصر الدعوة إلى الإنسانية أو عصر الفلسفة الرشدية، وقد ظهرت هذه الدعوة في مقابل الدعوة إلى التقشف والإعراض عن الحياة وانتشار الوعاظ حتى قيل إنه لا تخلو جزيرة من واعظ جهيز الصوت عنيف، وصاحب ذلك ظهور اكتشافات علمية عظيمة واجهت تلك الدعوة بالثورة عليها، وساعد على انتشار دعوة الإنسانين أن كثيراً من اللاهوتيين المخلصين في زهدهم كانوا يقبلون على دراسة الفلسفة والحكمة.

هذا عن السياق الثقافي العام للعصر وزادت عليه أسباباً خاصة نشأت من الطبيعة الجغرافية لبريطانيا من حيث كونها جزراً فأسهل هذا في عزلتها وابتعدت عن سيطرة روما واقتربت من معاهد العلم في أوروبا الغربية فرنسا، إسبانيا، صقلية وما أسهم في قوة هذه الجزر نشاط حركة الملاحة بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فنالت إنجلترا ما لم تنله الدول التي بجوارها إلا بعد عشرات السنوات فضلاً عن دخولها في المذهب البروتستانتي فكانت الثورة بين طرفين متقابلين، الملوك المسيطرون على الكنيسة للاستقلال بالحكم، والشعب الذي يريد التخلص من السلطة الدينية، وهذه العوامل كلها وضعت إنجلترا في مواجهة إسبانيا المحافظة.

ومن يحاور كتابات العقد بود سلاحاً ولعه باختيار شخصيات نشأت في مراحل انتقالية من التاريخ مثل شخصيات الصحابة ومثل ابن الرومي وشكسبير. صاغ العقد تمهيداً في الفصل الأول اعتمد فيه على السياق الثقافي المعاصر لميلاد شكسبير ونشأته على مستويين من الأحداث أثرت في تشكله: أوروبا بصفة عامة وإنجلترا بصفة خاصة بوصفهما بنية الحجاج المؤسسة على الواقع ليخلص منهما إلى النتيجة التالية: أن الفترة ما بين القرن السادس عشر



والقرن السابع عشر فترة لم ينفرد فيها أحد بنوع من المعرفة ولا أسلوب من المعرفة، فغاية ما ينفرد به النابغ إبان الدعوة العامة على مثال دعوة الإنسانيين أن يضاف عليها طابعه الشخصي فيما تخصص له من فن أو علم وما هو بالحظ القليل<sup>(1)</sup>.

والعقاد في هذه النتيجة التي خلص إليها في الفصل الأول من كتابه يمارس نوعا من خطاب السلطة على القارئ ويحصر الإبداع في المراحل الانتقالية بأنه صبغة شخصية للنابغ في فنه وإبداعه محددا قوله بـ"غاية ما ينفرد به النابغ في إطار وجود دعوة عامة لعصره، فكأنه يذوب فيها وتذوب فيه ولا ينحرف عنها إلا إذا أراد وضع بصمته الشخصية على العمل.

إن النتيجة السابقة التي خلص إليها العقاد تتسم بالتعميم الشديد، وتتعارض بشدة مع فكرة البحث عن التفرد والعبقرية التي يسعى إليها من خلال كتاباته، ويبدو أنه أحس ببعض المغالاة في رأيه، فنراه تراجع قليلا عن تعميمه في قوله "وما هو بالحظ القليل".

وبعد تعريج غير مفصل في فصل قصير يبرز لنا العقاد واقعا ثقافيا تبدلت نظرتة للمثليين، فقد كانت الطبقة الحاكمة تعتبرهم من الشطار والصوص وانتقلت إلى الاعتراف بدورهم تجاه المجتمع والسماح لهم بعرض فنهم داخل أسوار العاصمة.

ليعود مجددا لممارسة حجة السلطة على القارئ بعرض نتيجة توصل إليها في بداية الفصل الثالث، ممارسا الوصاية على قدرة المتلقي في تكوين رأيه الشخصي من خلال حجاج منطقي متسلسل فيقول: كاتب الأعاجيب ليس في سيرته خبر عجيب فقد ولد شكسبير ومات في مسقط رأسه، وهاجر مثل آلاف قبله، وعلى بساطة حياته وأحداثها إلا أن العقاد استنبط مصادفات في حياته منبثقة من السياق الثقافي الذي أحاط بشكسبير منها: نشأة المسرح الثابت، وإذن الملكة بإقامة المسارح في المدينة، وهجرته بعد رفع الحظر عن التمثيل عقب تعمس والده المالي، كل هذه العوامل هيأت لنبوغه وظهور موهبته، ويرى العقاد أنه ولو كان استمر بقريته لأصبح مثل المئات من شعراء الأمم، فالهبة العالية - كما يقول العقاد - قد يوافقها زمان دون زمان، وقد تصلح لها حالة دون أخرى. إن التوحد الذي اعتري العقاد وهو يعرفنا بشكسبير توحد بين حتى للقارئ العام، فقد أحبه ودافع عنه وقال إن اسمه فاق

(1) عباس محمود العقاد، التعريف بشكسبير، ط / مؤسسة هنداري 2012، ص 14.

في شهرته الإنسانية أبناء الأسرة المالكة آنذاك. ليعود مجدداً توكيده السابق في نهاية الفصل الثالث من المحور الأول أن كل شأن صغر أم كبر في حياة شكسبير سيفسر ما يحسبه المترجمون ألغازاً في حياته إن تأملوه بدقة، وهذا ما يؤكد العقاد أنه سيقوم به وكأنها المهمة التي حملها على عاتقه في هذا الكتاب.

يأتي المحور الثاني بفصوله الأربعة ليتنقل بنا من العام وسياقه الثقافي وحساسية عصره إلى الخاص وأثر العام عليه وفق حركة جدلية بينهما بعد تهيئة المتلقي تهيئة تليق بهذا الانتقال الذي راعى فيه العقاد بعناية المقصدية بوصفها استراتيجية من استراتيجيات الخطاب.

تنوعت وسائل الحجاج في المحور الثاني على اختلاف فصوله وتواليها، وكانت حجة الذات أو الشخص هي الأكثر حضوراً في هذا المحور بداية من عناوين الفصول الرجل، الفنان، الشاعر، المؤلف ومروراً بتفاصيلها، فالعقاد كان يعتمد معرفة ناجمة عن دراسته المستفيضة لحياة شكسبير وعلى تفسير بعض الأحداث وتبريرها للربط بين العمل وصاحبه. فالصورة التي رسمها مارتن دروشوت المهندس الفلمنكي لشكسبير بعد وفاته بست سنوات وحازت موافقة من عاصروا شكسبير حملت الكثير من صفات شكسبير، فهو رضي وديع هادئ سمح يؤكد العقاد أن الصورة نقلت كل جميل عن شكسبير أكده منافسوه مثل بن جونسون الذي غضب من ممثل فقتله ورغم ذلك لم تدفعه غيرته من شكسبير للإساءة إليه.

إضافة لشهادة بعض النبلاء عنه في إحدى الرسائل التي أكدت عفقه وكرامته وعزوفه الدائم الذي ضمن له الحيدة وساعده على النجاح وكسب رضى الناس في أي بيئة يعيش فيها. ثواصل حجة الذات ظهورها في رد العقاد على فالتينا كابوتشي التي ألقت كتاب شكسبير وعجائب فنه ورأت أن شعر شكسبير هو الشعر الخالد لكن نشره هو واحد من مئات.

ودحض العقاد حجتها منطلقاً من معرفته بذات المتلقي، فما أوردته الباحثة في كتابها لا يرجع لتفضيل فن على فن أو ملكة على ملكة ولكن يرجع إلى صلة المؤلف

بالجمهور، وصلة الشاعر بقارئه الذي يستأثر لنفسه بالشاعر ويتلقى الخطاب منه كأنه يتلقاه من صفيه ووليه على حد تعبير العقاد.

يتجلى استناد العقاد بوضوح إلى حجة الذات في ترجيحه كون شكسبير فنانا لا داعية أو مصلحا، فالدعاة وأصحاب الرسائل على حد تعبيره لا تناسب طبيعة شكسبير فهو حكيم متأمل لا مناضل قلق مدفوع لتغيير أمر من أمور زمنه وخير تمثيل لطبيعته موقفه من الصراعات بين: الإنسانين المجددين والمحافظين الجامدين، البابويين والمحتجين عليهم، الخلاف بين المدرسة التجريبية ومدرسة الفلسفة الإغريقية اللاتينية.

يتأتى الاستدلال المبني على أحداث الواقع أيضا في هذا المحور متمثلا في دفاعه عن مهارة شكسبير منذ صغره على التمثيل رغم براعته في فن التأليف المسرحي في مراحل تالية وذلك بسبب توافد الفرق المسرحية إلى لندن بكثرة وهو ما يزال صبيا واستقبال والده لهم بحكم عمله لفترات متتالية في مجلس المدينة فغرس داخله حب التمثيل بصفة عامة.

بنى العقاد حجاجه أيضا على أمر واقعي خاص بواقع ثقافي ذكره "ميزر" يحيط بشكسبير، فميزر يراه فريدا بين المؤلفين الذين ضارعوا كتاب الرومان المشهورين في ذلك العصر، لأنه أجاد فن المأساة، وفن الملهاة وأنه كان وحده ندا لبلوتس وسينكا في هذين الفنين وذكر ذلك بوصفه دليلا دامغا على الإقبال على المسرحية الجديدة من المؤلفين والممثلين والنظارة والرعاة والحماة لأنها تنبئ بميلاد جديد في حياة الإنسان.

والعقاد بنى حجاجه على ما سبق فذكر أن الإقبال العميم قرين بسعة الانتشار وليس كفيلا لارتفاع فن المسرحية إلى ذروته في جميع العصور ولكنها كانت بحاجة إلى مؤلف واحد يفوق زمانه ليرتفع بها إلى القمم الإنسانية في تواريخ الآداب ويذكر العقاد صراحة أنه وجد هذه القمة متى وجد شكسبير، ولو كان وجوده اختيارا مدبرا لما كان أوفق منه لهذا الاختيار.

يلجأ العقاد أيضا في هذا المحور لاستخدام نمط آخر من أنماط الحجاج وهو المناقشة النقدية فينطلق من مسلمات الخصم ليبني فرضياته: يأتي ذلك في سياق نسبة بعض الروايات لشكسبير من عدمها وخاصة رواية هنري السادس بأجزائها الثلاثة فيرى العقاد أن الصعوبة

الكامنة في نسبة الروايات أو عدم نسبتها له مع الأخذ بالتحليل النفسي والفلسفي هو تطور تجربة الكتابة لدى المبدع والفروق بين البواكير والنهايات.

وقد خرج العقاد من بحث الفوارق بنتيجة مفادها أنه على يقين من كيان عبقرية شكسبير وعلى يقين بأن آثاره المتبقية كافية لقيام هذا الكيان وأن المشكوك فيه هو من وضع النقص منها لأنه دون الطبقة الممتازة التي اعتادها المتلقي وهذا موضع تأكيد لعبقرية شكسبير من وجهة نظر العقاد لا قدح لها.

وهنا تبرز مقولة جاد امرالتي نقلها عن كانط الذي..... يعرف الفن بوصفه إبداع العبقرية" ويقول كانط عن الجمال الفني أنه في الحكم على موضوع ما، لابد للمرء من أن يضع في اعتباره إمكانية الروح فيه، ومن ثم إمكانية العبقرية.... وفي موضع آخر يتحدث بوضوح عن أنه من دون العبقرية لا يمكن للفن أن يحكم على موضوع ما، بل لا يمكن حتى لذوق صحيح ومستقل فصل ذلك<sup>(1)</sup>.

يأتي المحور الثالث ليضم فصلا واحدا فقط وسماه العقاد بـ "خصائصه ومزاياه" اعتمد فيه على وسيلة حجاجية وحيدة هي الغائية، فمن أجل إثبات عبقرية شكسبير تبنى كل ما يقوده إليها من آراء اختلفت معه أو اتفقت لإثبات صحة تحليله، وأجل هذا في نتيجة عامة قام بصياغتها على شكل أسئلة طرحت بطريقة تؤكد أن العقاد سيخلص للنتيجة التي يريدها أيا كان رأى من قاموا بتقد شكسبير.

بنى العقاد حجاجه على أنه سيتنصر لشكسبير أيا كان الخلاف حوله فهو شكسبير العبقرى وليس أدل على حجته الغائية من استشهاده ببيت المتنبي في معرض مناقشاته للآراء المؤيدة والمعارضة لشكسبير<sup>(2)</sup>:

أنام ملء عيوني عن شواردها ويسهر الخلق جراحا ويعتصم

(1) جادامر، الحقيقة والمنهج ، ترجمة د.حسن ناظم ، على حاكم صالح ، دار أويا 2007 ، ص 115.

(2) التعريف بشكسبير، ص 82.

العقاد يرى أنه من الجائز أن ينكر الناقد على المبدع مزية من مزايا الفن ويعود ليشهد له بمزية أو مزايا كثيرة فيما عداها. ومن الجائز أن ينكر ناقد على مبدع جميع المزايا ويقابله في زمانه نقدَه يضارعونه في المكان والخبرة ويخالفونه في إنكاره ويستندون إلى أحوال استند إليها ولكنهم لم يذهبوا مذهبه في تفسيرها وتطبيق مبادئها ومن الجائز أن تمر بالشاعر / المبدع فترة ينساه فيها النقاد والقراء ويلهون عنه بفتنه من فتن الزمن ثم تنقضي الفترة لتعود ويعوض نسيانه بالإسراف في الإقبال عليه كأنهم ندموا على حرمانهم من متعة الإطلاع.

ويرى العقاد أن هذه قاعدة مطردة لدى عظماء الشعراء نعرفهم من الإنكار كما نعرفهم من الإعجاب. ثم يعرض لأراء بعض النقاد التي أجملها في أسئلته السابقة تفصيلا: فنرى فولتير واصفا شكسبير بأنه محروم من الفن والنسق، والمثل الأعلى عند فولتير في الفن والنسق أن يكون وفاقا لسنن الأقدمين التي أخذ الزمن في تبديلها من قبل أيام فولتير. والعجيب هنا أن العقاد الذي تصدى مدافعا عن التجديد واختلافه باختلاف العصر هو نفسه العقاد الذي أحال شعر صلاح عبد الصبور يوما ما إلى لجنة النشر لأنه لم يأت على سنن الأقدمين! العقاد يستخدم سلطته كمفكر ليأتي بهذا وينحى هذا حسب إرادته لا اطرادا لقاعدة يطبقها عمليا ونظريا، فنراه أنكر على فولتير موقفه ثم بحث فيما كتب عن شكسبير بعد ثلاثين عاما ليؤكد عبقرية شكسبير وتفرد هو أن فولتير لم ينكر عليه عبقريته المفعمة بالقوة والخصب والدراية ولكنه ذو عنجهية همجية بلا نسق ولا فطنة ولا فن يخلط الضعة بالعظمة والهدر بالهول، ويستنكر العقاد موقف فولتير من شكسبير وهو الذي قرر في مقاله عن الملاحم أن آيات الفن لا تنتظم في لغة واحدة.

يستعين العقاد من أجل حجته الغائية بنقده من ألمانيا عاصروا فولتير وكان لهم مكانته نفسها ورأيا مناهضا له عن شكسبير مثل: هرذر وفرديريك شليجل وعندهما أن المسرحية العظيمة لن تخلو من الفن الذي ينبع من الروح ولا ينشأ من اللباقة أو تزيين الصورة المحسوسة.

بالإضافة إلى مدرسة الفن للفن التي وجدت صداها عند شكسبير ومثلها في نقده والتر باترألذي لقب بالكاتب المرصع أو الكاتب الموشى لأن الكتابة تجري على يديه مجرى

الصور فيما تعرضه من الأصباغ أو الظلال أو مجرى العقود تنتظمه من الفصوص والجواهر على تناسب الأحجام والألوان نراه في روايات شكسبير توليفة من النفوس البشرية تمتزج وتنفرد فلا تنافر أبدا واستدل على ذلك بملهاة الحب الضائع.

يستعين العقاد أيضا بوصف أحد النقاد لشكسبير بأنه تطور ولم يتغير ويؤوله على نحو خاص يبعد أي شبهة تنتقص من موهبة شكسبير، فيفرق على لسانهم بين التطور دون التغير أنه يدل على التقدم ويدل مع التقدم على بقاء الملامح بينة ناطقة لا تختلف إلا باختلاف ملامح الوجه بين سن الصبا وسن النضج والتمام: من شاء استحسن منها ما شاء ولكنهم يستحسنون هذا أو ذاك على تفاهم وإدراك. حتى قال أحدهم "هريسون: إن أحسن عاداته وأسوأها في مسرحياته قبل النضج تتراءى في أجمل مسرحياته الباكرة روميو وجوليت"<sup>(1)</sup>.

واعتبر العقاد بناء على حجته الغائية التي تبرر كل دعوى في سبيل تحقيق مأربه أن النقد الموجه لعروض شكسبير المسرحية هو نقد موجه في أصله إلى بناء المسرح في القرن السادس عشر وإلى ضرورات التأليف التي استلزمها ذلك البناء. ينتقل العقاد لسرد مزايا شكسبير ويسوق الأدلة ليؤكد غايته إجمالاً وتفصيلاً بعد أن عرض النتيجة بداية بسمته الأسلوبية الأثرية ليقطع على المتلقي العام محاولة التفكير فيما عداها.

يرى العقاد أن المزية الرئيسة عند شكسبير هي خلق الشخصية لأنه حمل دعوة الإنسانين عبر لسان شخصياته فهو لم يصور الشخصية أو يعبر عنها لكنه "خلقها"، بمعنى أنه خلق صورة من دعوى الإنسانية وتركها ماثلة في عالم الكتابة تعيش كما يعيش الأحياء وتحيا لو نفخ الله فيها روح الحياة<sup>(2)</sup>.

فالعقاد يرى فرقا بين خلق الشخصية وبين الحكاية عنها بالوصف أو بالتعبير، فخلق الشخصية في عالم الفن هو رسالة شكسبير في دعوة الإنسانين، شخصية الإنسان في طبيعته المتنوعة والمتقلبة حينما كان وكيفما كان رجلا أو امرأة أو طفلا. ينتقل العقاد بعد ذلك إلى

(1) المرجع السابق، ص 86.

(2) المرجع السابق، ص 90.

حشد آراء النقاد مثل أنا جيمسون<sup>(1)</sup> كتابها الشهير عن بطولات شكسبير من النساء وحللت خمسا وعشرين صورة لهن من مسرحياته: نساء الذكاء والفطنة ونساء المطاعم والمغامرات ونساء العاطفة والحنان<sup>(1)</sup>.

أما الممثلة إلين تيرى<sup>(2)</sup> التي كتبت عن الأطفال في مسرحيات شكسبير قالت إن شكسبير كان ينقل الصورة تارة من ابنه "هامنت" وتارة من الطفل وليام شكسبير كما بقى في وعيه. وقد رفض العقاد دعواها وقال إنها مثلت هذه الأدوار وهي صغيرة وأنها استكثرت أن يكون هذا وعيا من الشاعر نفسه! العقاد يرى أن شكسبير كان لديه القدرة على استكناه مواطن النفس ومحركاتها على حقيقتها وهو في القرن السادس عشر يعرض لعلل نفسية كشفت عنها مؤخرا دراسات العلماء بتفصيلاتها ودخائلها في العصور المتأخرة. يخلص العقاد من هذا كله لإثبات غايته مؤكدا أن رسالة شكسبير هي الخلق الفني الموكل بالطبيعة الإنسانية يخلقها في صورها الفنية، ويجسم لها ما يجول في سريرتها كأنها تحسه وتدركه على مشهد ومسمع منها وليس في جعبة النقد النفساني رسالة يطلبها من الشاعر أجل وأندر من هذه الرسالة في آداب الأمم. فهذه عند العقاد الغريزة المطبوعة أو القريحة الفنية وهي العبقورية التي امتاز بها شكسبير.

وننتقل إلى المحور الرابع وهو المحور قبل الأخير ويضم فصلين:

الأول: مصادر الروايات

والثاني: نسبة الروايات.

وإذا أمعنا النظر مرة ثانية في ترتيب فصول الكتاب الذي حشد في بداياته تهيئة عن الواقع الثقافي المتأخم لميلاد شكسبير ثم صفات شكسبير ثم الدفع بمزاياه وخصائصه وتوكيد مصادر رواياته لينتهي بقضية الشك في نسبة بعض الأعمال له لوجدنا أنه ترتيب دو مغزى عميق في نفس المتلقي الذي غرس العقاد داخله كل اليقين السابق عن شكسبير ليعبر به إلى هذا المحور قبل الأخير وهو مطمئن القلب ذو عقل ساكن، مسلما بالقادم الذي سيرويه العقاد عن شكسبير.

(1) المرجع السابق، ص 91.

نعود إلى المحور قبل الأخير في الكتاب وخطاب السلطة الذي مارسه العقاد على كل الآراء التي وردت داخله خاصة التي تختلف مع شكسبير فمن أجل غايته حشد الآراء الموالية لعبقرية شكسبير وعرضها بشكل مسهب وعرض الآراء المناوئة لشكسبير وانتهى إلى أنها أيدت شكسبير بشكل غير مباشر أو أبدى العقاد رأيه في قصور نقد مَنْ طرحها، فاجتمعت حجة السلطة وحجة الغائية لتحجب الرؤية تدريجيا عن المتلقي العام كي لا يفكر بعيدا عن رؤية العقاد الذي سيعرفنا بشكسبير كما لم نعرفه من قبل.

شكسبير من وجهة نظر العقاد هو أيقونة التجويد في الكتابة المسرحية وإن لم يظفر بالرضا والاستحسان من قبل بعض النظارة والنقاد. فيراه لبي الطلب المحسوس لدى المتلقي ولم يخالف العرف المتفق عليه، ففي المسرحية التاريخية لم يطالبوه بغير إتقان عرضه وترتيبه وتهيته المناظر فيه والأقوال أيضا لإشباع ما عندهم من الشوق والشعور بالحادث المكتوب في صفحاته الصامته.

ولننظر إلى عبارة العقاد التي قالها بلسان حال المتلقي "فقد أجازوا - بل أوجبوا عليه أحيانا - أن يعيد تأليف الرواية نفسها التي كتبها المؤلفون قبله ولم يدركوا بها تلك الغاية، ويرجع أن شكسبير يكاد يكون مسئولاً عندهم عن استدراك هذا النقص مشكورا عليه ولم يكن في عمله ما يعاب أو يحسب عليه من قبيل العجز أو من قبيل العدوان على عمل الآخرين<sup>(1)</sup>."

ويؤكد العقاد أنه قلما اتفق لشكسبير مصدر من مصادر التاريخ أو الخبر أو الحكاية. فاستغنى في إعداداته للمسرح عن شيء من العقل والتحوير إلا أنه كان يقصد ما استطاع الوصول لأصول الحوادث التاريخية ويستعين على ذلك بامتداد الزمن واتساع الموضوع فينقسم العهد الواحد أقساما مستقلة، متحرزا في ذلك من المداخلة بين أبنائها والخلط بين أجزائها وأسمائها. إن العقاد متى قرر أن يصنف فصلا خاصا في التعريف بشكسبير يؤصل فيه لمصادر إبداع شكسبير على اختلافه كان يريد به أن يؤكد أصالة نسبة أعماله إليه من

(1) المرجع السابق، ص 99-100.



خلال عرض منابعها التي استقاها منها فيؤمن المتلقي بآراء العقاد التي تدرجت عبر فصول الكتاب المتتابعة ويربط معه الإلهام بمصدره.

تتبع العقاد ما ورد في كتب التراجم حول مصادر شكسبير وقسمها إلى ثلاثة أقسام: مصادر المسرحية التاريخية، مصادر المأساة، مصادر الملهاة. اتبع إستراتيجية واحدة في إثبات مصادره وهي حشد الأدلة المؤيدة لتقوّد المتلقي للإيمان برأيه ونفي ما عداها بسلطة المفكر الذي يذعن القراء له، فذكر أن مصادر رواياته التاريخية عن تاريخ الجزر البريطانية استقاها من الموسوعة التاريخية لـ"ريجالد وولف" ومصادر أخرى مثلت على المسرح ولم يكن لها مؤلف معروف.

العقاد متى حاول جاهدا أن يناقش الآراء التي شككت في نسبة بعض الأعمال لشكسبير بدأ بأقدمها وهو رأي إدوارد افنسكروفت<sup>(1)</sup> 1640 - 1697 الذي قال "إنه يبدو لي أن اختلاس أعمال الموتى سرقة أكبر من سرقة أموالهم ويؤكد العقاد أن التشكيك استمر لقرون تالية ولم يتوقف وعرض لها بشكل إجمالي ليخلص إلى تلك العبارة: "وعلى وجهة الملاحظات التي توجب هذه الفروض عند نخبه من جلة النقاد يظل أناس من حذاق القراء مترددين في التسليم بهذه الشكوك، يعللون الملاحظات أو المفارقات بالعلل الطبيعية التي تعرض للعبقريّة في أطوار نموها بين عهد البواكير وعهد النضج وعهد الاستواء"<sup>(2)</sup> ثم يقوم العقاد بحشد الآراء المؤيدة لعبارة السابقة ويتخذ منها رأيا مسلما به يحقق غايته نافيا ما عداها فيقول على سبيل المثال: "وآية الآيات في هذه العبقريّة النادرة أنها كانت من سعة الأفق بحيث تنهض منها الحجة لكل طالب حجة في القضايا المتناقضة ولاسيما قضايا التنافس أو التفاضل بين الطبقات"<sup>(2)</sup> ويرى أيضا أن من وضعوا الأسئلة ليشككوا في شكسبير نسوا أهم سؤال: "ما هو فضل العبقريّة في حسابهم؟ وأين مكانة الملكات الممتازة إن أسقطوا

(1) المرجع السابق، ص 116.

(2) المرجع السابق، ص 118.

من حساباتهم خوارق العادات وأجروا كل شيء في التأليف مجرى المعهود المقدور في عادات المعقول<sup>(1)</sup>.

العبرية تلك الكلمة التي أبطنها وأعلنها العقاد وهو يتحدث عن شكسبير ومعرفا به، تلك الكلمة التي مهدت له كل طريق بدا وعرا على من يجتازه لمناقشة قضايا كثيرة في حياة شكسبير وفي أعماله، تلك الكلمة التي كانت سوط السلطة في يد المثقف لمن لا يرغب في قبول وجهة نظره أو يطمح لحوار منطقي حجاجي يفتح الآفاق للتفكير لا التسليم أولا وآخرها بوجهة نظر الكاتب.

تلك الهالة التي طغت على الكاتب من تأليف العبريات فمنحته سلطة أقوى يمارسها على القارئ في أعماله التالية وإن لجأ فيها لأنماط أكثر من الحجاج من العبريات نفسها، ظهرت فيه سلطته بوصفه مفكرا وإن لم تظهر بشكل سافر في العبريات لأن سلطة الشخصية الدينية حلت محلها.

أما المحور الخامس والأخير الذي يعد بمثابة خاتمة التعريف بشكسبير وإجمالا لوجهة نظر العقاد في الكتاب فقد وسمه بـ "تراث عالمي" محاولا فيه جمع خيوط فصول الكتاب جلها وصياغتها في مقولة تجرى مجرى الاستشهاد الذي استخلصه من تجربته مع شكسبير وعممه ليصلح مدخلا للحجاج في بداية الفصل فقال: "العالم يختار شعراءه على مهل"<sup>(2)</sup>.

وبناء على هذه المقولة يبني العقاد حجاجه في الفصل بأكمله ويعمل فيه على محورين بشكل جدلي: موقف تولستوي من شكسبير من ناحية واستنباط بعض العلاقات من الواقع الثقافي المتأخم لحياة شكسبير وحياة بعض من سبقوه من العظماء من ناحية أخرى فالعناية بالشاعر الغريب أدل على استقلال الفكرة الإنسانية أو استقلال رسالة العبرية في عالم الفكر.... فهي تتخطى الحواجز السياسية<sup>(3)</sup>.

(1) المرجع السابق، ص 120.

(2) المرجع السابق، ص 135.

(3) المرجع السابق، ص 136.

ويرى أن الشاعر العالمي قد يتشيع له أناس من غير بلاده ويهجره بنو جلدته ثم يعودون إليه بهداية من الغرباء عنه، فموهبة شكسبير لم يحدها الحواجز السياسية التي كانت بين إنجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا، فقد ظهر له في هذه البلاد أنصار فضلوه على شعراء بلادهم مثل فرنسا وتفضيلها له على كورنى وراسين وموليير.

وفي ألمانيا رغم حروبها مع إنجلترا كانت تخصص أسبوعاً لأعمال شكسبير بالإضافة إلى إصدار مجلة خاصة بأخباره وبحوثه حتى بعض الأدباء مثل بوشكين كتب في وصيته أقرأ شكسبير. أما تولستوي الذي ألف كتابه "شكسبير والدراما" نفى عنه كل الصفات الفنية وتعجب من سر تعظيمه وذكر إنه لا يتذوق مسرحياته إلا أن دعوته جاءت بنتيجة عكسية فدفعت محبي تولستوي لقراءة شكسبير ففتنوا به....

## الخلاصة

حاولت من خلال المقاربة السابقة البحث عن استراتيجيات الحجاج عند العقاد في كتاباته عن الشخصيات العامة والشخصيات الإسلامية، فوجدت أن مساحة الحجاج تنقلص عند حديثه عن الشخصيات الإسلامية لأن سلطة الشخصية الدينية تختصر له العديد من المساحات بصفة مبدئية لإقناع القارئ بما يريد، وكان ظهورها على استحياء غير مكتمل الأركان في مواضع كثيرة، وعدم اكتمالها أدى إلى إدانة الشخصية أكثر من دفعها الشبهة عنها، أما عن دراسة الشخصيات العامة فإن العقاد اعتمد على سلطته كمفكر التي ظهرت جلية واستنهضت استراتيجيات حجاجية أخرى تساندها معتمدة على معطيات الواقع الثقافي المتأخم لتلك الشخصيات.



## البلاغة والحجاج: حول السخرية<sup>(1)</sup>

إيكيهارد إيفس - جامعة هانوفر<sup>(\*)</sup>

ترجمة: وئام المددي<sup>(\*)</sup>

بما أن النقاش الجاد حول علاقة البلاغة بالحجاج يقتضي معرفة جيدة وإحاطة بالموضوع، فسنقوم بدراسة السخرية دراسة تحليلية في البداية، وذلك بالتركيز على مظاهرها الحجاجية والاستدلالية.

### الالتباسات

لقد عرفت السنوات الأخيرة عدداً هائلاً من الدراسات التي تناولت السخرية، وعلى الرغم من كون التديقات التي أتت بها هذه الدراسات تدفع إلى الابتهاج، إلا أن انفجار البحث هذا قد أفرز مجموعة من الالتباسات والاختراعات وسوء الفهم: إذ غالباً ما يكون لدينا انطباع مفاده أن المناظرة لا تنفع إلا في تنفيذ نظرية الخصم وإظهار مدى قصورها - سواء كان يدافع عن نظرية إشارة الصدى (Echoic Mention Theory) أو عن نظرية الحجة التلميحية (Allusional Pretense Theory) أو عن نظرية الربط التلمحي (Joint Pretense Theory) أو عن أي نظرية أخرى - (انظر مقالات "غيبس" (Gibbs) و"كولستون" (Colston) 2007). إلا أن المدهش حقاً هو ألا نكون قد تواضعنا

(1) Ekkehard Eggs, «Rhétorique et argumentation: de l'ironie», Argumentation et Analyse du Discours [En ligne], 2 | 2009, mis en ligne le 01 avril 2009, Consulté le 30 septembre 2016. URL: <http://aad.revues.org/219> ; DOI: 10.4000/aad.219

• Ekkehard Eggs: Rhétorique et argumentation: de l'ironie in Argumentation et analyse du discours, N 2, 2009.

وئام المددي، أستاذة باحثة، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب. تخصص: اللغة، النقد والبلاغة.

(\*)

بعد على وضع لساني للسخرية: هل هي استعارة، أم قضية، أم تلفظ، أم نوع نصي؟ لنمثل بمقطع من دراسة حديثة لـ "ويلسون" (Wilson):

تعتبر البلاغة الكلاسيكية المفارقة اللفظية والاستعارة مجازاً، فالاستعارة هي أن تتكلم بما هو رمزي، أما المعاني فتلتزم بالحرفية والموضوعية اللتين تعدّان من أساليبها المعيارية المتعددة. أما في المجاز، فالمعنى هو تشبيه أو مقارنة على أساس المعنى الحرفي والموضوعي في سخرية ملائمة كما هي في:

(1) و(2)، هما عكس المعنى الحرفي

(3) ماري" (بعد لقاء عسير) كل شيء مر على أحسن حال.

(4) ما إن وصلت إلى البنك في الدقائق الأخيرة من دوامه حتى صدني الحارس بإغلاق الباب. (ويلسون 2006: 1723)

فإذا كان أحد التيارات البلاغية المهمة قد اعتبر السخرية استعارة، فلن نستطيع، إذن، أن ننكر، على الإطلاق، كون البلاغة القديمة قد حددت السخرية باعتبارها مجازاً عقلياً (انظر أيضاً غيرن" (Le Guern) 1975 "بيران" (Perrin) 1996: 86 – 116). هذا دون أن ننسى أننا نصادف هذين الشكلين للسخرية عند كيتيليان. لنقرأ ما كتبه حول السخرية بوصفها استعارة:

تنتمي السخرية إلى نوع من المجاز حيث الضد مشار إليه (...) ويساعدنا نبر النطق أو الشخص أو طبيعة الشيء في فهمها، لأن التباين بين هذه العلاقات والكلمات سيدفع الكلمات إلى قول شيء مخالف. (...) ومن الجائز حينها أن يكون التظاهر بالمديح تحقيراً، وأن يكون التظاهر بالتوبيخ والتقريع مديحاً<sup>(1)</sup>.

ونحن أمام السخرية، باعتبارها صورة بلاغية، يجب أيضاً الإصغاء إلى عكس ما يقال (contrarium ei quod dicitur, intellegendum est) حسب كيتيليان' (كيتيليان'

(1) In eo vere genere, quo contraria ostenduntur, ironeia est [...]. quae aut pronuntiatione intellegitur aut persona aut rei natura: nam si qua earum verbis dissentit, apparet diversam esse orationi voluntatem. [...] et laudis adsimulatione detrudere et vituperationis laudare concessum est (Quintilien VIII, 6: 54-55).

IX، 2: 44)، لكن هذا المعنى المضاعف لا ينتج على مستوى الكلمة (verbum) وإنما على مستوى الخطاب (sermo): في الاستعارة، معنى الكلمات 'مختلف' (diversus)، في حين نجد في المجاز تبايناً مع القصد العام (totus voluntatis fictio) (IX، 2: 46). ولنقدم مثلاً عن السخرية باعتبارها مجازاً، حسب الملاحظة التي أبداهـا غابا (Gabba) الذي انتبه، أثناء تناول وجبة، إلى كون الأسماك التي قدمت له قد التهمت أنصافها: فلنسرع، هناك أشخاص تحت الطاولة يشاطروننا عشاءنا. (VI، 3: 90).

هذه التمايزات تتضمن الحقل الإشكالي للسخرية داخل البلاغة القديمة بشكل مكثف - وبالطبع داخل البحث العلمي المعاصر أيضاً - لنسجل، في البداية، إشكاليـن اثنين: بما أن كيتيليان قد حدد المعنى المضاعف الناتج عن السخرية باعتباره ضدّاً (contrarius) مخالفاً (diversus)، فإن السؤال يطرح حول معرفة ما إذا كان على السخرية أن تصني، بالضرورة، إلى عكس ما يقال 'حرفياً'. إلا أنه من أجل الإجابة عن هذا السؤال، يجب الحسم في إشكال موقع إنتاج السخرية. بالنسبة لـ كيتيليان، يتمركز هذا الموقع على مستوى الكلمة في حالة السخرية - الاستعارة. وبما أن البلاغة القديمة لا تمتلك مفهوماً واضحاً لمستويات تنظيم الخطاب المختلفة - كلمة، جملة، نص - لم يكن بمقدور كيتيليان أن ينتبه إلا للفارق الكمي بين هذين الشكـلين للسخرية: السخرية - الصورة البلاغية، ليست في واقع الأمر سوى سلسلة متتابعة من أفعال السخرية - الاستعارية، تماماً كما هو الأمر بالنسبة للرمز الذي لا نرى فيه سوى استعارة موسعة (انظر IX، 2: 46). ويعبر هذا التقابل، على ما يبدو، عن جهل بالفروق الجوهرية لمستويات اللغة الثلاثة: تنتج الاستعارة على مستوى الكلمة، والسخرية على مستوى الجملة، والتقابل على مستوى النص (سواء كان مكتوباً أو منطوقاً).

لهذا، ربما، يمكن للسخرية أن ترتبط بجميع أنواع الجمل والاستعارات: لا تتأثر السخرية بنوعية الجملة التي ترتبط بها (كنوكس 1998: 39) يصـر كنوكس (Knox) في دراسته حول تصورات العصر الوسيط وعصر الأنوار عن السخرية، على كون السخرية ظاهرة جمالية:

السخرية قضوية. والنتيجة أن نوعين فقط من المعارضة يمكن أن ينطبقا على السخرية، وهما يتموقعان بين القضايا المتناقضة أو المتضادة". (1998: 28).

بناءً على ما سبق، فالمثال (1) الذي قدمته "ويلسون" (ماري) - بعد مرور وقت عصيب: كل شيء مر على أحسن حال" لا يتولد عن تناقض بين أحسن vs أسوأ، ولكن عبر تعارض قضوي: "لم يمر كل شيء على أحسن حال". وعلى الرغم من أن كُتاب هذه المرحلة المدروسة من لدن كُنوكس" لم يكونوا يتبهن دوماً للعلاقات الضمنية التي تتخلل هذا التأويل القضوي للسخرية، فإن كُنوكس" يؤكد أن: "العديد من الكتاب قاموا بوصف السخرية بالاقصرار على هذه المعايير" (1998: 37).

إذ يرى كُنوكس" (نفسه: 29) أن كُتاب عصر الأنوار قد قاموا بوصف السخرية بوصفها ضرباً من الاستعارة أقرب إلى الصورة المجازية، مع اجتناب الالتباسات الكيتيليانية. وفيما يخص تاريخ البلاغة في فرنسا، نستطيع أن نلاحظ الظاهرة نفسها، حيث نجد تحليل السخرية بوصفها استعارة سائداً بوضوح - والسبب راجع بالخصوص إلى الرامسيين (ramistes) الذين ميزوا بين أربعة أنواع كبرى من الاستعارة: الكناية والسخرية والاستعارة والمجاز المرسل. ويعد "دومارسيس" (Dumarsais) خير ممثل لهذا التيار، وقد عرف السخرية بكونها: "صورة بلاغية نصغي من خلالها إلى عكس ما يقال"، هكذا ينبغي علينا ألا نأخذ من الكلمات التي نستعين بها في السخرية معناها الحرفي الخالص" (1730: 156). يتبين لنا، بسهولة، أن هذا التعريف لن يتمكن من شرح المثال المعروف الذي جاء به "بوالو" (Boileau) شاهداً على هذا التعريف:

(4) سأعترف إذن، كينولت" ليس إلا "فيرجيل".

لن نتمكن من فهم هذه السخرية إلا إذا كنا نعلم أن كينولت" (Quinault) كان يتمتع بسمعة شاعر سيء. كما أن عبارة "فيرجيل" (un Vergile) لم تستعمل في معناها الخالص، بل في معناها الاستعاري، أي بوصفها استعارة مجردة (antonomase)، هكذا، إذن، ينبغي إعادة بناء ما تمت الإشارة إليه، بسخرية، في المثال (4): "كينولت" ليس شاعراً كبيراً كفيرجيل. ونجد فونتانيه" (Fontanier)، في المقابل، يتصور السخرية صورةً بلاغيةً، بل



صورة مجازية تعبيرية على وجه التدقيق، كما يعدّ الصور البلاغية استعارات في عدة كلمات، مع إشارته إلى أن الأمر يتعلق بتسمية في غير موضعها. هذه الصور المجازية التعبيرية، أو الاستعارات غير المصرّح بها:

لا تقدم فكرة بسيطة من خلال كلمة واحدة كما هو الشأن بالنسبة للاستعارة، بل رأياً فكرياً، كما تقدمه بنوع من التغليف واللف. إنها تقتضي، في القضية أياً كان نوعها، تصريحية أو ضمنية، أساسية، معترضة، تابعة. كما ترتبط بالطريقة الخاصة التي تعبر بها القضية، من خلال تراكيب الكلمات." (1830: 109).

يميز "فونتانيه" بين ثلاثة أنواع من الصور المجازية التعبيرية التي تشترك في فعل "توليد" معنى روحي ينضاف إلى المعنى الحرفي، يمكن للمعنى الروحي أن يكون "مشاراً بفعل الخيال (الترميز) أو بفعل الانعكاس (المبالغة)، أو بفعل التقابل (السخرية). هذا المعنى يسمى روحياً (...) لكونه يُشكل من قبل الروح، أو بمساعدة المعنى الحرفي" (نفسه: 59). بعبارة أخرى، يجب أن يعاد بناء المعنى المستبطن من خلال العمليات الذهنية والاستدلالية انطلاقاً مما قيل حرفياً في وضعية تواصلية معينة. وتجدر الإشارة أيضاً إلى كون "فونتانيه" قد أتى بمثال، شأنه شأن "دومارسيه"، يستشهد به في حالة المديح الكاذب: "كان "بوالو" يتظاهر بمدح بعض كتاب عصره من أجل الاستهزاء بهم". (نفسه: 147).

وبقدر ما يصير "فونتانيه" على الطابع القضوي للسخرية، فإنه يظل قيد الحقل الإشكالي لـ "كتيليان"، إذ إنه لا يميز سوى مستوى لسانياً وحيداً أعلى للكلمات: القضية. إذ أغفل كون القضايا تشكل وحدة عليا هي النص. الشيء الذي يفسر وضعه للشكل النصي، كالترميز، في خانة الصور البلاغية.

ونصادف التصور ذاته في البحث المعاصر. لنقرأ على سبيل المثال التعريف الذي وضعه "مولينييه" (Moliné) في معجم البلاغة (Dictionnaire de Rhétorique) (1992: 180):

السخرية صورة بلاغية من النوع الفوق - بنيوي، تتلاعب بالتوصيف المكثف للملفوظ: إذ نحن نقصد عكس ما نقوله كما هو متعارف عليه، الشيء الذي يقتضي التوافر

على طابع فوق - بنيوي: يتبلور الخطاب الساخر، في بعض الأحيان، على مستوى مجموعة من الجمل يصعب أن نتقي منها الألفاظ التي تحمل خصائص السخرية. (لكن الأمر ممكن في حالة الجملة المضادة (Antiphrase))

نجد الشيء نفسه في اللسانيات الفرنسية التي تهيمن عليها فكرة مفادها أن قوة السخرية وسلطانها تتركز في ذيل الجملة. نستطيع، إذن، أن نميز بين تيارين كبيرين: تحليل ألفاظ التعدد الصوتي مع 'ديكرو' (Ducrot) من جهة، وتحليل ألفاظ الحجاج التناظري من جهة أخرى مع 'بيريندونر' (Berrendonner) وآخرين (انظر المحاورة في أموسي (Amossy) 2003). ويرى 'ديكرو' (1984) أن المتحدث (الذي ينجز فعلاً ساخراً) يقوم بإسماع صوت شخص آخر هو المتلفظ، وذلك بتقديمه في وضع لا منطقي.

نعد إلى مثال 'ديكرو'، إذا كان المستمع إلي قد رفض تصديق كون 'بِير' قد حضر لرؤيتي اليوم، وفي حالة إن كان قد حضر اليوم بالفعل، فستطيع أن أقول له ساخراً: (5) أرايت؟ 'بِير' لم يحضر اليوم لرؤيتي.

من خلال هذا التأكيد الساخر أقبل مسؤوليتي باعتباري متحدثاً، لكنني أمثلها كما لو كانت تعبيراً يصدر عن وجهة نظر لا منطقية، هذا اللامنتطق لا علاقة له بي لكوني لست ذلك المتلفظ. (نفسه: 211)، بل هو المستمع إلي. باختصار، فإن المتحدث في وضع السخرية يقوم بإسماع صوت المتلفظ (الذي قد يتماهى مع المستمع أو مع أي شخص آخر)، مع تقديمه في وضع لا منطقي. هذا التحليل النسبي على الحقيقة المضادة لم يكن ملائماً فقط للتضاد (Contrarium) في النظرية الكلاسيكية، بل أيضاً لفكرة كون السخرية دائماً ما تكون تقديرية بما أن تقديم صوت الآخر في وضع لا منطقي ما هو إلا شكل من أشكال الإقصاء والنقد أو التفرير حتى.

نظرية 'بيريندونر' (1981: 184 - 185) هي الأخرى نظرية كلاسيكية لكونها لا تقتضي سوى نقل التضاد إلى الخاتمة.

## (6) 'بيير' شاطر صغير

يمكن للإثبات، في واقع الأمر، أن يقرأ حرفياً باعتباره 'حجة تسخر من أجل خاتمة إيجابية' من نوع 'تستحق منا اقتراحات بيير الإنصات' [r]. لكن يمكن لهذه الجملة أن توجه إلى الخاتمة المضادة [non-r]. هذه الحجج ذات التوجه المضاد التي يطبعها التفكك تجعل من السخرية: تقابلاً حجاجياً. يمكن أن نلاحظ بديلاً مغايراً لمبدأ التقابل (أو 'عدم التقابل' على وجه التدقيق) ل-أرسطو. في واقع الأمر، فإن القضية الواحدة، كما يرى بيرندونر، لا تستطيع أن تحتاج في معنى ومعنى آخر مضاد في الآن نفسه. بهذا تصوير السخرية مخالفة لقانون الانسجام الأساسي للخطاب، ومسلمة للمنطق الطبيعي، أو، إن شئنا، واجباً أخلاقياً (نفسه: 185). سرى لاحقاً كيف أن السخرية لا تحترم مبدأ التقابل إلا على المستوى الأولي، ذلك لكونها تبسط سلطتها في نهاية الجملة، لتكون بذلك 'جدية أكثر من الجدل ذاته'. (جانكيليفيتش" (Jankélévitch) 1950: 154).

هكذا تظل مقاربات كل من 'ديكرو' و'بيرندونر' القضية خاضعة للتصور الكلاسيكي، لكونها تعتبر التضاد سمة أساسية للسخرية. لكن هناك أمثلة في السخرية يظهر فيها غياب هذا التضاد:

(7) المضيفة لضيفها: أتعلم أيها الصديق العزيز؟ إننا نتمتع بحياة زوجية سعيدة، لهذا فنحن نحاول، نكايه في التصورات المعاصرة حول الأسرة، تقديم صورة حقيقة غير صدامية عن السعادة الزوجية لأطفالنا، وإذا ما حدث وتجادلنا، فإننا نرسل أطفالنا إلى الحديقة. [p] بعد مرور نصف ساعة عاد الأطفال إلى البيت، وبعد أن رأهم الضيف علّق قائلاً: 'يتمتع أطفالك ببشرة سمراء مدبوغة!'

من أجل أن نوضح هذا النوع من السخرية الذي مثلنا له في (7) الذي يتخذ شكل الضدية، يجب أن نقف عند أشكال التضاد *contrarium* التي توظفها السخرية.

## أشكال التضاد: الدحض والتضاد القضوي. قواعد التاويل وقواعد الاستدلال

يكون الضد قضوياً إذا كان من الواضح أن الساخر يريد أن يقول عكس ما يصرح به في وضعية تواصلية معينة. لكن يمكن للضد أن يكون فورياً كما في المثال (5)، أو في المثال الآتي، حيث يثور السائق عندما انعطفت السيارة التي تتقدمه إلى اليسار دون أي إشارة:

(8) أحب أولئك الذين ينبرون الأضواء قبل انعطافهم في مفترق الطرق<sup>(1)</sup>.

سيكون الضد فورياً أيضاً إذا علمنا أن المتحدث له عادات أو ميولات تحالف ما

يصرح به، هكذا، إذا كنا نعلم أن "بيير" يكره أفلام "غودارد" Godard سيؤخذ رده المتحمس:

(9) رائع! إنها لمعة حقيقية أن يكون بمقدور المرء أن يشاهد فيلماً لـ "غودارد" هذا

المساء!

طبيعياً وتلقائياً على أنه سخرية.

بالمقابل، لا تكون الحقيقة المضادة استدلالية، كما سنرى في المثال الآتي، إلا من

خلال إثبات ثانٍ يقوم بوظيفة الشرح والتوضيح.

(10) من البدهي كون أعضاء الجبهة الوطنية غير معادين للسامية [p]، والدليل هو

أن محكمة أوبيرفيليه (...) قد أدانت رئيسهم "لوبين" (Le Pen) لهذا السبب. (بيران 1996: 204).

بما أنه لدينا إثبات: أعضاء الجبهة الوطنية ليسوا معادين للسامية، سيتصل لنا إثبات

مضاد من خلال الاستدلال أعضاء الجبهة الوطنية معادون للسامية، ألا يتعلق الأمر، إذن،

بانتهاك صريح لمبدأ التقابل؟ يكفي فقط أن نعكس ترتيب هاتين القضيتين، لنحصل على:

(1) انظر: كومون ناكوماراً 2007، 90، كيهاراً (Kihara) 2005، 515. غالباً ما يساق هذا النوع من الأمثلة من أجل انتقاد نظرية الصدى لـ "سبيرير" و"ويلسون"، وذلك لعدم وجود تلفظ مميز. وتجدر الإشارة إلى أنه في إطار اعتبار القضية السببية في (8) قد تولد دون أن تفقد خاصيتها الساخرة: (8n) أحب أولئك الذين لا ينبرون الأضواء قبل انعطافهم. من أجل توضيح الأمر تكفي الإشارة إلى أن القضية السببية تتضمن حقيقة مضادة، بينما الهدف الأساسي في (8n) هو محاولة إقناع المتلقي المعنى المضاد. وتؤكد نظرية كيهاراً أن بناء أفق انتظار ذهني افتراضي وحده قادر على الحسم في هذا النوع من الظواهر. سيكون الأمر عكس ذلك في (8)، وقد تؤول الجملة إلى: أكره أولئك الذين لا ينبرون الأضواء قبل انعطافهم.

(11) أدانت محكمة أويرفيلية "لويين"، رئيس الجبهة الوطنية، بتهمة العداء للسامية [q]، والدليل على ذلك أن أعضاء الجبهة الوطنية ليسوا معادين للسامية [p].

لماذا يبدو لنا المثال (11) غير منطقي البتة، على عكس المثال (10)؟ الإجابة بسيطة جداً: في المثال (11) كانت الصدارة للفعل الشاذ (حكم المحكمة)، وبما أن الأفعال الشاذة لا يمكن لها أن تكون موضع تساؤل، فلن نستطيع إذن أن نحاول إظهارها في لبوس الصحة. على عكس ذلك، في المثال (10)، نجد أن الصدارة كانت لفعل أخلاقي (حكم قيمة)، وبما أن هذا النوع من الإثبات يمكن أن يحتمل الخطأ، فإنه سيكون، بالتالي، قابلاً للتصحيح من خلال أفعال شاذة لا يمكن إنكارها (من هنا نستخلص أن أعضاء الجبهة الوطنية معادون للسامية). بعد أن قمنا بإثبات الضد، تجدر الإشارة إذن إلى أن الإثبات الأول كان زائفاً. باختصار: بإثبات q التي تعود على فعل شاذ لا يقبل الإنكار، يستنتج المتحدث إليه أن عليه ألا يأخذ الإثبات p مأخذ الجد، الذي سيعتبره، بالتالي، إثباتاً زائفاً، هذا الاختلاف المنطقي بين (10) و(11) ينعكس أيضاً على المستوى البلاغي - المحادثاتي. فإذا كانت عبارة "من البدهي" التي تصدر المثال (11) تضطلع بوظيفة الرابط الداخلي (المونولوجي) الذي يتقدم الخلاصة، فإنها في المثال (10) تعمل كرابط حوارى يعود على رأي أعضاء الجبهة الوطنية (أو الرأي العام، بحسب السياق)، وذلك بإثبات هذا الرأي، الشيء الذي يبين أن المتحدث إليه يقدم نفسه في البداية، على المستوى التفاعلي، بوصفه شريكاً متعاوناً - يتخاذل في الآن نفسه بتشبيده لـ "فخ ساخر" لكون المتحدث يقدم هذا الرأي، بطريقة مبالغ فيها، كما لو كان صائباً تمام الصواب. في القضية الثانية، يتحول الموقف المتعاون "الحار" إلى موقف انتقادي فكري بارد "بطريقة مفاجئة. فبما أن المتحدث في المثال (10) ينتقد موقف أعضاء الجبهة الوطنية نظراً للتناقض الحاصل في أفعالهم، يمكن أن نؤول المثال (10) على أنه برهان بالخلف (ad hominem). لئُعد صياغة هذا المثال صياغة ساخرة:

(12) يطالب أعضاء الجبهة الوطنية بالألا يكونوا معادين للسامية [p]، لكن محكمة أويرفيلية أدانت رئيسهم "لويين" بتهمة العداء للسامية.

بما أن (12) عبارة عن دحض، أو حجاج مضاد على وجه التدقيق، فهدفها إظهار أن ضد ما أثبتته الخصم (أعضاء الجبهة الوطنية) هو الصواب. صحيح أن السخرية (10) تعبر هي الأخرى عن الحجاج المضاد، لكنها لا تعبر عن الهدف الرئيس، هذا الهدف يتضمن نهاية عليا تظهر أن الخصم يدافع عن أطروحة تتناقض مع البديهة، ذلك أن فعل إظهار أن أطروحة ما تتجه عكس ما تمليه البديهة يتضمن شكلاً من أشكال السخرية من الآخرين وانتقادهم. نستطيع القول إن النهاية الرئيسية لفعل ساخر كـ (10) هي انتقاد الآخرين والاستخفاف بهم.

تحليل هذا المثال يدفعنا إلى القيام بتمييز خالص بين القواعد الاستدلالية وقواعد التأويل. يتعلق النوع الأول بأنواع الاستدلال جميعها التي توظف في الحجاج، على سبيل المثال الاستدلال الذي يبرر الحجاج المضاد في (10) و(12). أما النوع الثاني، الذي يتداخل بدوره مع النوع الأول، فيسمح بحساب درجة مصداقية التلفظ أو الخطاب وتأويل المقصدية المتضمنة فيه. في قراءة عادية، سيؤول على أنه حجة جادة سيحاول المتحدث أن يبين من خلالها أن وضع الخصم لا يمكن الدفاع عنه. هذا الإثبات المتعاون، إلى حد ما، الذي نجده في  $p$  في الفعل الساخر (10)، سيقراً، بسبب حجة  $q$  القوية، بوصفه مصداقية زائفة وتعاوناً كاذباً، يهدفان إلى فضح الخصم والسخرية منه.

ومن أجل توضيح الضد الاستدلالي، سنضيف مثالاً جيداً للفيلسوف الأرسطوطاليسي نيكولو ليونيكو توميو (Niccolò Leonico Tomeo) (1456 - 1531)، يتحدث فيه عن طاغية يدعي أنه ليبرالي:

(13) انظروا إلى ليبراليته الهائلة. [p] إنه لا يكتفي بتوزيع ممتلكاته فقط، بل ممتلكات الآخرين أيضاً [q]<sup>(1)</sup>.

يتبدى لنا، فوراً، أن الإثبات [p] ما هو إلا حقيقة مضادة، لأنه لا يمكن أن نصف شخصاً يتصرف في أملاك الغير بالكرم والسخاء الليبرالي. وبناء على ما سبق، يمكن أن نلاحظ في المثال المعيار (5) لـ "ديكرو" نوعاً من الدحض. ولكي يتوضح الأمر أكثر، يكفي أن نعيد صياغة دحض صريح، من مثل: لقد قلت (متوقع) أن "بير" لن يحضر، لكنه أتى كما ترى (أطروحتك خاطئة إذن)<sup>(2)</sup>. هذه الإمكانية مستبعدة على ما يبدو، في السخرية الموقفية كما في (8)، وذلك لعدم وجود خصم يدافع عن أطروحة معينة أو يقدم توقعاً.

يمكن للسخرية أن تستفيد أيضاً من عملية استدلالية منطقية معروفة: الاستنتاج الخلفي (modus tollens) التي تستنتج من زيف النتيجة [q] زيف القضية السابقة [p]. (14) عندما أخبر سكان تاراغونا "أوغسطين" أن نخلة قد نمت فوق مذبحه، أجابهم قائلاً: "هذا دليل على أنكم تواظبون على تقديم القرابين". (كيتيلين VI، 3: 77).

لقد كان الرومان يكرمون آلهتهم وأباطرتهم أيضاً، وذلك بالمواظبة على إشعال النيران في المذابح. يمكن توضيح الدحض المتضمن بـ:

(1) انظر كنوكس 1989: 33.

«Consider how great a sway liberality holds over him. Not only does he give away his own things, but also those of others».

انظروا إلى ليبراليته الهائلة. إنه لا يكتفي بتوزيع ممتلكاته فقط، بل ممتلكات الآخرين أيضاً.

المثال مقتبس من Libro del Cortegiano لكاستيليون (B. Castiglione) (1528، 2: 71).

«Pensate quanta liberalità regna in costui, che non solamente dona la robba sua, ma ancor l'altrui».

(2) تجدر الإشارة إلى أن المثال (1) لـ "ويلسون" يتضمن دحضاً ذاتياً: كنت أتوقع لقاء رائعاً، لكنه في حقيقة الأمر كان لقاءً فظيماً (لقد خدعت إذن).

(15) إذا كنتم تواظبون على تقديم القرابين بإشعال النيران في المذابح [p] فلن تنمو أي نخلة [non-p] الشيء الذي يعني أنكم لا تواظبون على تقديم القرابين [non-p] كما ينبغي<sup>(1)</sup>.

بما أننا لم نتناول في هذا المقام سوى المصدرين الأخيرين في فهم السخرية، حسب صيغة "كيتيلين" (ironea aut pronuntiatione intellegitur aut persona aut rei (natura)، بقي لنا أن نضيف التضاد التلفظي الذي يميزه ثبر النطق. هذا التعيين بالنبر ضروري وأساسي، على ما يبدو، إذا لم يكن الضد فورياً أو استدلالياً. إن أي إثبات أو تعجب إيجابي مبدئياً: "ما أروع هذه الخمرة!" أو "كم هو راق!" قابلة لأن تكون موسومة بنبر ساخر. نستطيع، إذن، أن نقرأ التلفظ (16) على أنه تعبير صادق عن فرح، و(17) على أنه تعبير عن الاستياء. (إيفس" 2008: 306):

(16) إنهم لطفاء جداً، هؤلاء الإيسلنديون! (محب جداً)

(17) إنهم لطف-:..... اه جداً، هؤلاء الإيسلنديون! (مزعج!)

لكن في حالة التلفظ الدلالي المحايد (إيفس 2008: 305)، مثل:

(18) إنه يرتدي دوماً حذاءه الريا:!!! ضي! (بغض!) (=استياء)

(19) إنه يرتدي دوماً حذاءه الريا:!!! ضي؟ (رائع!) (=إعجاب)

لا نتحقق القراءة الساخرة إلا بالنبر (19)، وذلك فقط من خلال المصدرين الآخرين للضد، أي من خلال الضد الفوري، و/أو الضد الاستدلالي.

نستخلص، إذن، أن الضد يمكن أن يكون موسوماً بالجهات الحجاجية المتواضع عليها في اللغة. هكذا، فإن جهة "على الأقل" ستكون نحو الخاتمة، في حين أن جهة "لا.. إلا..". ستكون سلبية:

(1) يرى كل من بيرمان وأولبريخت - تيتكا (1970: 365 - 66) في هذا المثال انتقالاً من التأويل الاعتباري إلى التأويل السببي: أوغسطين يؤول الأحداث لا على أساس اعتبارها أحداثاً معجزة، وإنما على أساس كونها نتيجة للإهمال. الشيء الذي يؤكد حضور الطابع الاستدلالي. أنظر تحليلاً مماثلاً في أولبريخت - تيتكا 1974: 239 وما بعدها.



(20) يا له من بذخ! لوسي" تتقاضى على الأقل x يورو.

(21) يا له من بؤس! لوسي" لا تتقاضى إلا x يورو. (بيران" 1996: 212 وما

بعدها)

يتبين، إذن، أنه يكفي استبدال الخواتيم من أجل إنتاج أثر ساخر:

(22) يا له من بؤس! لوسي" تتقاضى على الأقل x يورو.

(23) يا له من بذخ! لوسي" لا تتقاضى إلا x يورو.

لكن، على النقيض مما يذهب إليه "بيران" الذي يلف لف "ديكرو" (1983) بإنكاره أي تأثير يذكر لمعرفتنا الخارج - لسانية والنمذجية، يجب التأكيد على أن الأفعال التجريبية تتضمن السلطة النهائية لما هو بدهي. في واقع الأمر، إذا كنت أعرف أن الأجرة، في شركة معينة، إذا فاقت 30.000 يورو تكون بذلك قد تجاوزت المعدل، سيكون بمقدوري أن أجيب عن تنهد لوسي" المتحسر: آه! إنني لا أنقضى إلا 60.000 يورو. بالصدى التالي:

(24) يا له من بؤس! لوسي" لا تتقاضى إلا 60.000 يورو.

بالمقابل، سيختفي الأثر الساخر إذا استبدلت، وفقاً لهذه الشروط، x في (23) بالرقم المفترض 60.000.

**أشكال أخرى للدحض: الاعتراضات والبرهان بالغلف (ad absurdum) والمغالطة**

**الشككية (ad hominem)**

بما أن الضد الاستدلالي غني ومتنوع من وجهة نظر حجاجية، كان من اللازم أن نحيط بأشكال أخرى من الدحض تتضمن السخرية. إذ تميز البلاغة والجدلية، منذ أرسطو، شكلاً آخر من الدحض إلى جانب الهجوم المضاد: الاعتراض، ويقتضي التلفظ بـ "رأي يوضح أنه لم تتم الاستعانة بحجة مـ" أنه تم الانطلاق من مقدمة مغلوطة. (أرسطو) (Aristote)، الخطابة، 2: 26، 28 a1403).

هكذا، ففي:

(25) من الحق أن يكون لـ 'ي' يجب الأفارقة. [q]، الدليل: زيارته لإحدى البلدان الإفريقية. [p] (بران' 1996: 205).

الحجة p أضعف من أن تدعم الأطروحة q. لنوضح هذا الاعتراض بـ:-

(26) (عن لـ 'ي' ونسطائه) لـ 'ي' يجب الأفارقة بما أنه يزورهم - من غير المنطقي، إذن، أن نستخلص من  $\langle x \text{ يزور } y \rangle$  أن  $\langle x \text{ يجب } y \rangle$  وذلك لأن  $\langle \text{إذا زار } y \text{ } x \text{ فإن } x \text{ يجب } y \rangle$  ليس تضميناً مناسباً.

نفس الشيء نجده في كلمة 'ولنسكي' (Wolinski):

(27) يجب تحسين وضعية المرأة، لقد أصبحت المطايخ صغيرة جداً، والمغاسل منخفضة جداً، ومقابض الطناجر لا تعزل الحرارة بشكل جيد.

تبدو الحجج التي ساقها 'ولنسكي' واهية، بل هي غير كافية من أجل تبرير مطالبه. هناك عملية إدحاضية أخرى لا تقل أهمية، إنها البرهان بالخلف (reductio ad absurdum) الذي يؤكد أن أطروحة الخصم واهية، بل لا يمكن الدفاع عنها، وذلك لكونها تخلص إلى نتيجة غير منطقية، أو لأنها تفترض شرطاً غير قابل للتحقق. لننتقل من مثال لـ 'فرويد' (Freud)، اقتبسنا منه الاستدلال الآتي:

(28) وهو ينتزه ممتطياً حصانه، صادف الدوق 'شارل دي فوتنبرغ' في طريقه صباغاً يزاوّل حرفته، فصاح فيه قائلاً: 'هل يمكنك أن تصبغ حصاني الأبيض باللون الأزرق؟' فأجابه الصباغ: 'بالطبع سيدي، شريطة أن يتحمل حصانك الغليان!'. (141 - 42).

(29) لا أستطيع أن ألبس طلبك، لأن: وحده الشيء القادر على تحمل الغليان يستطيع أن يصبغ - وبما أن الحصان لن يستطيع بالطبع تحمل الغليان، فمن غير المنطقي القيام بصباغته.

بالنسبة لـ أولبريخت - تيتيكا (Olbrechts-Tyteca) (1974: 176)، نستطيع الإجابة عن السؤال باستعمال أجل، شريطة أن... أو لا، إلا إذا...، لكنها تشير إلى كون هذين النوعين من الإجابة ليسا متعادلين تماماً، فالنوع الأول يثير الضحك أكثر من النوع

الثاني، حينما يكون الشرط غير قابل للتحقق. "لن نستطيع أن نسائل هذا الإثبات، ولكن ألا يمكن أن يكمن وراء اعتبار النوع الأول وحده فعلاً ساخراً اختلافٌ جوهري ما؟<sup>(1)</sup> في واقع الأمر، يبين تحليل المثال (10) أن التعاون الإثباتي مع الخصم - الذي يظهر أنه تعاون زائف - شرط أساس لكل سخرية. لهذا السبب، كان استدلال فولتير (Voltaire) بغير المنطقي، هازئاً بنظرية روسو، غير مثير للسخرية البتة.

لقد أفرطت بعض المزرع الثقيلة في الاعتداء على الروح، إلى حد أنها جازفت باختلاق مفارقة صارخة مفادها أن الإنسان قد خُلِق في الأصل كي يعيش وحيداً كوشق، وأن المجتمع قد أفسد الطبيعة. ألا يمكن القول، إذن، إن أسماك الرنجة قد خلقت لتسبح بانفراد في البحر؟ وبسبب انتشار الفساد قطعت القوات العسكرية البحر القطبي لتحيط بشواطئنا، هناك حيث كانت طيور الكركي تطير وتحوم إلى أن قررت أن تهجر أسراباً بسبب انتهاك القانون الطبيعي؟ (فولتير، 1829: 241).

من أجل اختلاق السخرية، يجب أن تتواطأ مع "روسو"، كما في المثال الآتي:

(30) إنها فكرة رائعة وعقلانية تلك التي ترى أن الإنسان، هذا الكائن الفريد في العالم بأسره، قد خُلِق في الأصل كي يعيش وحيداً، إلا أن المجتمع أفسد الطبيعة! ألا يمكن القول إن أسماك الرنجة قد خلقت في الأصل كي تسبح بانفراد في البحر؟ وبسبب انتشار الفساد قطعت القوات العسكرية البحر القطبي لتحيط بشواطئنا، هناك...؟

(1) يرى فرويد (1992) في استعمال (نعم) عوض (لا) سمة أساسية لتقنية مهمة من تقنيات النكتة: في هذه نوعية ستارة إلى المرسل - الذي يجب عن طلب سخيض بوضع شرط مستحيل التحقق - عامل آخر لن يكون بمقدوره التحوّل. كانت إجابة الصباغ: لا، سيدي. أخشى ألا يستطيع الحصان تحمل الغليان (141). هذا الاستبدال - لا - هو يؤسس لتقنية جديدة للنكتة (144). ويدعو فرويد هذه التقنية التمثيل غير المباشر بواسطة الضمّة واحدة للحرية حسب فرويد، جزءاً من أشكال التمثيل. (المرجع نفسه، 149 وما يليها).

إذا كان هذا البرهان بالخلف يبنى على التناقض<sup>(1)</sup>، فالمثال التالي يتضمن حجة تداولية:

(31) (الأطروحة) يجب تنبيه الراجلين، لأنه إذا ما تم منع السيارات ذات الدفع الرباعي، فقريباً سيتم حظر الدراجات النارية والكوادات، ثم حظر الأحصنة، ومن بعدها الدراجات الهوائية، ثم الممارسين لرياضة الركض، وأخيراً الراجلين! (نقيض الأطروحة) هكذا إذن! يجب على الراجلين أن يوقعوا عريضةً من أجل تشجيع هواية ركوب وسائل النقل في المناطق الطبيعية، وذلك لكونها لا تسبب في التلوث!<sup>(2)</sup>.

تخلص اللامنتقية ها هنا إلى نتيجة لا منطقية للأطروحة. نجد الأمر نفسه في المثال الآتي، حيث أطروحة الملك متضمنة للتعجبات الآتية:

(32) بعد أن زار الملك غرفة العمليات في المستشفى على سبيل التكريم، وجد الطبيب الجراحَ منهمكاً في القيام بعملية بتر لساق. طفق الملك يعبر، بصوت عالٍ، عن غبطته الملكية، مكللاً كل مرحلة من مراحل العملية باللازمة: "رائع، رائع يا عزيزي الطبيب." وبعد أن انتهت العملية، اقترب الطبيب من الملك، وانحنى له في إجلال قائلاً: "جلالة الملك، هل تأمروني بتر الساق الأخرى؟" (فرويد" 1992: 148).

هذا المثال، على ما يبدو، قائم على حجة اللامنتقي الساخر، وذلك لكون الطبيب الجراح يتظاهر بالتعاون مع الملك، إذ خذله في النهاية لكونه قد أشار إلى أن سلوك الملك يستحق التقرير، لأن ذلك التعاون الزائف يتضمن نتيجة لا منطقية. باختصار: الحجة باللامنتقي المتضمن تكشف أن السؤال التقريري "ما هو في واقع الأمر إلا تقرير.

(1) البنية المنطقية لهذا الشكل من البرهان بالخلف هي كالتالي: <إذا كان من اللامنتقي أن نطبق مسنداً P في مجال مقارنة C فيكون من اللامنتقي أيضاً تطبيقه في المجال الموضوعاتي T قيد المسألة>. وهناك بنية مغايرة أخرى أكثر دقة، وهي: <لا نطبق أكثر من مسند P في مجال مقارنة C، ما لم يكن في المجال T قيد المسألة>. المجال T (الموضوعاتي) يحيل هنا على العالم.

(2) هذا المثال مستقى من المنتدى: [forum.velovert.com/lofiversion/index.php/t61111.html](http://forum.velovert.com/lofiversion/index.php/t61111.html)

إلا أن هذا التكتّم الشفيف يبدو غائباً بالمرّة في النوع الأخير من الدحض، وهو حجج المغالطة الشكلية (ad hominem). لنعد إلى (7) الذي يظهر فيه غياب السلبية للوهلة الأولى:

المضيفة لضيفها: أتعلم أيها الصديق العزيز؟ إننا نتمتع بحياة زوجية سعيدة، لهذا فنحن نحاول، نكاية في التصورات المعاصرة حول الأسرة، تقديم صورة حقيقة غير صدامية عن السعادة الزوجية لأطفالنا، وإذا ما حدث وتجادلنا، فإننا نرسل أطفالنا إلى الحديقة. [p] بعد مرور نصف ساعة عاد الأطفال إلى البيت، وبعد أن رأهم الضيف علّق قائلاً: يتمتع أطفالك ببشرة سمراء مدبوغة!

لكن إذا تأملنا المثال، يمكننا أن نستشف حضور الاستنتاج الخلفي: لو كنت تقولين الحقيقة، لما كان أطفالك سمر البشرة<sup>(1)</sup>. لكن يجب التأكيد على اختلاف جوهرى: فعلى العكس من سخرية أوغسطين<sup>(14)</sup>، لا يعبر التلفظ الساخر هنا عن حقيقة مضادة فورية، لكون الأطفال سمر البشرة بالفعل. إنه يتعارض مع أطروحة المضيفة التي تدعي ندرة الخلافات الزوجية بينها وبين زوجها، من أجل أن يظهر لنا التناقض الحاصل بين أقوالها وأفعالها. بتعبير آخر: يتعلق الأمر بمغالطة شكلية تضع مصداقية المتلفظ موضع شك.

مثال آخر، ناقشه كل من "هاماموتو" (Hamamoto) (1998) و"سبيربر" (Sperber) و"ويلسون" (Wilson) (1998) يعود على زوجين ناشطين يدافعان عن البيئة، ويقضيان أغلب أوقاتها خارج البيت. إلا أن ابنتهما "جيرو" احتجّ على هذا الوضع قائلاً:

Our home is an environment (33) بيتنا وسط طبيعي

بالنسبة لـ "هاماموتو" (1998: 261)، اعتبار هذا التلفظ ساخراً يتعارض مع نظرية الصدى لـ "سبيربر" و"ويلسون":

ينأى المتكلم بنفسه عن وضعية أو حالة معينة، لا عن رأي تردد في سمعه.  
لنلقِ نظرة على مقطع من دراسة لـ "سبيربر" و"ويلسون" (1998: 288 - 9):

<sup>(1)</sup> إذا كان هذا التحليل صائباً فسيكون من الصعب تأويل كلام المتلفظ على أنه صوت التحدث (صوت المضيفة في هذه الحالة) المختلف عن صوت المتكلم. ألن يكون من التنافر، بل من السخافة، أن تقول كلاماً يتناقض مع نفسها؟

نحاول أن نثبت أن التحليل الكامل لهذا المثال سيكشف عن بعد محاكاتي رفيع، و هذا مكن السخرية. يجدر بالدي "جيرو" التسليم بكون بيتهما يشكل بيئة، (لهذا يجب عليهما الاعتناء به) رغم أن هما ذلك. إن "جيرو" يحاكي بطريقة موفقة فكرة يجب أن تكون لدى والديه، بناء على ذلك فهو ينأى بنفسه، مع مزيج من السخرية والتبكيك والأسى، ليس بمحاكاة الفكرة بطريقة مباشرة؛ لكن بافتراض ضمني، مفاده أن والديه لديهما هذه الفكرة. إعادة الصياغة هذه سوفسطائية بما فيه الكفاية، لأننا، إن فهمنا هذا الاستدلال المنطقي، سيكون الصدى رايأ جيداً >يجب على والدي أن يعرفا أن بيتنا وسط طبيعي أيضاً. لكنهما لن يفعلا<، إلا أن "جيرو" لا يتخلى عن رأيه، وإنما عن الافتراض المتضمن "كون والديه يعتقدان أن بيتهما يشكل وسطاً طبيعياً بالفعل. وعلى الرغم من أننا لن نستطيع اتباع هذا التحليل، إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن "سيربر" و"ويلسون"، في استدلالهما المنطقي، يلجآن إلى بنيات استدلالية وحجاجية، لكنهما لا يأخذانها بعين الاعتبار في نظريتهما عن السخرية. وفي حالة إن اعتبرناها، سيكون علينا أن نحلل تلفظ "جيرو" (33) على أنه مغالطة شكلية قد تتخذ الشكل الآتي:

(34) يدافع والدي عن الوسط الطبيعي، شأنهما في ذلك شأن جميع النشطاء البيئيين، إلا أن أقوالهما لا تطابق أفعالهما في الواقع، وذلك لكونهما لا يحترمان الوسط الطبيعي الأهم بالنسبة لنا، وهو البيت الأسري، الشيء الذي يدعو إلى الأسف، بله إلى الانتقاد<sup>(1)</sup>.

(1) إذا كان (33) لا يتضمن فعلاً ساخرًا في حالة إن لم يكن الوالدان ناشطين بيئيين، فلن يرد هنا احتمال اعتبار هذه السخرية مغالطة شكلية.

## الفعل الساخر: التكتّم الشفيف

أثناء تحليلنا لأشكال التضاد المتضمن في الأفعال الساخرة، قمنا بتحديد بعض المظاهر الأساس للسخرية. يتمثل المظهر الأول في حضور التضاد بطريقة مباشرة وتصريحية، أو بطريقة استدلالية غير مباشرة، وذلك حسب نوع الدحض الموظف أو النبر الساخر. زيادة على ذلك، بما أن الأمثلة جميعها التي قمنا بتحليلها إلى حد الآن يتمظهر فيها البعد الساخر، نستطيع أن نفهم أن التضاد بمعناه الأخلاقي الجمالي، بوصفه انتقاداً لسلوك معين أو رأي ما أو مكان ما، يمكن أن يصل إلى إحداث نوع من المباعدة الممزوجة بشيء من الأسف أو التقرّيع المشحون بالاتهام. يمكننا القول، إذن، وفقاً للنظرية الكلاسيكية، إن السخرية نوع من الصدى<sup>(1)</sup> (écho) يعود على سلوك اجتماعي يمكن أن يُنتقد، هذا الانتقاد غالباً ما يكون انتقاداً هداماً لكونه لا يوجه ضحية الفعل الساخر إلى أي وجهة بناءة - الشيء الذي يفسر اعتبار هيجل<sup>(2)</sup> (Hegel) السخرية شكلاً من أشكال السلبية المجردة الخالصة. (إيفس 1997: 422، 427 وما بعدها).

أما المظهر الأساس الثاني، فيتمثل في التكتّم الشفيف. كومون ناكومارا<sup>(3)</sup> (Kumon-Nakumura) وآخرون (2007: 61) يشيرون إلى أن السخرية تتضمن نفاقاً تداولياً من لدن المتحدث:

‘بنيني اقتراحنا على كون أنواع السخرية جميعها تتضمن نفاقاً تداولياً، إنها بذلك تحرق مبدأ من مبادئ أفعال الكلام’.

لقد قمنا أنا أيضاً، باتباعنا كييركيغراد<sup>(4)</sup> (Kierkegaard) (يجب ألا نحمل هذه الجدية محمل الجد) بدعم هذا المظهر، وذلك بالإشارة إلى أن شروط المصادقية المتضمنة بـ /في أي فعل كلامي تفترض فوق - تعاقد حول المصادقية الضرورية لكل عشيرة تواصلية

(1) استعملت هذا اللفظ لنين أن سبيرير وويلسون (1978، 1998) يقتريان من مقاربة البلاغة القديمة للسخرية في مقارباتهما لأشكال الصدى.

(إيغس: 1979، 420 وما بعدها)<sup>(1)</sup> بناء على ما سبق، يجب أن نميز النفاق الساخر عن نفاق الكذاب الذي يحاول إخفاء ذلك النفاق، في حين أن الساخر يقوم بإظهاره، وذلك بتوظيف مصادر التضاد المناسبة التي تسم فعله الكلامي بالمصدقية والنفاق في الآن ذاته. وعلى المستوى المحادثي والتفاعلي، يتمظهر النفاق على شكل تعاون<sup>(2)</sup> زائف مع ضحية الفعل الساخر. الشيء الذي يدل على غياب التماثل في التعاون، مما يدفعنا إلى أن نستبعد الأمثلة ك (35) المتلفظ به في سياق محايد، عن حقل السخرية:

(35) "حياتك جحيم"، يقول الرجل لصديقه الذي ذهب في رحلة استجمام مدفوعة الأجر إلى جزر الكاريبي. (ميرسييه-ليكا) (Mercier-Leca) 2003: 79

لا يتضمن هذا النوع من التلفظ سوى جملة مضادة سلبية يمكن أن تؤول على أنها فعل تهكمي<sup>(3)</sup>. لكن إذا ما حدث واشتكى الصديق قبل مغادرته بوصفه حياته على أنها جحيم، سيفهم التلفظ (35) على أنه فعل ساخر، بما أن المتحدث يتعاون مع صديقه. في هذه الحالة، "نعم"، حياتك جحيم ليست تقريراً وإنما مجرد تكرار توافقي ومتعاون يمثل نوعاً من المدح.

(1) لهذا السبب تختلف نظرية 'غرايس' (Grice) (1979: 61) (مبدأ الملاءمة: لتكن مداخلتك صادقة) عن باقي القواعد جوهرياً - الكم والعلاقة والكيف - لتذكر أن السخرية، بالنسبة لـ 'غرايس'، ليست وحدها التي تخرق مبدأ الكيف، بل الاستعارة أيضاً. إلا أن بإمكان المستعمل افتراض أن القاعدة موضوع المساءلة، بل أيضا ال-CP (مبدأ التعاون) يُحترمان على مستوى ما هو متضمن<sup>(66)</sup>. ومن أجل توضيح الفرق الجوهرى القائم بين قاعدة الكيف وباقي القواعد الأخرى، نعتقد أنه يكفي استحضار مثال 'غرايس':

أ- على ما يبدو، فإن سميث ليس له صديقة الآن.

ب- لكنه يتردد على نيويورك هذه الأيام.

إذا افترضنا أن المتكلم ب يحترم قاعدة العلاقة، فسيكون إثباته يضمن أن سميث قد تكون له صديقة في نيويورك<sup>(66)</sup>.

(2) تجدر الإشارة إلى أن المسند يكون إيجابياً في هذا النوع من السخرية، حيث لا يشار إلى الضد إلا بالنبر.

(3) تعارض ميرسييه-ليكا (Mercier-Leca) (2003: 79) القراءة التي قدمها كل من 'ديوز' (Dews) و'وينر' (Winner) (1991) الذين يريان في (35) سخرية إيجابية توسل التوبيخ والتفريع من أجل المدح (الشيء الذي يؤدي إلى إدخال الجملة المضادة 'حياتك جحيم' التي تحمل معنى أنك تعيش حياة الرفاهية) في مقابل ذلك، ترى ميرسييه-ليكا أنها سخرية حقيقية يحاول من خلالها المتكلم أن يقدم درساً في التواضع: كُف عن تبذير ثرواتك، إنه تصرف غير لائق.

(79).



بناءً عليه، فإن الجملة المضادة السلبية (التقريع من أجل المدح) لن تستعمل بوصفها سخرية إلا إذا كانت لتلك الجملة المضادة استعمالاً إيجابياً معياراً في عشرة لغوية ما، حينها يمكن أن تحمّل بمقصدية ساخرة. هذا الوضع شبيه، على ما نظن، بوضع الزوجة التي تلفظت بالملفوظ التالي:

(36) إنك غير مطيع (You're so naughty)

وقد توجهت بحديثها إلى زوجها الذي أحضر لها هدية باهظة الثمن على الرغم من أنه وعدها بعدم تبذير المال في الهدايا - أنظر "هاماموتو" (1998) و"سبيربر" و"ويلسون" (1998): 288.

إلا أنه يجب استبعاد الحجج الجدالية المتضمنة في حقل السخرية. في المثال الآتي لبروست<sup>(1)</sup> (Proust) الذي استشهد به "دوفال" (Duval) (2004: 42) لا يوجد أي تباين أو نفاق، لأن "شارلوس" يقول للسيدة "دو فيردورين" عما عن له في ذهنه بوضوح وبدون التباس<sup>(1)</sup>:

قل لي إذن يا "شارلوس"، قالت السيدة "دو فيردورين" التي بدا أنها بدأت تألف المكان، أليس في ضاحيتك نبيلاً مفلساً يمكن أن يعمل حارساً عندي؟ - أجل، طبعاً.. أجاب السيد "دو شارلوس" مبتسماً، إلا أنني لا أنصحك بذلك - لماذا؟ - أخشى ألا يجتاز ضيوفك من الطبقة الراقية عتبة الباب.

إن تصور السخرية نفاقاً شفيفاً يسمح لنا بتحليل السخرية المبالغ فيها بطريقة منسجمة (كومون - ناكومارو" وآخرون 2007: 72 وما بعدها). في الواقع، أن تقول أنت رائع! أو يا لها من ملاحظة بارعة! يقتضي حكماً منافقاً إذا كانت القدرات العقلية للمتحدث إليه ناقصة: يجب أن نقيم الأشخاص وفق قيمتهم الحقيقية. لقد انتقد انتهاك هذه نقاعة في السخرية التالية:

تفقد صاحب أحد مطاعم الدرجة الثانية زبونه ليقيس مدى رضاه عن توجية "طباخنا"، يقول، "هو الطباخ السابق للملك السويد. أما الساقى، فقد كان نحوق خصري

(1) بالنسبة لـ "دوفال" (Duval) (2004: 42)، يوظف "شارل" ملفوظات ذات معانٍ متضادة محبة - محبة -

للملك فاروق - 'همم.. - 'كلبك جميل! أردف صاحب المطعم الذي أحبطته لا مبالاة الزبون - 'إنه من نوع البسيت، أليس كذلك؟' - 'لا، إنه القديس 'برنارد' سابقاً (أولبريخت - 'تينكا' 1974: 180).

لقد تعاون الزبون مع صاحب المطعم، كما خذله في النهاية بسبب مبالغته، وذلك بتوظيفه التضاد الفوري لكون سلوك صاحب المطعم يقتضي التقرير.

بقي لنا المضحك (ridiculum)، إنه كما يبدو لنا، ملازم للسخرية، لكنه ليس ضرورياً لتحقيق فعل ساخر. 'بيرلمان' (Perelman) وأولبريخت - 'تينكا' (1970: 276) يريان أن المضحك يتولد عن التضاد: 'يكون الإثبات مضحكاً ما إن يدخل في صراع غير مبرر مع رأي مقبول. يكون مضحكاً كل ما ناقض المنطق أو خدعه ملفوظ الفعل'.

'ويرى فرويد' أيضاً أن التضاد، أو على وجه التدقيق النكت المنبئية على استدلالات منطقية مغلوطة، اللامعنى، أو التمثيل بالتضاد (الذي يميز السخرية) يعدّ باعثاً على الاستمتاع والضحك، فإذا كان الطفل يجد 'متعته في جاذبية ما منعه المنطق' ويستعمل التلاعب اللساني باللامعنى من أجل التخفيف من إكراه المنطق الانتقادي، فإن الإنسان البالغ قد حذف هذه أمتعته التي يقدمها اللامعنى التي 'يخفيها في المواقف الجادة إلى حد الاختفاء' (1992: 235 - 36)، إلا أن متعة اللامعنى المتحررة 'befreiten' Lustam [Unsinn] دائماً ما تشق طريقها من خلال النكت والطرائق التي تتلاعب بالاستدلالات اللامنتطقية أو بالتمثيلات الضدية. وبما أن هذا التوظيف للامعنى يمكن أن يحدد على أنه وسيلة لاستعادة حريات قديمة أو للتخفيف عن ضغوطات الدراسة الفكرية (239)، فإنه يسهم أيضاً في الاقتصاد الذي يمارس على مستوى تصريف الكبح والكبت [Ersparung an Hemmungsoder Unterdrückungsaufwand] هذا الاقتصاد يحتوي على 'سر إنتاج لأثر الممتع للنكتة'. (226). (إيفس' 2003).

هذا ألتطلع إلى الاقتصاد الذي يعد أهم خاصية للنكتة (1992: 102) يظهر في الطابع الاختصاري للنكتة وفي الفعل الساخر، الشيء الذي يفسر، كما تشير أولبريخت -

تيتكا (1974: 38) كون كل إيضاح للنكتة أو للمسة ساخرة ما سينسف فعل الإضحاك. وتؤكد هذا الطرح بالمثال التالي:

سأل موظف تأمين راعي بقر إن سبق له وتعرض لحادث. لا أجاوب، ثم أردف قائلاً: "تسبب حصان في كسر أضلاعي ما يربو عن ستين، كما تعرضت للدغة ثعبان".

أ- أليست تلك بمجواث؟

ب- لا.. لأنها كانت عن سبق إصرار وترصد.

يختفي الأثر المضحك في هذه القصة عندما تسترسل أولبريخت - تيتكا في الشرح: لا، فما سمعته منك لا يندرج ضمن الحوادث حسب ما أعتقد، قد لا أكون على صواب، لكنني لا أدخل في خانة الحوادث إلا تلك التي وقعت دون تدخل أي إرادة، سواء كانت لإنسان أو لحيوان." (نفسه: 39).

أوجب، إذن، أن نعلل حصولنا على النتيجة نفسها إذا ما حولنا إجابة موظف التأمين إلى سخرية (عبر برهان بالخلف)؟

(37) هكذا إذن! تلك الحوادث كانت متعمدة!

إذا سلمنا أن كل سخرية تتميز بسلبية نقدية (قد تكون واهنة)، ينبغي أن نسلم أيضاً بكونها حجاجية:  $x > \text{أنجز } z$ ، بما أن  $z$  يمثل شيئاً لا يمكن إنجازه بحسب المعايير المتواضع عليها في المعرفة النموذجية، سيكون  $x$  موضع انتقاد<sup>(1)</sup> الشيء الذي يجعل من الحجاج الساخر غير قابل للتحقق إلا في الأوضاع التي تحترم هذا السيناريو<sup>(2)</sup>. إلا أن الاسترسال في التوضيح، على ما يبدو، يحو أي خصوصية للحجاج الساخر. وتتضمن هذه الخصوصية، كما حددنا ذلك في ما سميناه التكتّم الشفيف، عملية تتميز باحتوائها على أشكال للتضاد (كما تحتوي جزئياً على المضحك) محددة بدقة. إن التنظيم النوعي لهذه العناصر في الحجاج الساخر الذي ينتج الأثر الإقناعي، أو بتعبير آخر، إن المظاهر البلاغية هي التي تشكل الحجاج النوعي، إذ تتضمن هذه المظاهر أشكالاً أسلوبية بلاغية مستبطنة في البنيات الحجاجية (أشكال الدحض، البرهان بالخلف..)، كما تسمح لنا قواعد التأويل بقراءة التلفظ الساخر بوصفه نفاقاً زائفاً.

في نهاية المطاف، هل يمكن اعتبار السخرية "حجاجاً غير مباشر" (بيرلمان وأولبريخت - تيتكا (1974: 279)) إن اعتبرنا الأمر كذلك، ستكون الكلفة باهظة لأننا لن نستطيع تمييز الحجاج الساخر عن باقي أشكال الحجاج غير المباشرة التي لا تنتهك مبدأ الملاءمة صراحةً، ومن أجل تقديم بديل عما جاء به "جانكيليفيتش"، يمكن القول إن السخرية تقوم على النفاق التداولي من أجل أن تساعد على إفهام الجدل المحمّلة به. لهذا السبب كان لزاماً على الحجاج الساخر أن يتضمن شكلاً حجاجياً فريداً من نوعه (sui generis).

(1) قد يكون  $z$  فعلاً فردياً، أو رأياً، أو معياراً.. إلخ. أما  $x$ ، ضحية السخرية، فقد تكون المستعمل، أو المتكلم، أو مؤسسة أو تجمع اجتماعي.

(2) بالنسبة ليرلمان وأولبريخت-تيتكا (1970: 280) يمكن استعمال السخرية في جميع الوضعيات الحجاجية.

## تراجيم الاعلام

- أولبريخت - تيتكا، لوسي (Lucie Olbrechts-Tyteca): ولدت سنة 1899 ببروكسيل. درست العلوم الإنسانية والمناهج الاجتماعية في الجامعة الحرة ببروكسيل. أستاذة جامعية بلجيكية قامت بأبحاث مشغلة مع الباحث "شايم بيرلمان" في إطار البلاغة الجديدة (من 1948 إلى 1984). من مؤلفاتها: الخطاب 1974.
- إيغس، إيكهارد (Eggs Ekkehard): أستاذ جامعي يدرس اللغة الفرنسية بجامعة هانوفر، بألمانيا (سنة 1992)، متخصص في اللغات والآداب الرومانية. من مؤلفاته: "نحو الخطاب الحجاجي والخطاب الاستعاري والخطاب التوليدي والخطاب المجازي".
- بيرلمان، شايم (Perelman Chaïm): ولد بفارسوفيا سنة 1912، وهاجر إلى بلجيكا سنة 1925. "يعتبر شايم بيرلمان" مؤسس ما يسمى بالبلاغة الجديدة. شغل منصب أستاذ جامعي بالجامعة الحرة ببروكسيل إلى سنة 1978. بعدها انتقل إلى تدريس المنطق وعلم الأخلاق والميتافيزيقا. تتوزع اهتماماته مجال القانون والبلاغة والحجاج. توفي سنة 1984.
- ديكرو، أوزفالد (Oswald Ducrot): ولد سنة 1930. لسانني فرنسي. من أبرز المساهمين في التداوليات والحجاج ونظرية التلغظ. اشترك مع "جون-كلود أنسكومبر" في دراسة الخطاب الحجاجي وعلاقة اللغة الطبيعية بالعالم. من أعماله: المعجم الموسوعي في علوم اللغة باشتراك مع "جون-ماري" 1972.
- مسيربر، دان (Dan Sperber): ابن الكاتب "مانيس سبيربر" (Manès Sperber). ولد سنة 1942. أنثروبولوجي فرنسي ولساني وباحث في العلوم المعرفية. يشغل حالياً منصب مدير أبحاث بمعهد "جون نيكود" (Institut Jean-Nicod - CNRS) ومنصب أستاذ جامعي في شعبة العلوم المعرفية والفلسفة في المركز الأوروبي الجامعي في بودابست. انصبت أبحاثه على التداوليات، كما قام بدراسات مشتركة مع الباحثة "ديدرية ويلسون". حاز على جائزة "كلود ليفي ستراوس" سنة 2009.

- غرايس، بول هيربرت (Paul Herbert Grice): فيلسوف لغة بريطاني. ولد في 13 مارس 1913 ببيرمينغهام في إنجلترا، وتوفي في 28 غشت 1988 بباركلي في كاليفورنيا. بدأ دراساته في بريطانيا، لكنه أمضى العشرين سنة الأخيرة من حياته في الولايات المتحدة الأمريكية. اهتمت جلّ دراساته بالبعد التخاطبي والتداولي للغة.
- جانكيليفيتش، فلاديمير (Vladimir Jankélévitch): فيلسوف وعالم موسيقى فرنسي. ولد ببورجيه في 31 غشت 1903، وتوفي بباريس في 06 يونيو 1985.
- كيتيليان، ماركوس فابيوس (Marcus Fabius Quintilianus): محام شهير، وأستاذ وكاتب وبلاغي لاتيني. ولد سنة 42 ميلادية في المدينة الإسبانية الصغيرة كالاغوريس. فتح مدرسة لتدريس البلاغة وفنون الخطابة والحجاج بروما.
- وينير، إيلين (Ellen Winner): أستاذة علم النفس بمعهد بوسطن ورئيسة الأبحاث العلمية بمعهد هارفرد للتربية والتعليم. حازت على شهادة الدكتوراه من جامعة هارفرد سنة 1978. قامت بدراسات مشتركة مع "روجيه براون" حول استعارات الأطفال. حررت أزيد من مائة مقال وأربعة كتب.
- ميرسييه- ليكا، فلورانس (Florence Mercier- Leca) : باحثة لسانية فرنسية ورئيسة قسم المحاضرات بجامعة باريس IV السوربون. من أعمالها: المناظرة، السخرية، 30 سؤالاً عن النحو الفرنسي..
- مولينييه، جورج (Georges Mouliné): ولد في 28 دجنبر 1944 بكاهورس. فيلولوجي فرنسي وأستاذ جامعي بجامعة باريس IV السوربون. متخصص في الأسلوبية والسميائيات.

## لائحة المصادر والمراجع

- Amossy, Ruth. 2003. «Les fonctions argumentatives de l'ironie balzacienne», Bordas, Eric (éd.). Les ironies balzaciennes (Saint-Cyr sur Loire: Piro), 143-154
- Aristote. 1967. Rhétorique. Livre II. M. Dufour éd. (Paris: Les Belles Lettres)
- Berrendonner, Alain. 1981. «De l'ironie», Eléments de pragmatique linguistique (Paris: Minuit), 173-239
- Carston, Robin & Seiji Uchida (eds) 1998. Relevance Theory: Applications and Implications (Amsterdam: John Benjamins)
- Castiglione, Baltasare. 1528. Il libro del Cortigiano (édit. de 1965) (Torino: Einaudi). Par Internet: [www.letteraturaitaliana.net/pdf/Volume\\_4/t84.pdf](http://www.letteraturaitaliana.net/pdf/Volume_4/t84.pdf)
- Dews, Shelley & Ellen Winner. 1999. «Obligatory Processing of the Literal and the Nonliteral Meanings of Ironic Utterances», Journal of Pragmatics 31, 1579-1599
- Ducrot, Oswald. 1983 «Opérateurs argumentatifs et visée argumentative», Cahiers de linguistique française 4, 143-1
- Ducrot, Oswald. 1984. Le Dire et le dit (Paris: Minuit)
- Dumarsais. 1730, Des tropes, éd. F. Douay-Soublin (Paris: Flammarion)
- Duval, Sophie. 2004. L'ironie proustienne. La vision stéréoscopique (Paris: Champion)
- Eggs, Ekkehard. 1979 «Eine Form des 'uneigentlichen' Sprechens: die Ironie», Folia Linguistica, 413-435
- Eggs, Ekkehard. 2001. «Metapher», Ueding, Gert (éd.). Historisches Wörterbuch der Rhetorik (Tübingen: Niemeyer), 1099-1183

- Eggs, Ekkehard. 2003. «Comprendre les mots d'esprit: une lecture épistémologique de Freud», Zaccai-
- Reyners, N. (éd.), Explication - Compréhension. Regards sur les sources et l'actualité d'une controverse épistémologique (Bruxelles: Editions de l'Université de Bruxelles), 151-183
- Eggs, Ekkehard. 2008, «Le pathos dans le discours – exclamation, reproche, ironie», Rinn, Michael (éd.). Emotions et discours. L'usage des passions dans le discours (Rennes: PUR), 291-320
- Fontanier, Pierre. 1830. Les figures du discours (édit. Paris: Flammarion 1968)
- Freud, Sigmund. 1992. Le mot d'esprit et sa relation à l'inconscient, trad. par Denis Messier (Paris: Gallimard) (éd. allem. 1905)
- Gibbs, Raymond W. & Herbert L. Colston (eds). 2007. Irony in Language and Thought (New York: Erlbaum)
- Grice, Herbert P. 1979. «Logique et conversation», Communications 30, 57-72 Hamamoto, Hideki. 1998. "Irony from a Cognitive Perspective", Carston & Uchida, 257-270
- Jankélévitch, Vladimir. 1950. L'ironie ou la bonne conscience (Paris: PUF)
- Kihara, Yoshihiko. 2005. «The Mental Structure of Verbal Irony», Cognitive Linguistics 16, 513-520
- Knox, Dilwyn. 1998. Ironia: Medieval and Renaissance Ideas on Irony (Leiden: Brill)
- Kumon-Nakamura, Sachi, Sam Glucksberg, Mary Brown. 2007. «How About Another Piece of Pie: The Allusional Pretense Theory of Discourse Irony», Gibbs & Colston, 57-95
- Le Guern, M., 1976, «Éléments pour une histoire de la notion d'ironie», Linguistique et sémiologie 2, 47-59



- Mercier-Leca, Florence. 2003. L'ironie (Paris: Hachette)
- Molinié, Georges. 1992. Dictionnaire de rhétorique (Paris: Librairie Générale Française)
- Olbrechts-Tyteca, Lucie. 1974. Le comique du discours (Bruxelles: Editions de l'Université de Bruxelles)
- Perelman, Chaim et Lucie Olbrechts-Tyteca. 1970. Traité de l'argumentation. La nouvelle rhétorique (Bruxelles: Editions de l'Institut de Sociologie, ULB)
- Perrin, Laurent. 1996. L'ironie mise en trope: du sens des énoncés hyperboliques et ironiques, (Paris: Kimé).
- Quintilien (Marcus Fabius Quintilianus). 1972. Institutionis oratoriae, libri XII, éd. et trad. allemande
- de H. Rahn (Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgemeinschaft)
- Sperber, Dan and Deirdre Wilson. 1998. «Irony and Relevance: A reply to Seto, Hamamoto and Yamanashi», Carston & Uchida, 283-293.
- Sperber, Dan and Deirdre Wilson. 1978, «Les ironies comme mentions», Poétique 36, 399–412.
- Voltaire. 1829. Dictionnaire Philosophique, M. Beuchot éd. (Paris: Lequien Fils)
- Wilson Wilson, Deirdre. 2006. «The Pragmatics of Verbal Irony: Echo or Pretence?», Lingua 116, 1722-1743



## ثبت المصطلحات

المصطلح	مقابله
إثبات	Affirmation
إقناع	Persuasion
البرهان بالخلف	Reductio ad absurdum
البلاغة	Rhétorique
تأويل	Interprétation
ترميز	Allégorie
تصريحي	Explicite
تضاد	Contrarium
تضميني	Implicite
تعبري	Expressif
تعاوني	Coopératif
تكتّم شفيف	Dissimulation transparente
تلفظ	Enonciation
تمثيل	Représentation
تناظر	Analogie
تناقض	Contradiction
تورية	Litote
جملة	Phrase
جملة مضادة	Antiphrase
حجاج	Argumentation
حواري	Dialogal
خطاب	Discours
دحض	Réfutation
سخرية	Ironie

Inférence	استدلال
Modus tollens	الاستدلال الخلفي
Trope	استعارة
Sophistique	سفسطائي
Négativité	سلبية
Véridicité	صدقية
Encontre	ضد
Présumer	افتراض
Sui generis	فريد من نوعه
Suggestion	اقتراح
Proposition	قضية
Mot	كلمة
Absurde	لا منطقي
Hyperbole	مبالغة
Astéisme	مديح
Ridiculum	المضحك
Contredire	معارضة
Sens	معنى
Standarisé	مُمعير
Ad hominem	مغالطة شكلية
Paradoxe	مفارقة
Prémisse fausse	مقدمة مغلوطة
Simulation	مماثلة
Débat	مناظرة
Attitude	موقف
Critique	انتقاد
Relativité	نسبية
Théorie	نظرية
Texte	نص

Echoic Mention Theory	نظرية إشارة الصدى
Allusional Pretense Theory	نظرية الحجة التلميحية
Joint Pretense Theory	نظرية الربط التلمحي
Type de texte	نمط النص
Situation communicative	وضعية تواصلية



# **Logique, langage et argumentation**

## **(Entretien avec J.B. Grize)**

**Boubker AZZAOU**  
**Faculté de lettres de Beni-**  
**Mellal**

Jean Blaise GRIZE est Professeur honoraire à l'Université de Neuchâtel et Docteur Honoris Causa des Universités de Genève et Paris Nord. Mathématicien et logicien, il a contribué plus qu'on ne l'imagine et durant longtemps, aux travaux du psychologue Jean Piaget. Conjointement, Jean-Blaise GRIZE à lui-même fait œuvre de logicien et tant à Paris qu'en Suisse ou à Montréal, initié des générations de chercheurs aux problématiques de la logique contemporaine. Mais l'originalité essentielle de sa démarche réside dans cette entreprise débutée en 1969, lors de la fondation du Centre de Recherches sémiologiques de Neuchâtel dont il a été directeur jusqu'en 1987, entreprise tout entière consacrée à définir les conditions épistémologique et scientifiques d'une «logique naturelle» en tant qu'elle traduit «des opérations de pensée exprimées au travers des discours». Cette recherche aujourd'hui, a fait largement école: Jean-Blaise GRIZE est une référence essentielle pour tous ceux qui se préoccupent des phénomènes de discours, d'argumentation et d'opérations logico-naturelles à l'intérieur des la problématique énonciative.

Il a publié 20 livres et 200 articles, durant la période 1948-2004, parmi ses ouvrages on peut citer les suivants:

- Exercices d'algèbre (avec W. Richter) Neuchâtel, 1948.
- Cours de physique (avec F. Spichiger), 2 Volumes, Neuchâtel, 1954.
- Géométrie élémentaire (avec W. Richter), Neuchâtel, 1954.
- Essai sur le rôle du temps en analyse mathématique classique, Thèses de doctorat, Neuchâtel, 1954.

- Logique moderne, 3 tomes, Mouton, 1969-1973.
- Métamathématique de P. Lorenzen: traduit de l'Allemand par J.B GRIZE, Paris, Mouton, 1972.
- Inventaires piagétien (avec L. Pauli et R. Droz), Paris, OCDE, 1977.
- De la logique à l'argumentation, Genève, DROZ, 1982.
- La contradiction, Essai sur les opérations de la pensée (avec G. piéroult- Le Bonniec), Paris, P.U.F. 1983.
- Essai de la logique naturelle (avec J.M. Borel et D. Miéville), Berne, Lang, 1983.
- Logique et langage, Paris, Ophrys, 1990.
- Un signe parmi d'autres, Neuchâtel, Attingen, 1992.
- Logique naturelle et communication, Paris, P.U.F, 1996.

**Boubker AZZAOU:** Est-ce qu'il y a une différence radicale entre logique et langage (ou discours), c'est-à-dire une différence de nature et de domaine ?

**Jean Blaise GRIZE:** Je commencerai par préciser ce que j'appellerai d'une part la logique et d'autre part le discours, je considère que La logique a pour but d'analyser certaines formes de pensée et que le discours est une des activités qui manifeste la pensée. Elle est loin d'être la seule. Bien d'autres conduites la manifestent, par exemple la construction d'outils, la chasse, l'ensevelissement des morts, la danse, le chant, etc. je réserverai le terme de langage aux systèmes de signes dont se sert le discours, dont les deux principaux sont les langues naturelles et les langues mathématiques. Parler donc du langage de la danse, de celui de l'architecture ou de la mode, ce sera faire un usage métaphorique du terme.

**B. AZZAOU:** Vous avez traité la relation logique-langage dans votre livre intitulé «Logique et langage» ; Comment vous avez étudié cette relation ? et quelles sont les résultats de cette analyse ?

**J.B. GRIZE:** La méthode est abductive. Il s'agit donc d'observer des productions discursives, (énoncés ou formules) et



d'en tirer des hypothèses sur les opérations de pensée qui les ont engendrées. Dans mes travaux, je me suis limité à l'observation des discours tenus dans une langue naturelle, et même dans celle qui m'est la plus naturelle de toutes, le français. Il s'agit alors, à proprement parler d'opérations logico-discursives d'où l'expression de «logique naturelle».

En voici deux exemples.

**a. Observation:** «les personnes qui ont une invitation prennent place au premier rang». Je fais l'hypothèse que l'énoncé découle d'une opération logique de limitation de l'extension du concept de personne, à savoir celles parmi elles qui ont une invitation. «Les personnes, qui ont une invitation, ont assisté au spectacle». L'opération logique responsable est celle d'une détermination de la classe des personnes, à savoir toutes ont une invitation, comme elles pourraient toutes porter des chaussures.

**b. Observation:** Il y a contraste entre «Le président est absent» et «Le président serait absent» Hypothèse: introduire des modalités entre l'énonciateur et le contenu de son énonciation, plus précisément des modalités de dicto. Marques linguistiques: indicatif/conditionnel. Tentative de généralisation. L'attitude de l'énonciateur face au contenu de son énoncé est celle de l'indignation et il dit «Il est scandaleux que le président soit absent».

Présence du subjonctif. Si le logicien introduit des modalités de dicto c'est qu'il en conçoit d'autres, les modalités de re. Le discours peut marquer la différence, mais elle est souvent douteuse (tout au moins en français). «Il est nécessaire que le président soit absent» vs «Le président est nécessairement absent». Problème à débattre comme celui des modulations. Logiquement, on peut être absent de multiples façons, visiblement, en secret, etc. Ici, pas très clair, mais avec «courir» par exemple, ce l'est beaucoup plus. On peut courir vite et lentement, sans qu'il soit possible de dire «il est vite, lent, qu'il coure» (subjonctif).

**B. AZZAOU:** Avec les sciences cognitives, la logique floue, la théorie du prototype et autres théories, je pense qu'on est amené à ne plus admettre une séparation stricte et radicale entre argumentation et démonstration, entre logique et discours. On adopte plutôt une conception graduelle. Est-ce que vous êtes d'accord avec ce point de vue ?

**J.B. GRIZE:** J'ai d'abord trouvé utile de distinguer entre démontrer et prouver. Je dirai qu'une démonstration est faite de déductions, une déduction ne faisant qu'exprimer ce qui est contenu dans le système de la langue (au sens d'exprimer le jus d'un citron). De 'Pierre a la grippe', je déduis que «Pierre est malade» (par définition la grippe est une maladie infectieuse), tandis qu'une preuve est faite d'inférences, une inférence se servant de règles ou de topoï (de «principes») admis par les interlocuteurs. Connaissant Pierre comme je le connais, j'infère de ce que 'pierre a la grippe' que «pierre ne viendra pas au travail». ceci dit, la différence majeure est qu'une démonstration ne s'adresse pas à un sujet, c'est un calcul, au point que son idéal est la tautologie tandis qu'une inférence ne peut se passer de l'activité de sujets, c'est un raisonnement. Je pose alors qu'une argumentation est faite de preuve pour convaincre (il y a vaincre dans convaincre) et d'autres éléments de nature affective pour persuader. Ainsi y a-t-il fort peu de preuves dans les publicités télévisuelles, mais des éléments de nature tout autre, des filles plus ou moins dénudées pour une marque de voiture et rien de tout sur la technique des moteurs. Le but est de persuader le destinataire d'acheter la voiture et pas le convaincre de sa valeur technique.

**B. AZZAOU:** Peut en parler – dans ce cas – des degrés d'argumentation ou de raisonnement (allant du plus formel, ou moins formel, ou de plus naturel jusqu'au moins naturel) ?

**J.B. GRIZE:** Je suis tout à fait de votre avis, il ya des degrés d'argumentations ils me semblent déterminées par la part qu'y jouent les preuves et par la forces des «principes» reçus en chacune d'elle «plus c'est lourd, plus ça tombe vite» me parait plus «fort»,

quoique physiquement faux, que «plus c'est beau, plus c'est cher» quoique vérifié chez les joailliers.

**B. AZZAOU:** Quelle relation peut en établir entre logique naturelle et logique du langage, autrement dit entre l'argumentation dans la langue et votre définition de l'argumentation ?

**J.B. GRIZE:** Je commencerai par distinguer deux façons d'entendre «logique du langage». Cela peut renvoyer aux concepts et à leur organisation dans un langage donné (au fond à la grammaire). Il n'y a ni indicatif, ni conditionnel, ni subjonctif en langue mathématique. Il y en a en français, mais il n'y pas de subjonctif futur, comme en portugais par exemple. Ici la distinction est évidente. Mais cela peut aussi renvoyer à la dimension argumentative des énoncés au sein d'une langue et l'on en arrive à la question suivante.

**B. AZZAOU:** «L'argumentation dans la langue» au sens d'Anscombe et Ducrot ou aussi la logique du langage, est-elle un type particulier de la logique naturelle ? Est-ce que l'on peut intégrer la théorie du Ducrot dans la logique naturelle plus globale comme la votre ?

**J.B. GRIZE:** Il s'agit de la position de Ducrot et d'Anscombe qui est essentielle pour la logique naturelle puisque c'est du discours qu'elle tire ses hypothèses. Je ferai toutefois trois observations qui ne sont en aucune manière des critiques. La première est que les phénomènes qu'observe Ducrot ont trait à la langue et non à la parole. La deuxième est que «l'argumentation dans la langue» met en évidence des opérations que la logique, elle, se propose de généraliser et d'appliquer à d'autres systèmes. «Le feu est au rouge» contient et même signifie, dit Ducrot, «Il faut vous arrêter». La logique y voit une opération d'implication qui est la même que dans «Le feu est au rouge, il n'est plus vert». La troisième est que la logique naturelle se propose de dégager les opérations qui permettent d'engendrer des schématisations, ce qui n'est pas la visée de Ducrot et d'Anscombe. Nos intentions ne sont pas identiques. Si la logique naturelle ne peut se dispenser de

prendre appui sur l'argumentation dans la langue, la réciproque n'est pas le cas. Autrement dit, les opérations logico-discursives ont réellement deux faces, logique d'une part et langagière de l'autre. On ne saurait donc dire, selon moi, que la logique naturelle constitue une théorie plus globale que celle de Ducrot, ni plus globale d'ailleurs que celle de la logique au sein usuel. Logique formelle, logique naturelle, logique du langage sont trois regards sur les activités de pensée, activités qui d'ailleurs les dépassent toutes.

**B. AZZAoui:** Il y a plusieurs types de logique naturelle. Qu'est ce qu'il y a de commun entre ces toutes sortes de logique naturelle ?

**J.B. GRIZE:** Sous des noms différents, elles se caractérisent toutes par le fait qu'elles se veulent non formelles. D'une façon plus précise, cela signifie que chacune d'elle cherche à saisir quelque aspect du psychisme qui ne réduit pas à la seule dimension intellectuelle, prenant en compte par exemple la sémiotique des passions (Anne Hénault).

**B. AZZAoui:** Quelle relation y a-t-il entre logique et argumentation ?

**J.B. GRIZE:** Comme je viens de le dire, pour moi la logique ne prend pas en compte les sujets, tandis que l'argumentation est toujours celle de quelqu'un pour quelqu'un. La logique traite de propositions, l'argumentation d'énoncés.

**B. AZZAoui:** Le formel, dans un certain sens et d'après l'un de ses aspects, est naturel, puisque logique et mathématique sont le produit de l'intelligence humaine et de la pensée naturelle. Que pouvez-vous nous dire à ce propos ?

**J.B. GRIZE:** Certes, mais il s'est révélé utile et fructueux de distinguer dans la connaissance la forme et le contenu. Le problème est alors que, sitôt que l'on se sert d'un système de signes pour fixer et communiquer la pensée, il se révèle impossible de présenter un contenu sans forme. L'inverse n'étant pas tout à fait le cas. Je dis bien «pas tout à fait». On ne voit pas un traité formel pur, c'est-à-

dire qui ne présenterait que des suites de graphismes. Tout système formel est accompagné de commentaires en langue naturelle. Supprimez tous les mots anglais des Principia Mathematica, imaginez que vous ne sachiez rien par d'autres lectures, et vous n'auriez rien de plus que ce que vous offre des traces sur le sable de la mer.

**B. AZZAoui:** Il y a plusieurs approches de l'argumentation: illocutoire, logique, rhétorique.. etc. Quelle est la comparaison que l'on peut faire entre ces approches ?

**J.B. GRIZE:** Oui, mais elles ont toutes quelque chose en commun qui est, je crois, la volonté d'intervenir sur la pensée d'un individu sans violence physique. Menacer d'envahir l'Irak est un argument, l'envahir n'en est pas un. De là la relation consubstantielle entre argumentation et systèmes de signes et, dans la plupart de cas, l'usage du discours.

**B. AZZAoui:** Vous avez utilisé l'expression «Argumenter et/ou raisonner». Que vous voulez dire par là ?

**J.B. GRIZE:** J'entends par là qu'une argumentation se présente toujours sous l'espèce d'une organisation raisonnée d'objets de pensée. Je cherche à la saisir sous l'aspect des schématisations que produit l'usage des opérations que j'appelle logico-discursives. Une argumentation, une organisation raisonnée, c'est à la fois un résultat et l'activité qui y conduit.

**B. AZZAoui:** Vous avez dit aussi que les langues naturelles ne satisfont pas toujours suffisamment n à la communication, ni au raisonnement, comment ?

**J.B. GRIZE:** Comme je viens de le souligner, les langues naturelles me semblent nécessaires, ce qui ne signifie pas qu'elles sont toujours suffisantes. Tout dépend de ce que l'on veut faire. Essayer d'enseigner à un jeune homme à nouer sa cravate, à une jeune fille à tricoter en ne vous servant que de discours. Je crains que vous vous heurtiez à un échec. De même l'usage des bouliers s'est rapidement imposé dans l'histoire chez des gens qui savaient

parfaitement réciter la suite des nombres. Et je crois bien à l'occasion me servir de mes doigts !

**B. AZZAOU:** Vous dites aussi qu'on peut raisonner sur un graphique, sur un tableau de chiffres, sur un dessin. Est-ce que vous pouvez nous éclairer cela ? Est-ce qu'on peut argumenter aussi sur un dessin ou un graphique ? J'ai défendu, dans l'un de mes articles, la thèse de l'argumentation iconique.

**J.B. GRIZE:** Vous parlez en toute justesse d'argumentation iconique. Ici une icône est un signe comme peut être un indice ou un symbole, c'est un outil avec lequel on raisonne. Cela n'empêche pas que l'on peut aussi raisonner sur ces outils. La question qui se pose alors à moi se situe au niveau de la communication. Dans quelle mesure puis-je répondre par des images aux images que me propose la TV ? Mais aux discours qui les accompagnent, je le peux en téléphonant à la chaîne ou en m'exprimant dans la rubrique «télévision» de mon quotidien.

**B. AZZAOU:** Tout le monde parle de la construction du sens. Comment on construit le sens ? Quelle différence y a-t-il entre votre conception et celle de J.Boutet ou G.Fauconnier ou autres ?

**J.B. GRIZE:** Je dois avouer que je reste beaucoup trop général dans mes déclarations. Je me contente de poser que le sens résulte de la signification à la suite de l'activité discursive. Cela veut dire a) que les mots ont une signification (une valeur, dirait à peu près Saussure), b) que leurs combinaisons donnent une signification aux propositions dans lesquelles ils figurent et c) que l'énonciation des propositions par un locuteur dans une situation donnée leur confère un sens. Ceci me paraît compatible avec les travaux de Josiane Boutet et de G. Fauconnier, mais la première explicite les effets de la dimension sociale des «situations» et le second, par son concept des espaces mentaux, approfondit certains des mécanismes en jeu. Quant à moi, je m'en tiens à la notion de préconstruits culturels et je me contente de considérer que le sens d'une schématisation est ce qui résulte de l'usage que j'ai décrit des

opérations logico-discursives, mais sans être capable d'aller plus loin.

**B. AZZAOU:** Vous adoptez une approche constructiviste. Mais il y a plusieurs types de constructivisme: on veut que vous nous éclairiez là-dessus.

**J.B. GRIZE:** Mon usage du terme est, un peu paradoxalement peut être, plus proche de celui de Varela que de celui de Piaget. En effet, le concept de représentation du monde me paraît mal venu. Les mots renvoient doublement, d'une part au système de la langue à laquelle ils appartiennent (je dis qu'ils dénotent) et d'autre part à des entités hors du système, à des unités culturelles (je dis qu'ils désignent). Dès lors, si une schématisation représente quelque chose, ce n'est pas le monde, c'est une construction de la pensée du locuteur, une construction qui est faite pour et avec son destinataire, «Le modelage mutuel d'un monde commun au moyen d'une action conjuguée» (Varela, Connaître les sciences cognitives, 1989, p.115).

**B. AZZAOU:** Que vous voulez dire par «Sémantique naturelle» ?

**J.B. GRIZE:** Je me contente d'entendre par là ce que j'ai appelé des préconstruits culturels et des unités culturelles. Quant à ce qu'ils sont au juste, je me sers de l'idée de Culioli, celle de systèmes de «propriétés d'objets issues de manipulations nécessairement prises à l'intérieur de cultures» (Pour une linguistique de l'énonciation, 1990, p.65).

# الحجاج بين النظرية والتطبيق



كتاب جماعي محكم

## الباحثون المشاركون

د. أبو بكر العزاوي	د. محمد الوالي
د. عبد الرحمن رحيموني	د. ربيعة العربي
د. عيد بلع	د. لطيف حاتم الزامل
د. إبراهيم أمغار	د. وثام المدي
د. مروة مختار	د. عزيز العمري
د. إبراهيم بوداود	

يسعدني أن أقوم بالإشراف والإعداد الكامل لهذا الكتاب الجماعي المحكم. وقد وقع الاختيار على موضوع الحجاج بأنماطه ونظرياته العديدة والمتنوعة، ووضعنا للكتاب عنواناً دقيقاً ومحدداً هو: "الحجاج بين النظرية والتطبيق". وقد شارك في هذا الكتاب لسانيون وبلاغيون وأدباء ونقاد ومهتمون بالترجمة من المغرب ومصر والجزائر والعراق. وبعض البحوث نحى منحى نظرياً، وبعضها الآخر ركّز على التطبيق، بعضها هو دراسة، وبعضها الآخر هو ترجمة لبحث من البحوث الأصيلة الجادة. وقد تمّ التعريف، في هذا الكتاب الجماعي، بنظريات الحجاج الكبرى: نظرية الحجاج البلاغي نموذج البلاغة الجديدة لرانداها شايم بيرامان، نظرية الحجاج في اللغة لمؤسّسها أرفالد ديكر، نظرية الحجاج المنطقي لصاحبها جان بليز غريز، نظرية الحجاج التداولي الجدلي لصاحبها فان إميرين وروب غروتندورست.

وتناولت البحوث التي اشتمل عليها هذا الكتاب: علاقة الحجاج بالترجمة والسخرية والتعليم والمنطق الطبيعي، وحلل بعضها الخطاب القرآني والخطاب الشعري والخطاب المسرحي وغير ذلك. ونعتقد أن المادة العلمية التي اشتملت عليها هذه البحوث والدراسات والترجمات دسمة، وغنية بالمعلومات والآراء القيمة، ووجهات النظر الجديدة.



هاتف: ٧٧٧٥٥٥٥ ٢ ٩٦٢  
خولي: ٧٩٥٢٣٩٣٣ ٢ ٩٦٢



مكتبة الدولة العراقية للدراسات والبحوث  
الآدم - بغداد



الأردن - إربد - شارع الجامعة  
تلفون: ٢٢٢٢٢٢٢ / فاكس: ٢٢٢٢٢٢٢  
البريد الإلكتروني: (٢٢٢٢) / صندوق البريد: (٢٢٢٢)  
aimakto@yahoo.com  
aimakto@hotmail.com

للنشر والتوزيع